

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU59574429

ME06362

Ala hamish al-sirah

RECAP

عَلَى مَرْسَا السَّيْرِ

حق الطبع محفوظ

مقدمة

هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للدورخين، لأنى لم
أرد بها إلى العلم، ولم أقصد بها إلى التاريخ. وإنما
هى صور عرضت لى أثناء قراءتى للسيرة فأثبثتها مسرعاً.
ثم لم أر بنشرها بأساً. ولعلى رأيت فى نشرها شيئاً من
الخير. فهى ترد على الناس أطرافاً من الأدب القديم
قد أفلتت منهم وامتنعت عابهم. فليس يقرأوها منهم إلا
أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة فى الأدب
العربى القديم. وإنك لتلتبس الذين يقرأون ما كتب
القدماء فى السيرة وحديث العرب قبل الاسلام فلا تكاد
تظفر بهم.

إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون فى
الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات
المنتشرة فى الشرق، يجدون فى قراءة هذا الأدب من اليسر

والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ، ما يغريهم به ، ويرغبهم فيه ،
فاما الأدب القديم فمقارنته عسيرة ، وفهمه أعسر وتذوقه
أشد عسراً . وأن هذا القارئ الذى يطمئن إلى قراءة
الأسانيد المطولة والأخبار التى يلتوى بها الاستطراد ؛
وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل
والذوق الهين الذى لا يكلف مشقة ولا عناء .

ذلك إلى أن الأدب القديم لم ينشأ ليقى كما هو ثابتاً
مستقراً ، لا يتغير ولا يتبدل ؛ ولا يلتمس الناس لذته إلا فى
نصوصه يقرأونها ويعيدون قراءتها ، ويستظهرونها ويمعنون
فى استظهارها . إنما الأدب الخصب حقاً هو الذى يلذك
حين تقرأه ؛ لأنه يقدم اليك ما يرضى عتلك وشعورك ؛
ولأنه يوحى اليك بما ليس فيه ويلهمك ما لم تشتمل عليه
النصوص . ويعيرك من خصبه خصباً ومن ثروته ثروة
ومن قوته قوة ؛ وينطقك كما أنطق القدماء ، ولا يستقر فى
قلبك حتى يتصور فى صورة قلبك ؛ أو يصور قلبك فى صورته ؛
وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم فى شكل جديد

يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم ؛
وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم .

هذا هو الأدب الحى . هذا هو الأدب القادر على
البقاء ومناهضة الأيام . فأما ذلك الأدب الذى ينتهى أثره
عند قراءته ؛ فقد تكون له قيمته ؛ وقد يكون له غناؤه ؛ ولكنه
أدب موقوت ؛ يموت حين ينتهى العصر الذى نشأ فيه . ولو
أنك نظرت فى آداب القدماء والمحدثين لرأيت منها طائفة
لا يمكن أن توصف بأنها آداب عصر من العصور أو بيئة
من البيئات أو جيل من الأجيال ؛ وإنما هى آداب العصور
كلها والبيئات كلها والأجيال كلها . لا لأنها تعجب الناس
على اختلاف العصور والبيئات والأجيال فحسب . بل
لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحى إليهم ؛ وتجعل منهم
الشعراء والكتاب والمتصرفين فى ألوان الفن على اختلافها .
وليس خلود الالياذة يأتيها من أنها تقرأ فتحدث اللذة
وتثير الإعجاب فى كل وقت وفى كل قطر . بل هو يأتيها من
هذا ومن أنها قد ألهمت وما زالت تلهم الكتاب

والشعراء ؛ وتوحى إليهم بأروع ما أنشا الناس من آيات
البيان . ولقد كان ايسكولوس أبو التراجيديا اليونانية يقول
إنه إنما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس . وما زال
القصاص وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين أن
يقولوا الآن ما كان يقوله ايسكولوس منذ خمسة وعشرين
قرناً . ولم تكن قصص ايسكولوس وغيره من شعراء التمثيل
اليوناني أقل خصباً من الاللياذة بل هي قد اهتمت من
ألهمت من الكتاب والشعراء قديماً وحديثاً وما زالت
قادرة على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى غد .

وإني لأذكر أني قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هي
الثامنة والثلاثون من نوعها وقد سماها صاحبها جيرودو بهذا
الرقم ؛ فوضع لها هذا العنوان « انفيتريون رقم ٣٨ » كانت
اسطورة تتصل بمولد هيرقل فصورها سوفوكل قصة تمثيلية في
القرن الخامس قبل المسيح . وما زال الشعراء والكتاب من
اليونان والرومان والأوربيين المحدثين يتأثرونه ويذهبون
مذهبه ، أو غير مذهبه في تصوير هذا الموضوع ؛ حتى انتهت

القصص التي كتبت فيه شعراً ونثراً إلى هذا العدد الضخم .
ولم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا
إليه ؛ بل زادهم ذلك حرصاً عليه ؛ ورغبة فيه ؛ وكان بين الذين
طرقوه الشاعر اللاتيني بلوت والشاعر الفرنسي موليير . ثم
لم يشفق جيروودو من أن يطرق موضوعاً سبق إليه الفحول
من شعراء التمثيل في العصور القديمة والحديثة ؛ فصور
قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة في باريس
سنة ١٩٢٩ فكان فوزها عظيماً وإعجاب النظارة والقراء
بها لا حده .

وفي أدبنا العربي على قوته الخاصة ؛ وما يكفل للناس من لذة
ومتاع ؛ قدرة على الوحي ؛ وقدرة على الإلهام فأحاديث العرب
الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ؛ ولم تحفظ في صورة
بعضها ؛ وإنما قصصها الرواة في ألوان من القصص ؛ وكتبها
المؤلفون في صنوف من التأليف . وقل مثل ذلك في السيرة
نفسها ؛ فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور
الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضاً . فصوروها

صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال
الفنى . وقل مثل هذا فى الغزوات والفتوح ؛ وقل مثل هذا
فى الفتن والمحن التى أصابت العرب فى عصورهم المختلفة ؛
ولم يقف إلهام هذا التراث الأدبى العظيم عند الكتاب
والشعراء الذين ينمقون النثر ؛ ويقرضون الشعر ؛ فى اللغة
العربية الفصحى ، بل تجاوزهم إلى جماعة من القصاص
الشعبيين الذين تحدثوا إلى الناس فى صور مختلفة ؛ وأشكال
متباينة ؛ بما كان لآبائهم من مجد مؤثّل ؛ وبما أصاب آباءهم
من محن مظلمة ؛ وفتن مدهمة . عرفوا كيف يثبتون لها
ويصبرون عليها ؛ ويخرجون منها كراما ظافرين ؛ ولا خير فى
حياة القدماء إذا لم تلهم المحدثين ولم توح إليهم بروائع
البيان شعراً ونثراً ؛ وليس القدماء خالدين حقاً إذا لم يكن
التماسهم إلا عند أنفسهم . ولا تعرف أنباؤهم إلا فيما
تركوا من الدواوين والأسفار . إنما يحيا القدماء حقاً
ويخلدون حقاً ؛ إذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال
مهما يبعد بها الزمن . وكانوا حديثاً للناس إذا لقي بعضهم

بعضاً؛ ولنوزا يستثمرها الكتاب والشعراء؛ لآحياء ما يعالجون
من ألوان الشعر وفنون الكلام .

إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم : ومن إحياء
ذكر العرب الأولين؛ قصدت حين أمليت فصول هذا
الكتاب . ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن
هذا الكتاب ، فإنى لم أفكر فيه تفكيراً ، ولا قدرته تقديراً ؛
ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه ؛ كما يعتمد المؤلفون ؛ إنما دفعت
إلى ذلك دفعا ؛ وأكرهت عليه اكراها ؛ ورأيتنى أقرأ السيرة
فتمتلئ بها نفسى ، ويفيض بها قلبى ؛ وينطلق بها لسانى وإذا
أنا أملى هذه الفصول ؛ وفصولاً أخرى أرجو أن تنشر بعد حين
فليس فى هذا الكتاب إذا تكلف ؛ ولا تصنع ؛ ولا محاولة
للأجادة ؛ ولا اجتناب للتقصير ؛ وإنما هو صورة يسيرة طبيعة
صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب
التي لا أعدل بها كتباً أخرى مهما تكن ، والتي لا أمل قراءتها ؛
والأنس إليها والتي لا ينقضى حبي لها ؛ وأعجبنى بها وحرصنى
على أن يقرأها الناس . ولكن الناس مع الأسف لا يقرءونها

لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون : فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتماس المتاع الفنى فى صفحتها الخصبه . فأنا سعيد حقاً ، موفق حقاً : إلى أحب الأشياء إلى وآثرها عندى .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى ؛ ويلفتمهم إلى أن فى سدا جتها ؛ ويسرها جمالا ليس أقل روعة ؛ ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه فى الحياة الحديثة المعقدة . فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى ، واتخاذها موضوعاً قيماً خصباً لا للاتجاج العلمى فى التاريخ والأدب الوصفى وحدهما ، بل للاتجاج فى الأدب الإنشائى الخالص ؛ فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب أن القديم لا ينبغى أن يهجر لأنه قديم ؛ وأن الجديد لا ينبغى أن

يطلب لأنه جديد ، وإنما يهجر القديم إذا برىء من النفع وخلا من الفائدة ؛ فإن كان نافعا مفيدا فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد ؛ فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد .

وأنا أعلم أن قوماً سيضيعون بهذا الكتاب ؛ لأنهم محدثون يكبرون العقل ؛ ولا يشقون إلا به ؛ ولا يطمئنون إلا إليه . وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها . وهم يشكون ويلحون في الشكوى حين يرَوْنَ كلف الشعب بهذه الأخبار ، وجده في طلبها وحرصه على قراءتها ؛ والاستماع لها ؛ وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث ، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيعون بهذا الكتاب بعض الشيء ؛ لأنهم سيقراءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء ؛ وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضى من العقل . وإن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها

العقل : ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير
العلوي : فان في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم
وميلهم إلى السذاجة : واستراحتهم إليها من جهد الحياة
وعنائها ما يجب إليهم هذه الأخبار : ويرغبهم فيها ويدفعهم
إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم
الحياة . و فرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى
العقل على أنها حقائق يقرها العلم ، وتستقيم لها مناهج البحث :
ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مشيرة لعواطف
الخير ، صارقة عن بواعث الشر ، معينة على إنفاق الوقت
واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش

وأحب أن يعلم الناس أيضاً اني وسعت على نفسي
في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع
الحديث ما لم أجده به بأساً ، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار
بشخص النبي ، أو بنحو من انحاء الدين . فاني لم أبح
لنفسى في ذلك حرية ولا سعة ، إنما التزمت ما ألتزمه المتقدمون
من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين .

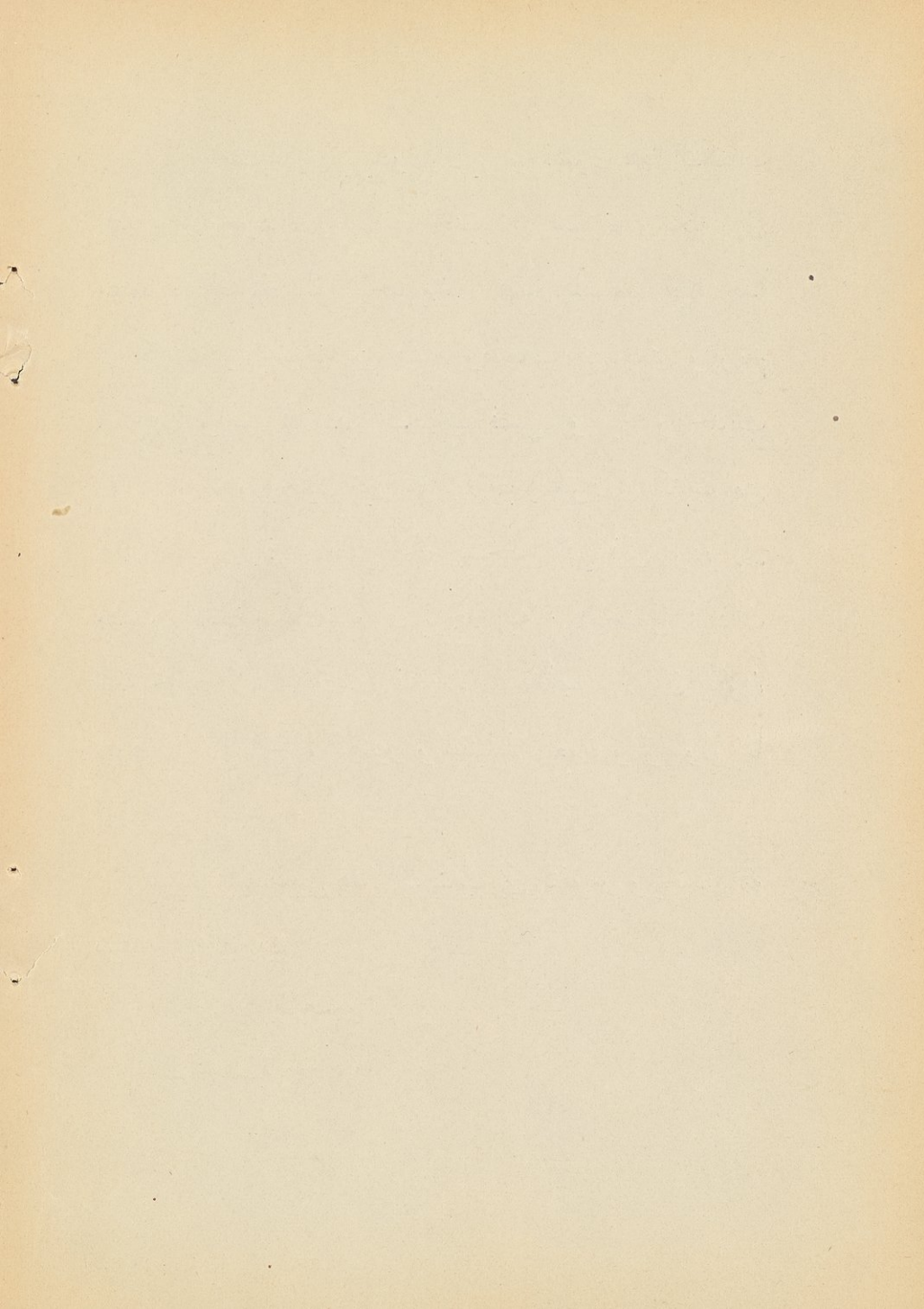
ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب
القديم في جوهره وأصله ، الجديد في صورته وشكله ، إلى
مصادره القديمة التي أخذ منها . فهذه المصادر قليلة جداً
لاتكاد تتجاوز سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، وتاريخ
الطبرى ، وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث
إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد في كتاب من
هذه الكتب ، فاذا اتصل الخبر بشخص النبي فأنى أردته إلى
مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه . لا احتمال في ذلك
تبعة خاصة لأنى لأذهب فيه مذهباً خاصاً إلا أن يكون
تبسيطاً في الشرح والتفسير واستنباط العبرة والوصول بها
إلى قلوب الناس .

فليسر الله سبيل هذا الكتاب إلى النفوس وليحسن الله

موقعه في القلوب

طه حسين

ديسمبر سنة ١٩٣٣



هضر زمزم

كان عبد المطلب سمح الطبع رضى النفس سخيّ اليد حلو العشرة عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً قوى الايمان تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً . أبوه من مكة حيث التجارة والثروة ، وحيث المكر والدهاء ، وحيث الوثنية السهلة التي لا تخرج فيها ولا مشقة . وأمه من يثرب حيث الزراعة والصناعة اليسيرة ، وحيث اليهودية تجاور الوثنية فتضعفها وتنقص من ظلمها وتكاد تمحوها ، وحيث الأخلاق اللينة والشائيل الحلوة ، وحيث الظرف ونعومة الحياة .

ولد في يثرب ، ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى مكة فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم وتحلق بأخلاقهم وسار سيرتهم ، حتى بلغ الشباب أو كاد . ثم أقبل عمه فانتزعه من إقليمه السهل الهين إلى إقليم آخر صعب عسير ، تجذب فيه الأرض ولا تبتمس له السماء إلا قليلا . يرحل أهله إلى الآفاق ، ويفد على أهله الناس من جميع الآفاق . فهم يأخذون من الناس ويعطونهم ، ويبادلونهم الأخلاق والشائيل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة . ولعل أخلاق يثرب وخصال مكة قد اختصمت في نفس هذا الغلام ، ولعل اختصاصها قد طال .

ولعل اختصاصها قد قصر . ولكنها على كل حال قد انتهت إلى شيء من الاعتدال آخر الأمر . فلم يكتمل القى شبابه حتى كان قى من قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش : فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزيمتهم ، ولكن فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو ييسمون لها . على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز ، فلم يكن يصدر في حياته ، كما كانوا يصدرون ، عن الروية والتفكير وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليها ويغلو في الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يدعن لها ويصدع بأمرها . وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا يملك لها خلافاً . وتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح الخيال بين الصورة ، يلم به إذا اشتمله النوم فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمر . وتنتهى إليه مرة ثالثة صوتاً رفيعاً ولكنه ملح يملأ أذنيه يقظان ويملاً أذنيه نائماً يحشه على أن يأتي كذا وكذا من الأمر . وكان في هذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إبهام ، وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام . وكان القى ينكره ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان القى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان الصوت يتجنب القى حتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الإلمام . ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن القى بالفاظ كالتى تقع في آذان الناس ، إنما

كان يصطنع ألفاظاً خاصة غريبة الجرّس غريبة المعنى .
كانت إليه رِفادة الحاج وسقايته بعد عمه المطلب ، فكان يطعم الناس
إذا حجوا البيت ويسقيهم ، يجمع لهم الماء في أحواض من الأدم . وكان يجد
في جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهداً وعسراً . فبينما هو نائم ذات يوم أو ذات
ليلة ، أتاه آت رأى شخصه ولم يتبين له سمة ولا شكلاً ، وقال له في صوت
رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة : « احفر طيبة » . قال : وما طيبة ؟
فانصرف الشخص وانقطع الصوت ، وأفاق الفتى وفي نفسه ذعر وعجب
وأمل . وحاول أن يعود إلى النوم لعله يرى هذا الشخص أو يسمع هذا
الصوت أو يتبين هذا الحديث ، ولكن النوم كان قد خاضع عينيه وانصرف
عنه مع هذا الشخص الغريب . ففكر وأطال التفكير ، وقدّر وأطال التقدير ،
وتقلب في مضجعه فأكثر التقلب ، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه ،
فجلس يرقى بصره الحائر إلى السماء لعل شمس النهار أو نجوم الليل تفسر له
هذه الرؤيا ، ويخفض بصره إلى الأرض لعله يجد في إطراره تفسير هذه
الرؤيا ، ويمد بصره نحو الكعبة لعل صنماً من هذه الأصنام المنصوبة يوحى
إليه تعبير هذه الرؤيا . ولكن السماء صامتة والأرض ساكنة وعلى أصنام
الكعبة شيء كأنه الوجوم ، فيرتد إلى الفتى بصره متعباً مكدوداً ، وتهوى
نفسه إلى قرارة ضميره لعلها تجد لهذا الرمز تأويلاً ، فلا تجد شيئاً ، فيشتد
بها الذعر ويزداد فيها العجب ، ويبقى لها الأمل . وينهض الفتى فيضطرب
مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة .

ثم يقبل الليل ويأوى الفتى إلى مضجعه ، وقد أنسى كل شيء إلا أنه قد مشى كثيراً وأجهد نفسه كثيراً ، وأنه أشد ما يكون حاجة إلى أن يبسط عليه النوم جناحيه . هاهو ذا مغرق في نوم هادئ مطمئن ، قد هدامن حوله كل شيء واطمأن في نفسه وجسمه كل شيء . ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل إليه ساعياً إليه في أناة ، حتى إذا دنامنه قال له في صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة : « أحفر برة » . وجسم الفتى هادئ مطمئن ، ولكن نفسه تأثرة مضطربة ، ولسانه يتحرك في ثقل ، وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفاً رقيقاً بهذه الكلمة : « وما برة ؟ » فينصرف الشخص وينقطع الصوت ، ويفيق النائم وجلاً مذعوراً معجباً آملاً ، ويفكر ويقدّر ويتقلب . ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة ! ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ! ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة في البله والوجوم ! ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام فيهم على وجهه يلتمس في الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذي يفزعه ويغريه . ثم يعمل الناس في أمور الحياة . وينقضى النهار بخيره وشره وحلوه ومره ، ويقبل الليل شيئاً فشيئاً فيبسط أريدته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام ، وما يزال يد في هذه الأردية حتى يغمر كل شيء ويستر كل شيء لولا هذه المصابيح الضئيلة التي تشب في الأرض ، وهذه النجوم القليلة التي تضطرب في السماء . وقد سمر الفتى مع السامرين ، فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار : هذا يحدث عن قصور بصرى وعظمتها ، وهذا يحدث عن الخورنق والسدير ، وهذا يذكر

غُمدان ، وهذا يصف أخلاق اليمانيين ومكرهم بالتجار ، وهذا يتحدث عن
سداجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب ، وهذا يذكر ما أفاد من ربح
حين باع الأدم في الحبشة ، وهذا يذكر للقوم ما حمل لهم من خمر ييسان .
وهم في أثناء هذا كله يتندرون على العجم والأعراب ، ويتفكهون بأحاديث
أولئك وهؤلاء ، ويسخرون من أولئك وهؤلاء . حتى إذا تقدم الليل واطمأن
كل شيء تفرقوا ، ونهض الفتى ثقيلاً فمشى إلى بيته متباطئاً يود لو فر من
النوم ، ويود مع ذلك لو نام فألم به هذا الطيف . أنظر إليه ! إنه ليردد :
أيقذف بنفسه في أمواج النوم هذه التي تتمثل أمام عينه ! لم يبق على الشاطئ
يقظان يداعبه النوم ولا ينام ، ليردد ما استطاع ، ليتنع على النوم ما وسعه
الامتناع ، فان هذه الأمواج المصطخبة أمامه تستطيع أن تغطي على الشاطئ
فتغمره وتغمر معه كل شيء . وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها
وما استطاعت أن تمتنع عليها جبال مكة هذه التي تحيط بها من كل
ناحية ! انظر أترى حركة ؟ اسمع ! أتحس نبأة ؟ كل شيء هادئ ! كل شيء
مطمئن ! فما نبؤك وما امتناعك ! هلم إلى النوم لا تخف شيئاً ! إن هذه
الأمواج تريح ولا تعرق . أقبل إلى هاتين النراعين اللتين تمتدان إليك
فستنسئ بينهما كل شيء . ومن يدري لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة !
وأطبق الفتى جفنيه واندفع أمامه ، فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت
على غيره من الناس والأشياء . ولكن ماذا ؟ هذا شخص يتقدم ساعياً
هادئاً كأنه عش على الهواء ، حتى إذا دنا يمشى من الفتى قال في صوت

رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر المذنونة » . جسم الفتى هادىء
ولكن صورة من الخيرة قد ارتسمت على جبهته ، وهذا صوت خفيف
رقيق ينبعث بين شفثيه وهو يقول : ما المذنونة ؟ فينصرف الشخص ويفيق
الفتى مذعوراً مأخوذاً ، قد أظلم فى نفسه كل شىء ، وأحاط اليأس بعقله
وقلبه وضميره . لا يرتفع بصره إلى السماء ولا ينخفض إلى الأرض ولا
يتمدد إلى أصنام الكعبة ، ولكنه يدور حائراً . وينهض الفتى وهو يقول :
ما أرى إلا أنى ساجن ! لئن أصبحت لآتين الكاهن ، فلعلى أجد عنده
من هذا العارض شفاء .

أقبل أيها الصبح ، أسرع فى الخطو ، أرفق بهذه النفس الحائرة ، هلم
إلى سوطك المشرق المضى ، فبدد به هذه الأشخاص الماثلة ، فرق به هذه
الظلال المضطربة من حولى . ويقضى الفتى ليلاً طويلاً ثقيلاً ، حتى إذا
كست الشمس بضوءها النقي ظواهر مكة وبطاحها أسرع الفتى إلى المسجد
يريد أن يقص أمره على الكاهن . ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش
فى فناء المسجد حتى تذهب عنه حيرته ويفارقه وجومه ، ويمتلئ قلبه
اطمئناناً وثباتاً . ماذا ؟ أأزعم للكاهن أنى مجنون وتشيع فى هذه المقالة
ويضحك منى حرب بن أمية ولِداته ويتندّر على فتيان مخزوم ؟ كلا ! .
ما أكثر هذه الخيالات التى تسكن إلى نفسها فى قبور الموتى ! وتحتبىء فى
الكهوف والأغوار ما أضاعت الشمس واستيقظت الطبيعة ، فإذا أظلم
الليل ونام الكون انتشرت هذه الخيالات فى الجو ، فمنها ما يصعد فى السماء

يرعى النجوم ، ومنها ما يهبط إلى الأرض يروّع الناس . وما أرى أن هذا الطائف الذى يؤرّقنى منذ ثلاث إلا خيالا من هذه الخيالات ، لعله ظل ميت من موتى قریش قد أنسيه قومه فهم لا يزورونه ولا يقربون إليه . لعله شيطان من هذه الشياطين التى تلح على الأنس فتتقاضاهم الطاعة وتخضعهم لسلطانها كرها . لعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالضحية والقربان . لقد مضت أيام ولم تقدم الى الآلهة شاة ولم ينحر لهم جزور ، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القانى الذى تحب الآلهة لونه ورائحته . إيه يا عبد المطلب ! تقرب إلى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون ، ولعلهم يكفّون عنك هذا الشر ! وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قریش ، فتحدث وسمع ، ولكنه كان شارد النفس ، فلم يُطل الحديث ولا الاستماع ونهض موليا . فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية لمن حوله : رأيتم إلى سرى بنى هاشم ! انى لأراه محزونا ، وانى لأعرف فى وجهه الهم ، لم يحدثنا اليوم عن ما أثر آييه ومفاخر عمه .

ومضى الفتى إلى أهله . فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى ، فاستقبلته دهشة وهى تقول : إيه يا شية ؟ ما خطبك ؟ إني لأنكرك منذ أيام ، أراك مؤرق الليل ، قلق النهار ، قليل الحديث ، طويل التفكير . ولقد هممت أن أسألك مرات ، ولكنى خشيت ردك على واتهارك لى . فانى لأعلم فيكم معشر قریش رقة للنساء ، ودعابة معهن ، ولكنى لأجد عندك ما أجد عند قومك ، فأنت صامت إذا خلوت إلى أهلك ، وأنت مقطب الجبين إن أظلك معهم سقف . تحدث ! ما يحزنك ؟ أخرج عن هذا الصمت الذى لزمته .

كن رجلاً من قريش ، أشرك أهلك فيما يعينك . لقد أذكر يوم أنبأني
أبي أنك خطبتني إليه ، لقد فرحت بهذا النبأ ، لقد كنت أتحدث إلى أترابي
في البادية بأنني سأصبح امرأة من قريش ، أجد من نعمة الحياة ولينها ومن
ظرف الزوج ورقته مالا يجدن تحت خيام بني عامر بن صعصعة ، ولكنني
وجدت نعمة ولينا ، ووجدت حباً وعطفاً ، ووجدت عناية لاتعدها عناية ،
ولم أجد أحب ما كنت أطمح إليه : لم أجد منك ابتسام الثغر ، ولا انبساط
الجبين ، ولا انطلاق اللسان . قالت ذلك وانتظرت هنيهة . فأجابها زوجها
بصوت هاديء حزين : عزيز عليّ ياسمراء ما تجدين من حزن ، وما تحسين
من خيبة الأمل . اني لأحبك كما يحب الظمان ما ينقع غلته من الماء العذب .
إني لآنس إليك أنساً يزيل عن نفسي كل همّ ويحبب إليّ الحياة ويرغبني
فيها . إني لأشتاق إلى التحدث إليك والاستماع لك والآنس بك ، ولو
خيرت لما عدلت بمجلسك مجلس قريش ولا بيتك فناء المسجدودار الندوة .
ولكن قوة خفية عاتية طاغية تملك عليّ نفسي وتأخذ عليّ كل سبيل
وتدفعني إلى حيث لا أدري ولا أريد . إيه ياسمراء . . إني لمؤرق الليل ،
قلق النهار ، مفرّق النفس منذ ليال ، وإني لأخشى على نفسي شراً . هذا
طائف يلمّ بي إذا أغرقت في النوم فيأمرني بصوت رفيق غريب ، فيه أنس
وفيه وحشة أن أحفر شيئاً يسميه طيبة ويسميه برة ويسميه المضونة . فإذا
سألته عما يريد انصرف شخصه وانقطع صوته ، وأفقت حائرّاً مذعوراً . لقد
همت ياسمراء أن أقص رؤياي هذه على الكاهن ، وأن أصف له ما أرى

وما أجد ، ولكنى أشقت أن يتحدث الناس عني أنى مجنون ، أو أن يتندّر بي فتیان قريش فيقولوا : إن له رأيًا من الجن . أشيرى ماذا ترين ؟ قالت سمراء : هوّن عليك ولا تغل في الخوف ولا تسرف في الاشفاق ، ما أكثر ما يلم أمثال هذا الطيف بالناس عندنا في البادية ، فلا يحفلون ولا يأبهون . ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة في غير توسط للكهن ولا توسل به ! . قم فضحّ لهم وقرب إليهم فسيرضون ، وسيرضى الفقراء والجائعون ، وسيغيظ ذلك قوماً من قريش .

وما هي إلا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس ، فيهم الفقراء قد أقبلوا من البطاح والظواهر ، وفيهم الأغنياء قد أقبلوا يقدّمون الضحايا بين أيديهم . هؤلاء يتنافسون أيهم يغلي الضحايا ويكثر منها ، وأولئك ينتظرون ويمنّون أنفسهم بغريض اللحم وجيده . لقد سمعوا أن عبد المطلب يريد أن يضحّى ، وأن بنى هاشم قد حفلت لذلك ، فكرهت أمة ألا تفعل فعلهم ، وكرهت مخزوم أن تسبقها عبد مناف . فأقبل أشراف قريش يستيقون في التضحية ويتنافسون في القربان ! تنافسوا ! تنافسوا أيها الأشراف ! استبقوا أيها الأغنياء ! فان في ذلك شبع الفقراء وسعادة الأشقياء . وقضت مكة يوماً دامياً سميناً ، كثر فيه الطعام وكثر فيه الشراب ورضيت فيه الأصنام . وسعد الفتى بما رأى ، ونسى الفتى ما كان يهيمه وينغصه . وقدر الفتى أن قد صُرف عنه الشرور دّ عنه المكروه . ورضيت سمراء ، فتحدثت كثيراً وسمعت كثيراً وأضحكت زوجها وابنها الحارث

بمَلَح الأعراب ونوادر البادية . وقالت لزوجها وهى تمسح رأسه : أحبب
إلىَّ بهذا الطائف الذى أرتك وأضناك ! فقد حقق أملى وأرانى ما كنت
أطمح إليه ، ورسم فى قلبى صورتك جميلة خلاصة ، فلن أراك منذ اليوم
— مهما تكن الخطوب — إلا باسم الثغر ، منبسط الجبين ، منطلق اللسان .
وهل السعادة إلا لحظات قصار ، تصيينا ولم تنتظرها ولم تقدّر لها حساباً !
فما أسعد القلب الذى يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر ، ويتخذها ذخراً
للأيام وما يعرض فيها من الخطوب . قال عبد المطلب : إذا فأنت راضية
ياسمراء . إن رضاك ليقع من نفسى الحزونة موقع الماء من الأرض المجربة .
إنعمى بما أنت فيه ، وانتظرى أن يقدر الله لك خيراً منه . فلو قد صُرفت
عن هذه القوة العاتية الطاغية لأريتك ياسمراء كيف تطيب الحياة ، وكيف
ترقّ حواشى العيش .

وأوى الفتى إلى مضجعه راضياً مسروراً ، واستقبل النوم مبتهجاً له
راغباً فيه . ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعياً فى هدوء ، كما تلمشى
فى الهواء ، حتى إذا دنا منه انحنى عليه ووضع على جبهته يداً باردة خفيفة ،
وقال فى صوت رفیق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « أحفر زمزم » . واضطرب
جسم الفتى كله واضطربت نفس الفتى كلها ، وانفتحت شفتاه عن هذه الكلمة :
وما زمزم ؟ قال الطيف بصوت رفیق مؤنس ، قد فارقت الغرابة والوحشة
وما زجته سخرية ورحمة : « لا تُنرح ولا تُدَمِّم ، تسقى الحبيج الأعظم ،
وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم » . قال الفتى : « الآن

قد وعيت » . فتولى عنه الطيف باسم وهو يقول : « الله أتم أيها الناس
لا يكفيكم الوحي ، ولا تفقهون إلا سجع الكهان . رويداً ! عما قريب
سيضيء الصبح » . ونهض الفتى مبتهجاً مسروراً . فلما أصبح دخل على سمراء
مشرق الوجه مضيء الأسارير . قالت وهي تسعى إليه : أيهما أحب إلي
نفسى إشراق وجهك أم إشراق الشمس ! ما أرى إلا أنك قضيت ليلاً
هادئاً . قال : إنعمى صباحاً يا سمراء ، لقد طابت الحياة منذ اليوم ، إن هذا
الطائف الذى يلم بى منذ ليال ، طائف خير يأتى بالنعمة والغيث ، انه يأمرنى
أن أحترف فى فناء المسجد بئراً ، فلا أفعلن منذ اليوم ، ولئن ظفرت بها
لنشر بن الحجيح فى غير جهد ولا عسر . هلم يا حارث ، خذ معولاً ^(١)
ومكحلة ^(٢) ومسحاة ^(٣) واتبع أباك .



(١) المعول : الفأس العظيمة .

(٢) والمكحلة : زنبيل من خوص .

(٣) والمسحاة : المجرفة التى يحرف بها التراب والطين من على وجه الارض .

التحكيم

لَا هُمْ قَدْ لَبَّيْتُ مَنْ دَعَانِي وَجِئْتُ سَعَى الْمَسْرِعِ الْعَجَلَانِ
ثَبَّتَ الْيَقِينَ صَادِقَ الْإِيمَانِ يَتَبَعُنِي الْحَارِثُ غَيْرَ وَانِ
جَذْلَانِ لَمْ يَحْفَلِ بِمَا يِعَانِي لَا هُمْ فَلْتَصْدُقْ لَنَا الْأَمَانِي
مَالِي بِمَا لَمْ تَرْضَهُ يَدَانِ

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضاً يملأ الفضاء من
حواله ، نقيّاً يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء . وكان كل شيء
مستقراً لا يضطرب فيه إلا هذا الصوت العريض النقي ، وإلا هذه الذراع
التي ترتفع بالمعول قوية ثم تهوى بها محتفزة ، ثم تدعه إلى المسحاة فتغرف بها
التراب في المكمل ، وإلا هذا الغلام الناشئ يرقب حركة أبيه ويسمع صوته
ويرد عليه رجوع هذا الصوت كلما وصل في الدعاء إلى هذا البيت :

لَا هُمْ فَلْتَصْدُقْ لَنَا الْأَمَانِي

حتى إذا امتلأ المكمل حملة بذراعيه الضعيفتين وأسرع في شيء من
الجهد إلى خارج المسجد فألقى ما فيه ثم عاد وأبوه يرفع المعول في الجو ويهبط
به إلى الأرض ويملا فضاء البيت بصوته النقي العريض والعرق يتصبب على
جبينه ، ولكنه لا يحس جهداً ولا يجد إعياء . وكانت الشمس قد أقلت

على الأرض رداء من النور تقيا ولكنه ثقيل همد له كل شيء وأوى له
الناس إلى بيوتهم يقيون ، وانقطعت له الحركة وخفت الأصوات إلا هذه
الجنادب التي يروقها وهج الشمس ويسكرها لب القيط فتصيح بالغناء إذا
سكت كل شيء . وقد أخذ الغلام يحس لدع الجوع وحر الظمأ ولكنه لا يقول
شيئاً بل لا يكاد يفكر في شيء ، إنما سمعه وقلبه لصوت أبيه ، وعيناه للمكتل
والتراب ، ونشاطه لإفراغ المكتل إذا امتلأ . وهما في ذلك ، إذا غلام يسعى
قد أرسلته سمراء يحمل إلى الرجل والغلام شيئاً من طعام وشراب ، حتى إذا
انتهى اليهما وضع ثقله وقال : مولاي ، هذا غداؤك وغداء الصبي قد أعدته
سيدتي العامرية ، هيأته بيدها وهي تعزم عليك لتصيين منه ولترقق بنفسك
ولترققن على هذا الصبي الحدث ! لقد قال الناس جميعاً وهذا كل شيء لهذا
الوهج الذي يصهر الأبدان ويحرق الجلود وأنت فيما أنت فيه من جد يضني
وجهد يهلك ، لا تقيل ولا تستريح ولا تريخ هذا الطفل الذي لم يتعود الجهد
والعناء . بعض هذا يبلغك ما تريد . ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام إلا
بأذن معرضة ، ولم يستقبله إلا بوجه مشيح . إنما هو ماض في رجزه واضطراب
يده بالمعول ارتفاعاً في الجو وهبوطاً إلى الأرض ، والصبي يتبعه بسمعه وقلبه ،
ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم إلى هذه
السلة وما فيها . وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه وانصرف إلى مافي
هذه السلة يعدده ويحصيه ويتمثله : إن فيها لشواء غريضاً ، وإن فيها للبنأ
يمارجه غسل هذيل الذي حملة خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور

أخته منذ أيام ، وإن فيها لماء عذبا . ومن يدرى ! لعل سمراء قد تقعت فيه شيئا من زبيب الطائف ، فانها تجيد ذلك وتحسنه . وعبد المطلب ماض في رجزه وفي حركة يديه بالمعول والمسحاة ، وقد امتلأ المكتل فيهم الصبي أن يحمله ليلقى مافيه ويدنو الغلام يريد أن يعينه في ذلك . ولكن عبد المطلب ينهره نهرا عنيقا : « إليك يا غلام ! فإلهذا الأمر إلا عبد المطلب وابنه » .

ويمضى الصبي بالمكتل ويعود ، ولكن الرجز قد انقطع وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعودا وهبوطا ، وإنما هو مطرق إلى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ، ثم يرفع بصره إلى السماء فيطيل رفعه ، ثم يدير عينه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئا أو أن يلتمس أحدا ، ثم يدعو ابنه في صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضا والاشفاق : هلم يا حار أنظر ! أترى ماء ؟ — كلا يا أبت ! وإنما أرى ذهباً وسلاحاً .

— ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح ، وإنما وعدت بالماء لسقى الحبيج . إن وراء هذا الأمر لسراً . ولكن هلم يا بني ، فما أرى إلا آن الظأ والجوع قد أجهداك .

وأقبل الرجل وابنه على السلّة فأصابا مما فيها ذاهلين واجمين ، ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعاما وحسا له ذوقا ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذي يتوهج في الحفرة وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقل . حتى إذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب إلى الحفرة فيستخرج ما فيها ، فاذا غزالان من

ذهب نقي ثقيل وإذا سيوف ودروع . فيكبر ويرفع صوته بالتكبير ، ويسرع إليه أفراد قليلون كانوا قد بدءوا يقدون إلى المسجد كدأب قریش حين كانت تحف وطأة القيظ ، فإذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تصايحوا ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد ، وإذا شباب قریش وشيوخها يقبلون سراغاً مزدحمين ، يسرع بعضهم حب الاستطلاع ، ويسرع بعضهم الآخر الطمع في الغنيمة ، ويسرع بفريق منهم باعث ديني غامض فيه خوف وفيه رجاء وفيه إكبار للآلهة وتوقع للمعجزة الخارقة . حتى إذا توافوا جميعاً واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزاً وعرفوا حقيقة هذا الكنز وقوموا ذهبه الخالص وصناعته البارعة وما فيه من سيوف ودروع أداروا أمرهم بينهم : لمن يكون الكنز ؟ قال هشام بن الغيرة : إنما هو لقریش ، فقد وجد في المسجد وكل ما وجد داخل الحرم في أرض عامة فهو لقریش . وقال حرب بن أمية : إنما هو لبني عبد مناف خاصة ، فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا ، وما ينبغي لقریش أن تغلبنا على خير ساقته إلينا الآلهة وتنازع القوم وطال النزاع واختصم القوم واشتدت الخصومة وعبد المطلب صامت مطرق لا ينطق بكلمة ولا يأتي بمحركة . هنالك صاح به حرب : مالك لا تقول وأنت الذي وجد الكنز وأنت أحقنا بأن ترى رأيك فيه ! قال عبد المطلب في هدوء وأناة : ما ينبغي أن يكون الكنز لأحد حتى نستشير الآلهة ، فما حفرت ولا ظفرت إلا بأمر خفي ، وما أرى إلا أن للآلهة في ذلك إرادة وقدرا لا تبلغهما حتى نسأل الكهان . هنالك وجمت قریش وغضب بنو عبد مناف وأنكروا جميعاً في أنفسهم أن يشرك

عبد المطلب معهم الآلهة في هذا الكنز الدفين . ولكنهم لم يقولوا شيئاً وما كان لهم أن يقولوا شيئاً ! ومن الذى يستطيع أن يرد قضاء الآلهة ! . حمل الكنز إذاً إلى الكعبة وأقبل القوم إلى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح . وها هو ذا يضرب بقداحه ثم يضرب ثم يضرب بين قریش والكعبة ، فتخرج القداح للكعبة ثلاثاً ، فيصيح عبد المطلب : لقد ظهر قضاء الله فليكن ما أراد ! تفرقوا يا معشر قریش . . تفرقوا يا بنى عبد مناف فليس لأحد منكم في هذا الكنز نصيب . أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة ، وأما هذه السيوف فستعلق عليها . وأما هذه الدروع فستدّخر في خزانها . ثم التفت إلى ابنه وقال : هلم يا حارث ، اتبعنى لنمض فيما كنا فيه . وتفرقت قریش وفي صدورهما غل وحنق . ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر اتحوا ناحية وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب . ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضاً . وأصبح الناس ذات يوم وإذا بالكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح .

وراح عبد المطلب مع المساء إلى أهله محزوناً مكدوداً راضياً مع ذلك لم يفارق قلبه الأمل . فاستقبلته سمراء فآثرة لم تسع إليه ولم تبتمس له . ولكنها لم تعرض عنه ولم تتجهم له . فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت ، وألح في السؤال . قالت : وبم تريد أن أتهج ولم تريد أن ابتسم ؟ لقد علمت منذ زفنى أبى إليك أنى قد تزوجت رجلاً لا كالرجال . لقد أحبتك ولكنى أنكرتك . لقد أمّلت فيك ويئست منك . ثم عاد إلى الأمل

أول أمس ثم ها أنت ذا ترد إلى اليأس مظلاً حالكا قبيح الوجه بشع
المنظر كأنه الغول . ماذا ! ؟ ! يلم بك الطائف أربع ليال يهيب بك ويلج
عليك راعراً حيناً مصرحاً حيناً مصرراً دائماً ، حتى إذا أذعنت لأمره وانتهت
إلى ما سبق إليك من خير وادخلك في الأرض من غنى ، زهدت فيه
وانصرفت عنه وأشقت أن تسلمه إلى قريش أو إلى عبد مناف ، فيقال :
ألقى بيده ونزل عن غنيمته . فصرفت ذلك عنك وعنهم إلى هذه البنية^(١)
تحاياها بالذهب وتعزها بالسلاح ! وماذا تصنع الأحجار القائمة بذهبك
وسلاحك ! ؟ ! لله أتم يا معشر قريش ! انكم لتكبرون من هذا البناء
المنصوب مالا تكبرن نحن في البادية . ولولا حاجتنا ومنافعنا لما هبطنا إلى
بطاحم هذه حاجين ولا معتمرين . ولكنكم قوم ضعاف تكبرون مالا يكبر
ويغركم أن أفئدة الناس تهوى إليكم تحسبونهم يقبلون إليكم بالدين وينصرفون
عنكم بالطاعة ، وإنما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض ، وينصرفون عنكم
بما تحملون لهم من الآفاق . هلا طاولت قريشاً وانتظرت بهذا الكنز حتى
تروح إلى ! لقد كان فيه غنى لك ولهذا الصبي الذي تعنيه وتضنيه منذ ألم
بك ذلك الطائف . هلا تريثت أو اصطنعت الأناة ! إذاً لاحتويت الكنز
ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالا ، ولما استطاع بنو عبد شمس أن
يكاثروك بما يملأ خزائنها من الدراهم والدنانير . إذاً لا أقبلت إليك بنو عامر
يقوتها وبأسها فأعزتك ومنعتك من قريش . ولكنك أشقت وملاً قلبك

(١) البنية : الكعبة .

الفرق وعِثت بنفسك بقية من كبرياء ، فأفقرت نفسك وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بني حزب ثروة ومالا . قال عبد المطلب محزوناً : هوّنى عليك ياسمراء وأقلّنى اللوم ، فما أرى أنك تفقهين مما ترين شيئاً . لا أحب لوجهك هذا النضر أن تعلوه غبرة الحرص على المال . وما أحب لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال . وما أرضى لك وإن نسكتك أشراف بني عامر أن تغضّ من أمر قريش . إن فيكم أهل البادية لطباعاً غلاظاً ونفوساً يملؤها الطمع . أنتم لا تحسّون الدين ولا تقدرون الغيب ، ولا تؤمنون إلا بما ترون ولا تخافون إلا القوة الظاهرة . لقد كنت أحسب أن مقامك الطويل بمكة قد غير نفسك بعض الشيء ، فإذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد إلى هذه البطحاء . هوّنى عليك ولا تشغلى نفسك بما لست منه فى قليل ولا كثير . لقد أمرنى الطائف أن أحتر ووعدنى أن أجد الماء لأستقى الحجيح لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بني عامر . فليس هذا الذهب لى ولا لقريش ، وإنما مخبوء لأمر يراد . وإني لمن قوم لا يحبون الغصب ولا يستأثرون بما ليس لهم ولا يمتنعون الحقوق ، فان تكن غلظة الأعراب وجفوة البادية وجودها قد شاققتك فزمنى رحالك غداً وألمى بأهلك فهم أحق بك وأدنى إليك . قال ذلك ونهض مغضباً وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف ، تقاوم غيظاً لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ تحدّرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام .

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله ، وحتى اضطربت له مجالس قريش في فناء البيت . خفت الناس إليه وهم يقولون : ما نرى ابن هاشم هذا إلا مطروقا يلقي من الجن شططا ويريد أن نلقى منه شططا . أقبلوا إليه سراعا يزدهمون وقد آلى أشرافهم لأن وجدوه قد ظفر بكنز أو عثر على غنيمة ليغلبنه عليها وليعطينه منها نصيب رجل من قريش . وانتهوا إليه وهو يكبر ويصيح : هذا طويي اسماعيل ! هذه بئر زمزم ، هذه سقاية الحاج ، لقد صدق الوعد وتحقق الأمل .

فنظروا فإذا عبد المطلب قد وجد الماء ، وإذا هو يستقي فيشرب ويسقي ابنه ، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقي الأرض والهواء والناس . هنالك ابتسموا له ورفقوا به وقالوا : لقد بررت بقومك يا شعبة وأنبت لهم هذا الماء يستقون منه ، إذ ضنت عليهم الإنيايع ، فوصلتك رحم . لتعرفن لك قريش هذه اليد . قال ما أنتم وذاك ! هذه بئر قد حفرتها ، وكشفت طيها بأمر هبط إلى من السماء . وهذا شرب ساقه الله إلى سأسقيكم منه إن أردت . ولاكني أسقى الحجيج منه قبل أن أسقيكم ، فبذلك أمرت وأنا على ذلك قائم . قالوا : يابن هاشم إنك لتسرف على نفسك ، وتشط على قومك وتخلق على السماء . إن هذه الأرض ليست لك وإنما هي لله ثم لقريش . وإن كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش . وإنما لم نشهد أمر السماء حين تنزل إليك . ومتى تنزل أمر السماء على الناس إلا من طريق الكهان ! فأين الكاهن الذي أمرك أن تحتفر ؟ ! قال : يا قوم خلوا بيني وبين الماء . فوالله

لن تبلغوا مني شيئاً . إنكم تكثرونني بعددكم وعديدكم ، ولكن الذي أمرني باستنباط هذا الماء حرى أن يردّ عني كيدهم ويحميني من ظلمكم . انكم تستضعفونني حين ترون أنى أبو واحد ، ولكن الذى سخّرني لهذا الأمر خليف أن يمنحني من الولد من أكثركم به . وإنى أقسم لئن منحني من الولد عشرة ذكوراً أراهم بين يديّ لأضحين له بواحد . وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب ، فتارت نفوسهم وتعصبوا له وقاموا من دونه يردّون عنه عدوان قريش . وكاد الشريقع بين القوم ، ولكن عبد المطلب قال : يا قوم فيم قطع الأرحام وخفر الزمّ واراقة الدماء ! إني والله ما أوتر نفسي من دونكم بشيء . فان أيتيم أن تؤمنوا لى فلهم إلى حكم فليقض بيننا . قال الملاء من قريش : لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه ، فليكف بعضكم عن بعض ولنحتكم إلى كاهنة بنى سعد هذيم ، فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم . وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام . فأجمع القوم أن يصحبها رسلهم إلى الكاهنة في معان . فلما فصلت العير صحبها عبد المطلب في عشرين من بنى عبد مناف ، وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ، ومضى القوم ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ونفذ ما كان معهم من ماء واشتد بهم الظمّ وأحرق أكبادهم الصدى ، وغدوا ذات يوم في فلاة مبسوطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدى إلى أمد ، ليس فيها عين ولا بئر ولا شجرة ولا عشب ، وإنما هى أرض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتبّهة فتلهبها تحت الأقدام ، وقد يئس القوم من كل رَوْح وقنطوا من كل

وجهة ، فاجتمعوا يتشاورون : قال قائل منهم : يا قوم انما هو الموت فأنتم بين اثنتين : إما أن تموتوا ضيعة وتصبح أجسامكم نهبا لسباع الأرض والجو ، لا توارىكم يد في التراب ولا تأوى نفوسكم إلى جدث تطمئن فيه ، وإما أن يقوم بعضكم على بعض ويوارى بعضكم بعضاً ، فيكون لكل منكم حفرة وتعرف نفوسكم إذا هامت في الفضاء الواسع وألّت بأهلها في بطاح مكة وظواهرها كيف تهتدى إلى أجسادها ، فلم بها وتسكن إليها . والرأى أن يحتفر كل منكم حفرة ، وأن تقيموا فأياكم ذهب الصدى بنفسه واره أصحابه وبكوا عليه ، فلا يذهب منكم ضيعة الا رجل واحد تمتد به الحياة إلى أقصى أجل . قال ذلك قائلهم ونهض فأخذ يحفر حفرة . وتثاقل القوم بعض الشيء يفكرون في أولادهم وآخرتهم ويذكرون مكة ومن تركوا فيها من أهل وولد ومال ، ويذكرون الشام وينظرون إلى ما كانوا يحملون إليها من تجارة ، ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح ، وتقدّم رسل قريش إلى الكاهنة يتلأومون في البئر وفي خصوصتهم لصاحب الحق . ثم ينهضون والموت يثقل نفوسهم ، فيعمد كل منهم إلى سنان يخط به حفرة في الأرض .

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يومى ، ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب العريض : « يا معشر قريش ما أعجزكم ! ها أنتم أولاء تلقون بأيديكم وتنتظرون الموت وتقطعون ما بينكم وبين أهلكم وولدكم من أسباب الحياة ، وإن فيكم لبقية من قوة ، وإن في إبلكم لقدرة

على الحركة وفضلا من النشاط ! لا والله ما أنا بمسلم نفسى للموت حتى يكرهنى عليها . هلم فاضربوا فى هذه الأرض فلعن الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجا . » ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث ، وإذا الآمال تحيا ، وإذا النشاط يتجدد ، وإذا القوم ينهضون الى رواحلهم وإذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسعوا هم اليه . وينهض عبد المطلب الى راحلته ، حتى اذا جلس عليها وزجرها نهضت به وهمت لتندفع . ولكن ماذا ! ماذا يسمع القوم ! ما ذا يرون ! هذا عبد المطلب يصيح بأعلى صوته مكبرا وهم يلتفتون ، فاذا عين غزيرة قد انفجرت تحت خف الراحلة ، واذا هى تفور ، واذا الماء ينبسط من حولها فينقع غلة الأرض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظماء !

هلم يامعشر قريش الى الماء الرواء ! قد فجره الله لكم من الصخر الصلد . هلم فاشربوا واسقوا إبلكم واملاؤا مزادكم . هلم فانعموا بهذا الماء الصافى النقى البارد فى هذه الفلاة القائمة المحرقة . والقوم يصبجون بالرضا والغبطة . وإن للإبل من حولهم لأطيطا ملؤه الرضا والغبطة أيضاً . ومن ذا الذى زعم أن نفوس الناس وحدها هى التى تجد اللذة والألم وتشعر بالسرور والحزن ! . روى الناس ورويت الإبل ورويت الأرض . وقالت رسل قريش لعبد المطلب : عد بنا ياشيبة إلى مكة فقد قضى علينا . وإن الذى أسقاك فى هذه الصحراء وأنقذنا بك من الهلاك هو الذى سقاك فى مكة وساق اليك ما تروى به الحبيج .

وأقبل البشير على سمراء ينبئها بأن زوجها قد عاد اليها سالماً موفوراً
مظفراً . فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب الحزون : « جذا شيبة مسافراً
وجذا شيبة مقياً ! ولكن شيبة لن يخلص لى منذ اليوم . انه ليريد كثرة
الولد . وأى نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه ! ثم أشرق شمس الغد على
عبد المطلب وهو يسعى الى عمر بن عائذ الخزومى ليخطب اليه فاطمة وهى
أم جماعة من ولده بينهم عبد الله .



الفراء

أصبحت سمراء محزونة كاسفة البال تبدو على وجهها المتجدد وجبينها المقطب كآبة مظلمة ، لم تحاول في هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها كما تعودت أن تفعل منذ أعوام وأعوام . فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احترقت زمزم ، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد ، ورغبته في كثرة العدد ، ومنذ خطب فاطمة الخزومية فأحبها وكلف بها ، وانصرف إليها عن كل شيء وعن كل إنسان ، ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات واشتد لذلك حب عبد المطلب لها وكلفه بها وانصرافه إليها ، وتجافيه عن زوجته الأولى تلك التي أضاعت له سبيل الشباب ، وأعانت على احتمال أثقال الحياة الأولى .

نعم ! عرفت سمراء ألم الحزن في هذه الأعوام الطوال من حياتها ، ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال ، ذكية القلب ، تعرف كيف تخفى عن زوجها ما يكره ، وكيف تلقاه بما يجب .

وكانت توفّق بفضل هذه الباقة وهذا الذكاء ، إلى أن تستميل إليها زوجها . وربما اضطرته إلى أن ينقطع إليها وقتاً ما وينسى زوجته الأخرى إلى حين . ولكن يوماً أقبل يحمل إلى سمراء شراً ليس فوقه شراً ولمّا ليس بعده ألم ، أصبح هذا اليوم مظلاماً ، فما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها .

ذلك انه مضى بموت ابنها الوحيد ، فأذاقها مرارة الشكل واليتم والترمل جميعاً . فقد كان الحارث لها ابناً تجدد عنده قرة العين ، وأباً تحس منه العطف وحنو الآباء . وكان هو يحس ألمها ويعرف أسرارها ، ويجد في الطب لهذا الألم ، فكان يبالي في رعاية أمه وحمايتها ، وكان شديد الحرص على أن يلقاها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وعلى أن يطيل المكث معها والتحدث إليها . يشركها في جد أمره ولعبه ، يستشيرها ويظهر قبول مشورتها والاستماع لنصيحها . فكان يقوم منها في أكثر الأحيان مقام أبيه ، وكان يعزيها بحبه وبره عما كانت تجد من الوحشة حين يصد عنها زوجها فيطيل الصدود . فلما مات الحارث مات معه أمل سمراء ، ولم تلق الحياة إلا بوجهه محزون كئيب يصور قلباً مكلوماً مظالم . وقد جرعت سمراء لهذا الخطب واشتد جزعها وطال . ولكن أى شيء يبقى على الأيام ! ولقد ذهبت الأيام الطوال بحدة هذا الجزع وشدة ، كما ذهبت بنصرة شباب سمراء ، وكما ذهبت بحياة ابنها الحارث ، وكما ذهبت بحب زوجها عبد المطلب ، وأصبحت وقد تقدمت بها السن وامتحنتها حوادث الدهر : امرأة مذعنة لحكم القضاء ، لا تنكر شيئاً ولا يسرها شيء ، محزونة ولكن في دعة ! ملتاعة ولكن في هدوء !

وقد أحست إنكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها وما يجدون من انقباضها عنهم . فجدت ما استطاعت في إخفاء ماتجد وكتمان ما تحس ، واحتفظت لنفسها بهذا الكنز الحزين ، كنز الذكري وما تثيره

من العواطف وما تهيجه من اليأس . وتركت للناس من نفسها شخصاً عادياً يتسم حين يتسمون ، ويرضى حين يرضون ، ويشاركهم في أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور . على أنها كانت تجد شيئاً من الرضا وراحة النفس حين تجد من زوجها عطفاً عليها وأنساً إليها . وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها ، كثير الزيارة لها ، يصفىها مودة خالصة قوية ، ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذى يحيى قلوب النساء .

أصبحت سمراء فى هذا اليوم محزونة ظاهرة الحزن ، كئيبة بادية الكآبة . أقبل عليها إمامها الثلاث يحينها تحية الصباح ، فردت عليهن تحيتهن رداً فاتراً ، ثم جلست وجلسن ، وأخذت مغزلهما وأخذن مغازلهن ، وعملت أيديهن فى الغزل وسكنت ألسنتهن عن الكلام . وكانت سمراء تدع مغزلهما من حين إلى حين وتظل ساكنة واجمة ، وربما انحدرت من إحدى عينيها دمعة حارة فأسرعت إليها تزيلها بيدها دون أن تقول شيئاً . والإماء صامتات ينظرن فى حزن عميق إلى مولاتهن الحزينة ، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأ بالكلام . فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن ، وثقل عليهن ما كن يجدن من ألم ، وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع ورغبة فى الكلام وميل إلى تعزية مولاتهن ، اجتترأت « ناصعة » وكانت أشجعهن قلباً وأطولهن لساناً ، لأنها كانت تعرف مكاتها عند سمراء ، فقالت : لقد أصبحت ياسيدتى على حال مارأيناك عليها منذ زمن بعيد ، فقد كنا نراك محزونة كئيبة ، ولكنك كنت تجاهدين الحزن وتدافعين الكآبة وتكلفين

الرضا ، وكنا نجد من ذلك ما يشجعنا على تسليتك وتلييتك بالحديث حيناً
وبالغناء حيناً آخر ؛ تقص عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها ،
وتغنيك كل واحدة منا بما تعلمت من الغناء في رطاتها الأعجمية ، وكذلك
كنت تسمعين أقاصيص سورية وأخرى حبشية وأخرى يونانية ، وكنت
تسمعين أغاني في لغات أجنبية قليلا ما تعجبك ولكنها كانت ترسم على
ثغرك الابتسام في أكثر الأحيان . أما اليوم فلم نرمك إلا حزناً قائماً ، ولم
نسمع صوتك العذب ، ولم يرعنا إلا هذه الدموع التي تسفحها في صمت
اليم . تكلمى يامولاتى ! يئنى ! ماذا تجدين ؟ ماذا أحزنك اليوم ؟ تكلمى
وأحسنى ظنك بنا ، فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن
نبعث في قلبك السرور . نحن إماء ولكننا نساء نجد الحزن كما تجدينه ،
ونحس اللوعة كما تحسنيها . ولعل حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك . ولعل
حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا في السرور . ولعلنا إن شاركنك في الحزن
والألم جارينا طبائعنا ، وأرسلنا نفوسنا على سجاياها . فليس في حياتنا وإن
كنت لنا مكرمة ما يسر أو يرضى . وأى شيء يسر أو يرضى في حياة الأمة
الغريبة التي لا تملك نفسها ، ولا تحس إلا ذل الرق ، ولا تستطيع أن ترضى
حقاً أو أن تسخط حقاً إلا إذا خلت إلى نفسها ! وأتى لها أن تخلو إلى نفسها !
تكلمى يا سيدتى ! ماذا يسوءك وماذا يغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين ؟
قالت ناصعة ذلك وانتظرت أن تحييها سمراء ولكنها لم تظفر بجواب ، وإنما
رأت دموعاً تنحدر ثم تهمر ثم تستحيل إلى زفرات حارة ونحيب غير منقطع .

هنالك محا الحزن ما بين السيدة وإمامها من فروق ، فأسرعن إليها يهدئتها ويرفقن بها : هذه تقبها ، وهذه تمسح دمعها ، وهذه تُمرِّدُ يدها على رأسها ، وهن جميعاً يبكين لها ويبكين لأنفسهن . وقد هدأت سمراء بعض الشيء ، وسكنت نفسها الثائرة إلى هؤلاء الإماء الرفيقات ، فابتسمت لهن في حزن ، وشكرت لهن ما أظهرن لها من مودة وعطف ، وطلبت إليهن العودة إلى ما كن فيه من عمل ، وأخذت هي مغزلهما وجعلت تديره في يدها . ولكن « ناصعة » لم تلبث أن عادت إلى الكلام فقالت وهي تتكلف الإبتسام وتتصنع الضحك : ليس يغني عنك الصمت يا مولاتي ، فإننا نعلم ما تُسرِّين كما نعلم ما تعلنين ، ولولا خوفنا منك وإكبارنا إياك لقصصنا عليك القصة التي تحزنك وتجري دموعك الحارة على خدك النقي . ولكن أتى لنا أن نبليغ منك هذه المكانة وإنما أنت سيدة ونحن إماء ! قالت سمراء : كفى عن هذا الحديث يا ناصعة ، فقد أنسيت اليوم أن بيني وبينكن فرق ما بين السيدة وإمامها ، ولست أرى منكن الآن إلا نساء تعصيات مثلي . إنما نحن أخوات في الشقاء والبؤس . وما ينبغي أتى حرة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم محتملة للذل ، مذعنة لصروف القضاء ، لأملكك لنفسى نفعاً ولا ضرراً ولا أستطيع أن أبرح هذه الدار ! وإلى أين أبرحها ! لقد ذهبت غارة بني أسد بأبى وأخى ، وأصبحت أُمى وأخواتى إماء مثلكن ، لا أعرف من أمرهن شيئاً ، ولم ينهض فتيان بني عامر وكأثمهم للثأر ! ليت شعري ماذا يصنع أبو براء بأسنته ! ماله لا يلاعها ! لقد ذهب الموت بابني وأصبحت أسيرة في يد عبد المطلب ، أسيرة

لا كالأسرى ؛ يحفونى ولا أستطيع له بغضاً ولا قلى كما يفعل الأسرى ،
وإنما أحبه ولا أجد عن داره منصرفاً . هاهو ذا قد عاد من رحلته إلى اليمن
منذ ثلاث ، فلما بلغ مكة أسرع إلى هالة بنت وهيب فقضى عندها أولى
لياليه وأول أيامه لأنها أحدث زوجاته به عهداً . ثم أصبح فانتقل إلى نتميلة
فأقام عندها يوماً وليلة . ثم أصبح فانتقل إلى فاطمة فأقام عندها يوماً وليلة .
وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين ، فيلم بهذه الدار الإمامة قصيرة ثم يسرع إلى
هالة ! فما أشد شوقه إليها ! وقد حدثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون
الرجال سمة وأبرع ما يكونون جمالا . وحدثت أن هالة أنكرته حين رآته
فقد ودعنا أبيض الرأس وعاد فاحم الشعر ، كأنه لم يتجاوز الثلاثين ^(١) .
وقد أنكرته من الغد قريش كلها لما رأت من سواد لثته . ولكنه أزال
عجب قريش حين أظهر لها هذا الخضاب الذى حمله من اليمن ، والذى يرد
الشيب شباباً ، والذى أسرع قريش إليه فاشتريت منه واختضب به شبيها
فإذا أهل مكة كلهم شباب . كل ذلك ولم أر عبد المطلب ، ولم أحس منه
ذكر كرا لى وحنيناً إلى . وماذا يصنع بى ؟ ليس لى شباب هالة ، ولا جمال
نتميلة ، ولا ولد فاطمة ! وإنما أنا عجوز فانية ، يتيمة وحيدة ، ليس لها أب
ولا أم ولا ولد . أنا هذا الحمل الثقيل الذى يضيق به صاحبه ، ولكنه يأبى
أن يلقيه ويتخفف منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور .
قالت ذلك وأغرقت فى بكاء طويل شاركتها فيه إماؤها الثلاث .

(١) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٢ ج ١ ق ١

ولكن « ناصعة » لم تلبث أن قالت : أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك ياسيدتى ؟ إنك إذاً لتجهلين كل شيء ولا تعلمين إلا أقل أمره خطراً . وإن عندى من أمر سيدنا مالو قصصته عليك لأرضاك وتخفف لوعة الحزن هذه التى تحرق فؤادك الكئيب . لن ترى زوجك اليوم يا مولاتى فهو عنك فى شغل ، لقد كان راضياً مسروراً حين كان يرى نساءه ينكرن سواد لمتة ويعجبن بشبابه الجديد ، وحين كانت قریش تستبق إليه تشتري منه هذا الخضاب بما أحب من مال ، ولكنه محزون منذ أمس ، مغرق فى حزن لا قرارة له ، فهو خليق بالرثاء . إنك تحبينه ياسيدتى وستنسين إعراضه عنك وسترئين له ، وإني أخشى أن تحفىّ إليه حين تعرفين نبأه . قالت سمراء فى شيء من الجزع بدأ هادئاً ولكنه لم يلبث أن اشتد قليلاً قليلاً حتى باغ أقصاه : ماذا تقولين وبم تتحدثين ؟ هو محزون ! هو خليق بالرثاء لماذا ؟ أبنى متى علمت بذلك ؟ وكيف أخفيتنه على ؟ ما الذى يحزنه ؟ ما الذى يسوءه ؟ ما الذى يجعله أهلاً للرثاء ؟ ما الذى يضطرنى إلى أن أخفّ إليه لأعزّيه وأواسيه ؟ قولى أسرعى ، لا تخفى على شيئاً . قالت ناصعة : مهلاً ياسيدتى ارفقى بنفسك ولا تندهبى بها فى الخيال كل مذهب ! لا بأس عليه فى نفسه ولا فى ماله ، ولكنه يمتحن منذ أمس فى بنيه ، هو نى عليك ! إن فى هذه الحنة لعزاء لك عن فقد حارثك العزيز . أتدكرين يوم احتفر زمزم فنذر لئن أوتى من الولد عشرة ذكوراً قالت سمراء : يراهم ليضحين بواحد ! يابؤس هذا اليوم ! فقد عرفت هذا النذر فكان مصدر شقائى كله ،

عرفت أنه سيستكثر من النساء ورأيت مديّة التضحية ممدودة إلى عنق قد تكون عنق ابني العزيز . منذ ذلك اليوم كرهت النساء جميعاً لأنّي رأيت في كل واحدة منهن ضرة لي . ومنذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقبياً بهذا البيت ما أقام فيه ابني ، مفارقاً لهذا البيت ما فارقه ابني . ومنذ ذلك اليوم لم أر ابني في يقظة ولا في نوم إلا رأيت الموت له ظلاً . أمّتي حديثك ياناصعة .

قالت الفتاة : لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا وذكر أن أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء يراهم بمولد طفله حمزة ، فأقسم ليوفين نذره ، وليضحين بأحد أبنائه وليجعلنهم تسعة منذ اليوم حتى تتمهم له هالة أو نتيّة أو غيرها عشرة أو تزيد بهم على العشرة . ولم يكدهم يعتقد هذه اليمين حتى جزعت فاطمة وشاركتها بناتها في الجزع . أشققت على الزبير وأبي طالب وعبد الله وغيرهم من بنيها . وبلغ الخبر نتيّة فخافت على العباس . وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة ، واثارت لكل امرأة قبيلتها ، وألح الناس على الشيخ : تأبى كل قبيلة أن تكون التضحية منها . ومضى الشيخ في يمينه فجمع إليه بنيّه وأنبأهم بنذره فكلهم أقره وكلهم أطاعه وكلهم ألح عليه ليوفين بالنذر ولتقدّم الضحية . وليس لقريش منذ أمس حديث إلا هذا النبأ هم يتناقلونه ويكبرونه وينكرونه وقليل منهم من يقر الشيخ على هذا العزم الفطيع .

ثم قالت الفتاة : ثم أقبل الشيخ ببنيه إلى الكعبة مع الصبح ، فأجال فيهم قداحه ، فخرج القدح على أحب بنيّه إليه ، وآثرهم عنده . قالت سمراء

وهي مضطربة وقد سالت من عينيها دمعتان محرقتان : خرج القدح على عبد الله ؟ ! قالت الفتاة : نعم . فأخذ الشيخ بيد ابنه يقوده إلى المذبح وفي يده المدينة ، ولكن بناته جميعاً وأمهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بنى مخزوم ويستصرخن قريشاً كلها ويمنعن الفتى بحياتهن . وأقبلت إحداهن إلى الشيخ ضارعة نائرة معاً فقالت : إذا كان قلبك قد استحال إلى صخر فلا ترق لابنك الشاب ولا لأمه الشيخة ولا لأخواته البائسات ، وإذا كانت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت حتى جعلت للآباء على أبنائهم حق الحياة والموت كأثمهم الرقيق أو الحيوان ، فدعنا نحتكم في هذا الفتى إلى رب هذا البيت فهو أوسع منك رحمة وأجدر منك أن يرضى بهذا الشاب على الضياع ، وأن يربأ بهذا الدم الزكى أن يراق . لنحتكم إلى رب هذا البيت في أمر هذا الفتى ، لنقرع بينه وبين هذه الإبل الكثيرة التي تسيمها في الحرم ، ولنبلغن من ذلك ما يرضى رب هذا البيت .

وكانت قلوب قريش قد تفتطرت حزناً وتصدعت أسى لقول هذه الفتاة وهي تبكى ، وقد التزمت أباها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهي تصيح : لأموتن قبل أن تموت . فإزالت قريش بالشيخ تلاينه حيناً وتخاصنه حيناً حتى اضطرت أن يقبل تحكيم الآلهة .

قالت سمراء وقد بلغ بها الملح أقصاه : ثم ماذا ؟ قالت الفتاة : ثم لا أدري ! تركتهم يتأهبون لإجالة القداح بين الفتى والإبل ، وأقبلت أقص عليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق .

قالت سمراء : يا بؤس لهذه الحياة ! لا يسعد فيها الناس بخير مهما يكثر
كل السعادة ، ولا يشقى فيها الناس بشراً مهما يعظم كل الشقاء . أسعيدة
أنا بموت الحارث أم شقية ؟ لو قد عاش لذقت الآن ما تذوقه فاطمة من
هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك ، ولكنى كنت أؤثر مع ذلك أن يعيش
فقد كان يمكن أن تخطئه القداح ، وقد كان يمكن إن لم تخطئه في المرة الأولى
أن تخرج على الإبل من دونه ، وقد كنت أستمع به أعواماً . ولكن هلم
لا مقام لنا الآن ، لنسرع إلى حيث هم لنشار كهـم فيما يجدون . واحسرتاه !
إني لصديقة الحزن ! إني لصديقة الخوف ! إني لشديدة الشفاق ! إني
لشديدة الرجاء ! . ولكن فاطمة ستظن بى سوءاً ، وستقدر أنى أقبلت غير
بريئة النفس من الشامة . قالت ذلك ونهضت يدفعها حزنها الخالص ويردّها
خوفها من سوء الظن . ولكنها أسرع مع ذلك وأسرع معها إماموها ولم
تكـد تتقدم فى الطريق نحو المسجد حتى سمعت أصواتاً ورأت اضطراباً ،
ثم تبينت فى الأصوات فرحاً ورأت على الوجوه بشراً ، وعرفت أن القدح
قد خرج بعد لآئى على مائة من الإبل ، وأن عبد المطلب يؤذن فى الناس
أنه سينحر هذه الإبل بين الصفا والمروة ، وأنها حرام عليه وعلى بنى هاشم ،
مباحة لغيرهم من الناس والحيوان والطيـر .

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها وهن سائرات يحطن

بالقئ ويحلن بينه وبين غيره من الناس ، حتى إذا بلغن البيت ألفين فيه
امراتين تبكيان ، إحداهما هالة بنت وهيب أم حمزة زوج عبد المطلب ،
والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنه بنت وهب . هنالك أقبلت سمراء هادئة
باسمة إلى الفتاة فكفكت من دموعها ، وضمتها إليها وقبّلت جبينها الطّلق .
ثم التفتت إلى عبد الله وهى تقول : هلم يافئى فقبّل أهلك ، فمهما تغلّ لها فى
المهر فلن تبلغ هذه الدموع التى ذرفتها حزناً عليك . ثم نظرت إلى فاطمة
وهى تقول : ألا ترين أنها أحق فتيات قريش أن تكون له زوجة !



الاعتراف

أقبل أبناء عبد المطلب فهَيَّئُوا لآبِيهِمْ مجلسه في المسجد غير بعيد من بئر
التي كُشِفَتْ له . وأقبل الشيخ بعد قليل مشرق الوجه باسم الثغر ، فأسرع
إليه أبناؤه يلقونه بالتحية ويقرءون عليه السلام . وأقبل عليهم يحيمهم ويدعو
لهم . حتى إذا أخذ مكانه أشار إليهم فجلسوا من حوله ، وأخذ يحيل نظره فيهم
كما يلتمس بينهم غائباً . ثم سأل : أين عبد الله ؟ قال قائل منهم وعلى ثغره
ابتسامة فيها حب وفيها دابة وفيها غيرة لا تكاد تبين : لم يأت بعد ، وما علمناه
منذ حين إلا نووم الضحى . قال الشيخ وابتسم كالغضب : حَسْبُكُمْ ! فكلكم
قد أدركه الضحى ولما يرتفع رأسه عن الوساد . ثم أخذوا في حديث القافلة
التي كانت تهيأ للرحلة إلى الشام ، وأخذ أبناء الشيخ يتحدثون إلى أبيهم
بما أعدد أغنياء قریش من عروض التجارة لتحمل إلى بُصْرَى وما بينها من
بلاد الروم . وهم في هذا الحديث وإذا القى يقبل وسيماً قسيماً مستقيماً القدم معتدل
القامة قريب الخطأ شاخصاً بصره إلى السماء ، حتى إذا دنا من أبيه أقبل
عليه فحياه ، وتلقاه الشيخ رفيقاً به عطوفاً عليه . ثم أذن له بالجلوس وأدنى
مكانه منه ، وأعرض عنه حيناً كأنه يسمع لحديث أبناؤه عن القافلة كيف
تُهَيَّأُ ومن تكون ومتى تفصل . ثم التفت إلى ابنه الشاب وقال له وهو
يبتسم : ما أرى يابني إلا أنك قد أحبيت النعمة وآثرت لين العيش . وكلنا
قد أحب النعمة كما تحبها ، وكلنا قد آثر اللين كما تؤثره ، وكلنا قد لزم أهله

حتى كاد ينسى كل شيء . ولكن الأيام تنبه الغافل ، وتوقظ النائم وتذكر الناس . وإنى لأحب أن أنبهك قبل أن تنبهك الأيام ، وأن أوقظك قبل أن توقظك الأحداث ، وأن أذود عنك النسيان قبل أن تذوده عنك الخطوب . وخيرٌ لك يا بني أن تترك النعمة الآن لتعود إليها بعد حين من أن تظل فيها مُغرقاً وعليها حريصاً ولها لازماً ، حتى تضيق بك وتنفر منك وتنصرف عنك إلى غير رجعة . وفي الرحلة يا بني مع بني عمك الأدنين رياضةٌ لك يسيرة على احتمال الصعاب واقتحام العقاب ، وتسليّةٌ لك هيينة عن هذه اللذة المتصلة والنعيم المقيم . وما أشك في أنك ستترك أهلك كارهاً لذلك ضيقاً به ، ولكنك ستستعذب الفراق وتستلذ النوى وتجذ من ذكر أهلك على نزوح الدار وبعد المزار مثل ما تجذ من حب أهلك والدار قريبة والمزار يسير . فهيمىء نفسك للرحيل مع العير واخِرِص على ألا تعود أقل ثراء من أمثالك الذين سيرحلون إلى الشام من شباب قریش . وقد أجمعتُ وأجمع إخوتك أن نكل إليك ما عندنا من هذه العروض التي تجمعت لنا منذ أشهر لتحملها لنا إلى بلاد الروم ، فتتاجر لنا فيها وتقا سمننا ما نُعل علينا من ربح . والرأى أن تسعى في أصهارك بنى زُهرة بمثل ذلك فتحمل عنهم عروضهم وتقضى لهم حاجاتهم . وما أظن أنك صفر اليد ، فقد تستطيع أن تتخذ لك حظاً من تجارة تقصُرُها على نفسك ، حتى إذا رجعت إلينا كنت موفور الحظ من المال بما يجتمع لك من ربح هذه التجارة كلها . وكلنا يا بني قد رحل إلى الشام حيناً وإلى الين حيناً وإلى العراق حيناً آخر . ومنا من أمعن في الرحلة

حتى بلغ مصر . ومنا من أغد^(١) السير حتى عبر البحر إلى بلاد الحبشة .
ومنا من أبعد السفر حتى انتهى إلى أعماق فارس . ولكنى أرى لك أن
تمن في غير إسراف وأن تبعد دون أن تنقطع عن جماعة من قومك . والأيام
خليقة أن تغريك بالأسفار البعيدة والرحلة المتصلة . فقم يا بنى فأصلح من
شأنك ، وهبى أهلك لهذا الفراق ، فما أظن أن آمنة سترضاه أو تستريح
إليه . قال ذلك فى لهجة ملؤها الحنان المنع والجد الذى لا يحتمل الجدال
ولا يبيح رجوع الجواب . وكان الفتى يسمع له راضياً ، تظهر على وجهه آثار
الطاعة والثقة . حتى إذا فرغ من حديثه أطرق الفتى غير طويل ، ثم رفع
رأسه وهم أن يتكلم فلم يجد مايقول ، فنفض مسرعاً حتى خرج من المسجد
ومضى أمامه لا يلوى على شىء . وكانت شمس الضحى قد ارتفعت حتى
قاربت أن تستوى فى كبد السماء ، وكانت أشعتها الحارة المحرقة قد أخذت
تدسج على الأرض والناس ، حتى قهرتها وقهرتهم أو كادت . والفتى ماضى فى
طريقه كأنه السهم لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يكاد ينظر إلى أبعد من
مواقع قدميه . وإنه لفي ذلك وإذا صوت عذب يأتيه من قريب بهذا البيت :
يا مسرعاً والناس من حوله يسعون لم يأن لغادر رواح
فيهم أن يقف ، ولا يكاد يفعل حتى يأخذه صوت آخر ليس أقل عذوبة ولا
حسن وقع فى النفس من ذلك الصوت الأول :

يا مطرقاً والأرض من حوله يزيناها حسن الوجوه الصباح
هنالك يقف الفتى ويلتفت صوب الصوت ، ولكنه لا يكاد يفعل

(١) أغد السير وفى السير : أسرع

حتى يمسسه صوت آخر فيه نعمة التحرير ، وعذوبة الماء النмир :

عَرَجَ عَلَيْنَا فَأَقَمَ سَاعَةً فَعِنْدَنَا إِنْ شَتَّ رَوْحُ وَرَاحٍ
هناك وقف الفتى والتفت وهو يقول : مارأيت كالיום دعاء ولا إغراء ،
وقد اتصل طَرَفُهُ بِوَجْهِ ثَلَاثَةِ حَسَانٍ تَشْرِقُ بِهَا كُؤَى ثَلَاثٍ فِي دَارِ فَاطِمَةَ
بنت مُرَّ الخُثْعِمِيَّةِ . قال الفتى : ما خطبك ؟ قالت إحدى الفتيات : ما خطبك
أنت ؟ فيم إِرْقَالُكَ عَلَى هَذَا النَحْوِ وَلَمَّا يَنْ شَبَابٍ قَرِيشٍ أَنْ يَرْوَحُوا إِلَى أَهْلِهِمْ ؟
وفيم تركت أَبَالُكَ إِخْوَانَكَ وَأَتَرَابُكَ فِي الْمَسْجِدِ ؟! هَلَّا بَقِيتِ كَمَا بَقُوا وَانْتَظَرْتَ
كَمَا يَنْتَظِرُونَ !. قال الفتى في صوت فيه دعاة الطامع وَيَأْسِ الْمَضْطَرِ إِلَى
الْإِسْرَاعِ : مَا أَنْتِ وَذَلِكَ إِنْ أَدَعَهُمْ فَلَا مَرِيَّةَ ! قالت فتاة أخرى : إِنْ تَدَعَهُمْ
فَلْتَخُلُ الْيَنَاءُ فَتُحَدِّثْنَا وَتَسْمَعِ مِنَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ . قالت ثالثة : هَلَمْ يَأْتِي
أَقْبَلُ ، فَمَا هَذِهِ سَاعَةٌ حَدِيثٍ يُلْقَى مِنَ الْكُؤَى . إِنْ الشَّمْسُ لِحَرَقَةً ، وَإِنْ الْقَيْظُ
لَشَدِيدٌ ، وَإِنِّي لِأَوْثَرُ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الْإِرْقَالِ أَنْفَا عَلَى مَا أَنْتِ فِيهِ مِنَ
الْوُقُوفِ الْآنَ . قالت احداهن وكأَنَّهَا تَتَغَنَّى :

عَرَجَ عَلَيْنَا فَأَقَمَ سَاعَةً فَعِنْدَنَا إِنْ شَتَّ رَوْحُ وَرَاحٍ
وَهَمَّ الْفَتَى أَنْ يَأْتِي ، وَلَكِنَّهُنَّ أَحْلَحْنَ عَلَيْهِ وَمُضِينَ يَدْعُونَهُ وَيَغْرِينَهُ حَتَّى
اسْتَجَابَ لَهُنَّ . وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ دَخَلَ الدَّارَ وَأَغْلَقَ مِنْ دُونِهِ بَابَهَا وَأَقْبَلَ
الْفَتَيَاتِ عَلَيْهِ مَبْتَهَجَاتٍ لَهُ رَفِيقَاتِ بِهِ : هَذِهِ تَمْسَحُ رَأْسَهُ ، وَهَذِهِ تَمْسُ وَجْهَهُ ،
وَهَذِهِ تَأْخُذُ بِطَرَفِ رِدَائِهِ ، وَهُوَ يَحَاوِلُ أَنْ يَتَّقِيَهُنَّ وَأَنْ يَمْتَنِعَ عَلَيْهِنَّ ، فَلَا يَجِدُ
إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا سَبِيلًا . وَكَانَتْ فَاطِمَةُ الْخُثْعِمِيَّةُ أَطْوَلَ هَوْلَاءِ الْفَتَيَاتِ قَامَةً

وأوسمهن وجهاً وأعذهن حديثاً . وكانت على جمالها الرائع وحسنها البارع ذكية القلب نافذة البصيرة ضخمة الثروة ، تعيش في مكة مترفة ناعمة ، من حولها عدد غير قليل من الموالى والأحلاف والرقيق على اختلاف أجناسه وتباين حظوظه من المهارة في الفنون المختلفة التي كان يحسنها الرقيق بمكة في تلك الأيام . وكانت فاطمة الخثعمية ^(١) متبديّة في مكة بعض الشيء ، لا تكره أن تظهر للرجال وتأخذ معهم في ألوان الحديث . وكان شباب قريش يحبون منها ذلك ويكلمفون به ، ويختلفون إليها إذا كان المساء ، فيقولون لها ويسمعون منها حتى يتقدم الليل وربما أديرت عليهم في الشتاء أقذاح من خمر بيسان ، وفي الصيف أقذاح من زبيب الطائف . ولم يكن عبد الله من هؤلاء الفتيان الذين يألّفونها ويختلفون إلى مجلسها . وأين هو من ذلك وإنه لمن قوم حظهم من اللهو ونصيبتهم من الاستمتاع بالحياة الفارغة الناعمة ضئيل ! . وكان عبد الله حديث مكة في هذه الأيام منذ هم أبوه أن يتقرّب به إلى الآلهة وفاءً بنذره القديم ، فأنقذه الفداء من هذا الموت المنكر . كان حديث مكة وحديث نساءها خاصة ، يذكرن شبابه الغضّ الذي كاد ينويه الموت ، ويذكرن جماله الفاتن الذي كاد يحتويه القبر ، ويذكرن هذا الخفر الجادّ الصارم الذي لم يكن يُعرّف في فتيان قريش ، ويذكرن هذه الفتاة السعيدة التي قدّر لها أن تكون له زوجة . وكانت فاطمة الخثعمية أكثرهن حديثاً عنه وأعظمهن إعجاباً به ، وأشدّهن شوقاً إلى لقائه . رأته يوم

(١) البرزة من النساء : التي تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون عنها ، أو الموثوق برأيها وعفافها . والبرزة أيضاً : بارزة المحاسن .

الفداء جلدًا صبورًا مبتسمًا للموت ، لا يظهر على وجهه أثر من آثار الجزع حين كان أبوه يقرع من دونه بالأيبل . فكانت القداح تأبى أن تخرج إلا عليه . ورائته بعد أن تم الفداء ورُفِع عنه نذير الموت فعاد بين أمه وأخواته مبتسمًا للحياة كما كان يبتسم للموت في هدوء واطمئنان ، لا يزدنيه فرح ولا يستخفه طرب ، ولا يخرجُه عن طورِه أمل في الحياة السعيدة والنعيم المقيم . من ذلك اليوم وقع الفتى من نفس فاطمة موقع قطرة الندى من الزهرة الغضة عند إشراق الصباح ، فأحبته وتمنته ، وكلفت به وحرصت عليه . وقضت أياما لا تتحدث إلا عنه ، وليالى لا تفكر إلا فيه . وقد تحدّث إليها الناس من مساء ذلك اليوم بأن آمنة بنت وهب قد خطبت له وسُرِفَ إليه عما قريب . فرأى الناس على وجهها جزعًا باديًا وحزنًا عميقًا . وكانت كثيرًا ما تتحدث إلى أترابها بما تجد من حب وما تحتمل من ألم . ولست أنا الذى شبه موقع الفتى من نفسها موقع قطرة الندى من الزهرة ، إنما هى صاحبة هذا التشبيه . فقد كانت تقول لصاحبتها عاتكة بنت سهْم : أتعرفين كيف تنعم الزهرة حين يمسه الندى إذا أسفر الصباح ! فكذلك نعيمت حين مسنى حب هذا الفتى يوم الفداء . وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تشفق الزهرة إلى قطرة الندى إذا ارتفع الضحى واشتد عليها حر الشمس كلما تقدم النهار ! فكذلك اشتاق أنا إلى هذا الفتى كلما بعد العهدينى وبينه . وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تهيم الزهرة بقطرة الندى إذا أظلم المساء وأقبل الليل وأحست برد السحر وعرفت أن سقوط الندى قريب ! فكذلك أهيم أنا بهذا الفتى

إذا أشرق الصبح وقرب غدو قريش إلى مجالسها في المسجد ، أو إذا اعتدل
النهار وأن لقريش أن يروحوا إلى أهلهم . وكانت عاتكة بنت سهم تترى
لها وتشفق عليها . وربما بلغ منها الرثاء والإشفاق أن تسخر منها بعض الشيء ،
فكانت تقول : ويحك يا فاطمة ! إنك لمن قوم بدأة جفاة فيهم خشونة وغلظة ،
وما أعرف أن تجار قريش يخافون على أنفسهم وأموالهم في رحلة الشتاء
أحدًا كما يخافون هذا الحى من خشم . ولولا خوفهم من هذا الحى وإكبارهم
لبأسه وبطشه لما أيسر أبوك ولما كان له هذا المال الضخم وهذا العدد
الكثير من الرقيق والأحلاف ، ولما اتخذ لك هذه الدار الأنيقة الواسعة في
مكة تقيمين فيها كما يقيم أغنى بنات قريش . فكيف نبنت هذه الزهرة
الرقيقة الأنيقة التى لا تشاق إلا إلى الدماء . وكانت فاطمة إذا سمعت
هذا الحديث ابتسمت عن نفس حزينة وقالت : ما أشد جهلكم يأهل
المدّر بما يُطلّ الوبر من نفوس حية وقلوب رقيقة وأكباد يعبث بها الحب
ويعصف بها الغرام ! .

فلما طال على الفتاة أمر هذا الحب وثقل عليها عذابه ، رقت لها عاتكة
بنت سهم ، ورقت لها سلمى بنت خزيم ، وقالت لها : ألقى عليك الخطب ،
وهوّننى عليك الأمر ، فليس هذا الفتى إلا غلاماً من قريش له رقة قلوبهم
وفيه حبهم للحياة وكلفهم بلين العيش . وقد أصهر اليوم إلى بنى زهرة وما
أيسر أن يصهر غداً إلى خشم . وما نحسب أنك تكرهين أن تكونى زوجة
الثانية . وما نحسب أنك تخافين أن تغلبك آمنة على قلبه ، فقد يكون لآمنة

جمالها ومكانها من قريش ، ولكن لك جمالك ، ومالك ، ومكانك من خشم . فالرأى أن نجتمع بينك وبين القى ، وأن يحس القى منك حباله وميلا إليه ، ففعل ذلك أن يغريه بالخِطبة . وأى شىء أحب إلى أبيه وإخوته من أن يُضْهِروا إلى عظيم خشم فيأمنوا شياطينها وشياطين مُراد وهذه الأحياء التى تأخذ عليهم طريقهم إلى بلاد اليمن ! . وكذلك دبرَ الفتيات أمرهن وجعلن يرصدن للقى إذا غدا ، ويرصدن له إذا راح ، حتى ظفرن به فى هذا اليوم . فلما أغلق من دونه ومن دونهن الباب لم يلبثن إلا قليلا حتى نظر القى فإذا فاطمة وحدها قائمة أمامه ترسل إليه من عينيها الحادتين نارا محرقة عذبة فيها حبٌّ لا حد له ، ورغبةٌ لا حد لها ، وحنانٌ لا حد له أيضاً . قال : يا هذه ، غَضِي جفونك عني فأنى أجد للحظك مساً لا ذعا . قالت : وأنت ، فامدد إلى عينيكَ فأنى أجد فيهما شفاء لما يعذبني من سقم ، وريحاً لما يحرق فؤادى من صدَى . قال : ما لهذا أقبلت ! فأين صاحبك ؟ قالت : ما أنت وصاحبتي ! إنما كانتا صديقتين أعانتا على أمرٍ ثم مضت كل واحدة منهما إلى وجهها . أقم معى ساعة أو بعض ساعة ، فقد طالما تمنيت هذا اللقاء ، واشتقت إلى هذه الخلوة ، وسمت نفسى إلى أن يتصل بينك وبينى الحديث . قال : يا هذه ، ما أحب هذا إلى وآثره عندى . إن فى وجهك لإشراقاً حلواً وإن فى طرْفك لسحراً فاتناً ، وإن فى صوتك لعدوبةً تخب العقول وتستهوئ الألباب ، ولاكنى عن هذا كله عجل . قالت : فما يُعجلك عنه ؟ وإلى أين كنت تريد ؟ قال : يُعجلنى عنه شغلٌ شاغلٌ وهمٌّ طارىء ، ولقد كنت

أريد إلى أبي قُبَيْس حيث يقيم أهلى . قالت : أقم يا زين قريش ! إن أباقيس
 لن يريم^(١) ، وإن أهلك لن يبرحوه ، وإن خير ما فى الأمكنة والدور أنها ثابتة
 باقية لا تتحول ولا تزول إلا فى بطاء ، وإن شر ما فى الزمان أنه لا يعرف
 الهدوء ولا الاستقرار ، ولا يحب السكون والاطمئنان ، إنما هو انتقال دائم
 وحركة متصلة لا تستطيع الجمع بين أطرافه بل لا تستطيع الجمع بين أجزائه . أقم !
 فستبلغ أباقيس فى أى وقت شئت ، وستلقى أهلك فى أى لحظة أحببت ،
 ولكن هذه الساعة إن تفلت منك فلن تعود إليك ، ولعلك لا تحرص عليها
 ولا تحفل باستدراكها ، فاعلم أنى عليها حريصة ولها محبة ، واعلم أنى شفيقة أن
 تضع فقد تعلقت نفسى بهامند يوم الفداء . لقد رأيتك مقبلاً إلى المسجد ، ورأيتك
 منصرفاً عنه ، ورأيت على وجهك ابتسامة واحدة للموت والحياة جميعاً . لم يكن
 وجهك مظلماً حين كنت تنتظر الموت ، ولم يزد وجهك إشراقاً حين رُدَّتْ
 إليك الحياة . ولقد ارتسمت فى نفسى ابتسامتك هذه فلم تفارقها ، ولم أرك منذ
 ذلك اليوم ولن أراك إلا مبتسماً . أقم يا فتى ! إن وجهك لوضئ ، وإن جبينك
 لفضئ ، وإن عينيك لتسرعان إلى القلب ، وإن صوتك ليسبغ على حناناً
 حلواً يدنينى منك ويدفعنى إليك . أقم ! وليكن بينك وبينى طرف من
 حديث . فمن يدرى ! لعل هذا الحديث أن ينتهى بك وبى إلى شئ .
 قال : وما عسى أن يكون هذا الشئ ؟ إن شخصك ليثبتنى فى هذا المكان
 وإنى لأجد فى قلبى شيئاً يدفعنى عنه ، وإن نفسى لمضطربة بين هذين
 الداعيين اللامعين : يهيب بى أحدهما أن أقم ، ويهيب الآخر أن انصرف .

قالت : أقم يافتي وخلالك ذم ، فما ينبغي وقد دخلت دارنا أن تخرج منها ، ولما تُصَبُّ عندنا شيئاً من القرى . قال : لست ضيفاً ولا طارفاً وليست الساعة ساعة قرى ، دعيني أنصرف الآن كارهاً ، وما أظن إلا أنى عائد إليك إذا كان المساء . ثم هم أن ينصرف ، ولكنها أقبلت عليه ورنت إليه بطرف ساحر فآثر أثبته في مكانه ، فسته يدهامساً رفيقاً وقالت : وكذلك يذهب عبثاً ما أنفقت من جهد ، ويمضى سدى ما بذلت من حيلة . وتتصرف ولما يتصل بينك وبينى الحديث ولما تتصل بين قلبك وقلبي الأسباب ؟! أقم فلا بد من أن أسألك . ولا بد من أن تجيب ، أنظر إلى هذه الوسائد ! لقد هيئت لك منذ اليوم . فاجلس وانظر هذه الجارية قد أقبلت تحمل شيئاً من شراب . فجلس الفتى وجلس منه غير بعيد ، وأقبلت جارية سوداء تحمل إبريقاً وأقداحاً فوضعت ما في يدها وملأت قدحين وقدمت إليه أحدهما وهى تقول : دونك شيئاً من زبيب الطائف يازين قريش . ثم قدمت إلى مولاتها قدحاً آخر وانصرفت . قالت فاطمة : أنبت منذ حين أنك قد خطبت أمانة بنت وهب وأنها قد زفت إليك . أسعيد أنت منذ أعزست ؟ أنا عيم البال أنت منذ استأنفت حياتك الجديدة ؟ قال : وما يمنعنى أن أكون سعيداً ناعم البال ، وإنى لأجد عند أمانة أكثر مما كنت أريد . قالت : ولكنك لا تجد عندها المال والثراء ولين العيش . قال : فان ذلك شئ يكسبه الرجال وينفقون حياتهم فى السعى إليه ، وإنى لأخذ فى أسباب ذلك ، فقد كنت حين رأيتنى راحماً قبل أن يأتى لى أن أروح ذاهباً إلى حيث أهىء للرحلة . قالت وقد ظهر عليها الخوف

أمرتُكِ أنت؟ وإلى أين؟ قال: إلى حيث ترحل قريش . قالت: فإن مثلك لم يخلق لهذا العناء . أقم يافتي ، فإن المال كثير ، والثراء موفور ، وإن لك من ذلك ما أحببت ، وإن لك من ذلك لفوق ما تحب . إنك لتعرف لمر الخشعي إبلا ترعى خارج مكة لا يكاد يحصيها العد ، وإنك لتعلم أن لمر الخشعي عند تجار قريش وصيارفهم من الذهب والفضة والعروض شيئاً كثيراً . وإنك لتعلم أن يد فاطمة بنت مر في هذا كله مطلقة ، فليس لي أخ وليست لي أخت ، فثروة أبي خالصة لي لا يشاركني فيها أحد ، وهي لمن سأختره بعلا . أفترض أن تكون هذا البعل ؟ . قال: هذا شيء تتحدث به إلى النفس منذ رأيتك وقبل أن تذكري لي مالك الضخم وراثتك الموفور . وإن فيما أرى من جمالك وعقلك وكل خلقك وحسن منزلك من خشم لما يحببك إلى ويغريني بما تعرضين علي . فهل لك في أن تهينني سعة من وقت وشيئاً من مهلة ، لا لأفكر ولا لأروى فقد فكرت ورويت ، ولكن لأتحدث في ذلك إلى أنظر كيف يقع ذلك من آمنة ، فإن عدها بالعرس حديث . وعزيزٌ علي أن أسوءها ولما يمضي على زواجنا إلا أمدٌ قليل . قالت : لك ماشئت من سعة ، ولك ماشئت من مهلة . وعزيزٌ علي أن أروّع آمنة أو أن أسوءها ، فما جئت على شر ، ولا قدمت إلى سوء . ولكني أحببتك وأشرتُك وكرهت لك ما يذهب بنصرة كثير من فتيان قريش من هذا الرحيل المتصل لندي يضيع عليهم الصيف والشتاء . ولتعلمن آمنة أني لأريد لكما إلا خيراً ولا أؤثركما إلا بأحسن ما تحبان ولن أكون لآمنة عالة^(١) ولا أكونن أقرب

اليها وأعطف عليهما من هالة بنت وهيب. فكّر إذا ما وسعتك التفكير وروى
إذا ما وسعتك التروية ، وتحدثت إلى أهلك وإلى أهلك وانتظر بالخطبة والزفاف
ماشئت أن تنتظر . ولكن أقم عندي هذا اليوم ، فاني أجد في جوارك
لذة وفي حديثك متاعاً . وإني أحس أنك تجد مثل ما أجد وتحب مثل
ما أحب . ثم دنت منه وأقبلت عليه بوجهها المشرق الجميل وهي تقول في صوت
هاديء عذب أدنى إلى الهمس منه إلى الجهر : هلمّ ، فقد خلت لنا الدار ونأى
عنا الرقيب ، وقد وهبت لك نفسي فهب لي نفسك ، ولنقضه يوماً حلوا سعيداً .
هنالك ارتد الفتى عنها وقد أخذته خوف رفيق وإشفاق هادىء وهو يقول :

أما الحرام فاللماتُ دونَه والحلّ لآحلّ فاستئينه

فكيف بالأمر الذي تنوينه

قالت : ما أشدّ ما ترتاع لما لا يروع ! إني لأعرف فيك نسك أهلك . قال
لاروع ولا نسك ، ولكن دعيني أنصرف ولأعود إليك مع المساء بما ترضين
وبما أنا عليه حريص . قالت : أصادق هذا الوعد أم تحلة تخرج بها مما نحن
فيه ؟ قال : بل وعد صادق أنا على صدقه أحرص منك . ثم نهض ونهضت ،
ومضى مثاقلاً وتبعته وهي تقول : لقد صبرت أياماً وأياماً ، فما يمنعني أن أصبر
بعض يوم . اذهب سالماً وعد موفوراً ، فلن أبرح مجلسي هذا حتى تعود .

وما كاد يتجاوز باب الدار حتى مضى في سرعة تشبه العدو لا يحس
وهج الشمس الذي كان يلفح الوجوه ، ولا يكاد يرى من حوله شيئاً . قد
امتلاّت نفسه بما رأى وامتلاّت بما سمع ، وجاشت في قلبه الآمال العراض .

لقد كان يقيس ما كان يعده أبوه من ثراء بعد طول الرحلة وثقل الجهد وكثرة الاحتمال وفراق الأهل ، إلى ما رتبّت له فاطمة في غير نأي ولا مشقة ولا اغتراب ولا فرقة . فكان يأخذ شئ يشبه الدُّوَّار حين يرى هذا الفتى وقد أنصاه سفر غير قاصد ثم عاد مجهودا مكدودا ولم يفد إلا دراهم ودنانير وهذا الفتى الذى يسعى فى مكة رضى البال موفور النعمة لم يلق جهداً ولم يتعرض لأذى ، وإنما قال كلمة ليس غير ، فإذا هو أكثر قریش مالا وأعظمها ثراء وأعزها جانباً ، إليه حماية قریش حين تأخذ طريقها إلى اليمن . وأنساء هذا التفكير نفسه حتى مرّ بدور بنى هاشم فلم يلو على أحد ولم يقف عند شئ . ولولا أن صوتاً ناداه : إلى أين يا عبد الله لمضى إلى غير غاية . ولكنه سمع لهذا الصوت فالتفت فرأى سمراء تسعى قريية الخطا كئيبة الوجه كاسفة البال . فوقف لها حتى دنت منه وهى تقول : لشدّ ما تسرع فى العدو ، ولشدّ ما تذكّرني بأخيك . قال : ما أرى أنك تريدين هالة أو فاطمة بنت عمرو . قالت : بل إلى فاطمة أريد ، فقد مسّ بها منذ حين ما مسني منذ دهر ، فانصرف عنها أبوك بعض الشئ إلى عرسه الجديدة ، ولولا أن لفاطمة فيك وفى إخوتك عزاء عما تجدمن هجر عبد المطلب لكان الخطب عليها أثقل ولها أنجع . فأنا اختلف إليها فى مثل هذا الوقت من كل يوم لأسليها وأسرى عنها ، فقد أخذ عبد المطلب لا يروح إلا إلى هالة . وأنت فما أعجلك عن أبيك وعن إخوتك ؟ أمشوق أنت إلى آمنة ولما يعتدل النهار ؟ قال : إنك لتعلمين ضعف سلطان الشوق علينا آل عبد المطلب ، وإن قلب أحدنا ليتحرّق شوقاً

ويتفطر جوى فلا يبلغ منه ذلك أن يتحوّل عن مجلسه أو ينصرف عن وجهه إن كان قصد إليه . ولكن عبد المطلب قد لقينى منذ اليوم بحديث أعجلنى عنه وعن إخوتى ودفعنى إلى أن أسرع إلى الرواح . إنه يريد أن أفصل مع القافلة إلى الشام ، فلا بد من أن أتهيأ لذلك وأهيب له أمانة ، وإنى لأخشى أن يكون موقع ذلك منها شديدا . قالت : لا بأس عليك إن تكن فى من قريش فآمنة فتاة من قريش ، وما أظنها إلا هيأت نفسها لحياتنا جميعا وأخذت نفسها بالصبر على فراق البعل أكثر العام . اذهب مصاحباً فلن ترى من أمانة إلا ما يحب أبوك وما ستحب أنت بعد حين وإن كرهته الآن . وكأنا قد بلغا بيت فاطمة ، فدخلت هى ومضى الفتى أمامه لم يعرج على أمه ليحييها أوليقدّم إليها بعض العزاء . فلما انتهى إلى أمانة فى بيتها قامت إليه طلاقة الوجه مشرقة الجبين وتلقته متبهجة بلاقائه ، ولم تسأله ما أعجله عن قومه . وهل كانت تشك فى ذلك أو ترتاب ! إنما هو الحب الذى كان يخرج من البيت وقد خلت دور بنى هاشم من الكهول والشباب ، ويرده إلى البيت ولما ينهض كهول بنى هاشم وشبابهم من أنديةهم ومجالسهم . ولكن أمانة رأت على وجه زوجها شيئا غير ما كانت قد تعودت أن تراه : رأت حيرة لا تكاد تظهر وهماً لا يكاد يمين ، فهتت أن تسأله ، ولكنه سبقها إلى الجواب فقال : عزيز على يابنة وهب أن التاك بغير ما تعودت أن ألقاك به من البشاشة والبشر . ولكن حياة قريش لا تعرف البشاشة الدائمة ولا البشر المتصل . قالت : فأنت مرتحل إذا مع القافلة ؟ كذلك يريد أبوك وكذلك

يريد إخوتك وكذلك يريد مكانك من قريش . ثم كفكفت عبرة كانت تريد أن تنهر ، وردت إلى صوتها ما كان قد فارقه من الثبات والهدوء ، وقالت وهى تبتسم فى كثير من التجلد والصبر : وهل عزت قريش وأثرت إلا بالرحيل ! إنما عز قريش وثراؤها ثمرة لجهد الرجال وصبر النساء : أولئك يشقون بالرحلة المتصلة وهؤلاء يشقون بالصبر الطويل . وماذا أعددت لهذه الرحلة ؟ . قال : سنتحدث فى ذلك بعد حين ، ولكنى أريد أن تستقبل هذا الفراق بصبر لا يشوبه التصبُّر ، وحلِّ لا يشوبه التجلُّد ، وقلب لا يُفسد عليه الحزنُ أمره . انتظري عودتى ، فعلى أن أعود موفوراً موسراً ، ولعل ذلك أن يهين لنا حياة أيسر وعيشاً أدنى إلى اللين مما نحن فيه . فلو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردت نفسى إليه من الاحتمال حين أرى جيدك عاطلاً لاتزينه هذه العقود التى تزين أجساد أترابك من نساء قريش ! . ولو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردت نفسى إليه من الاحتمال حين أرى أنك لا تستمتعين من طيبات الحياة بمثل ما يستمتع به غيرك من نساء بنى هاشم ! . قالت : وما ذاك ! وأين يكون الحلى ! وأين يكون النعيم من هذه الساعات الحلوة التى تقضيها إذا كانت القائلة أو إذا جنَّ الليل ! ... وأخذ الحديث يصفو ويعذب ويرق ويلين بين الزوجين ، حتى أنسى عبد الله أمر الرحلة ، وأنسى حديث فاطمة وما وعدته وما صوّرت له من أمانى وآمال . ولم يذكر عبد الله إلا هذا الوجه الجميل ، وهذه النفس السمحة ، وهذا الخلق الرضى ، وهذا الحديث العذب

يقع من قلبه مواقع الماء من ذى الغُلَّة الصادى . هنالك عاد إلى وجه الفتى إشراقه وبهجته ، وعاد إلى قلب الفتى غرامه وجهه . وهنالك انتصر الشباب على الحزن والسرور معاً . ثم أقبل الأصيل فأسبغ على مكة وما حولها رداء خفيفاً من الحزن . وخرج الفتى من عند آمنة راضياً ناعم البال ، ولكن صوتاً بعيداً يبلغ قلبه فيمسه مساً خفيفاً . خرج الفتى ليسعى في تهيئة رحلته ، ولكن هذا الصوت البعيد أخذ يدنو من قلبه قليلا قليلا :

عَرَّجْ علينا فأقم ساعةً فعندنا إن شئت رَوْحٌ وراحٌ

ومع أن الفتى قد ولَّى وجهه شطر بنى زُهرة ومضى في طريقه إليهم فقد شغله هذا الصوت عن بنى زهرة وعن عُروضهم وتجارتهم ، وشغله عن القافلة ورحلتها من غد ، وشغله عن نصيح أبيه وتشجيع إخوته ، وشغله عن كل شىء . ولم لا ! لقد كان يدنو منه شيئا فشيئا . وكان كل مادنا منه ارتفع واتسع وأخذ عليه كل سبيل ، حتى لكانه كان يسمعه من كل ناحية . وينظر فإذا هو في طريقه لا إلى دور بنى زهرة بل إلى دار فاطمة بنت مُرّ . وينظر الفتى فإذا هو أمام الدار ، وإذا هو يدخل من الباب ، وإذا هو يرى الجارية السوداء تلقاه باسمه وتحببه قائلة : أسرع يازين قريش فقد أبطأت وطال انتظار مولائى لك . وينظر الفتى فإذا هو في ذلك المجلس الذى ترك فيه فاطمة آخر الضحى ، وإذا فاطمة قد قامت له وأقبلت عليه . ولكنه لم يفتن لشيء ما كان ليفوته لو أن أمره كله قد كان إليه حقا : لم يفتن لهذا الفتور السريع الذى ظهر على فاطمة حين وقع بصرها عليه . على أنه لم يلبث غير قليل حتى

أحس هذا الفتورَ وأنكره . فقد تلقَّته الفتاة فرحة بلقائه أول الأمر ، ولكنها لم تكد تُثبت بصرها فيه حتى هدأ هذا الفرح ، ودعته في رفق إلى أن يجلس . وما كاد يستقر في مكانه حتى أقبل عليها جلدان مسروراً وهو يقول : رأيت أنى لم أكذبك ولم أخلفك ، وإنما أقبلت مع المساء . ولئن كانت الدار قد خلت لنا في الضحى فهي الآن أدنى إلى الخلو . ولئن كان الرقيب قد نأى عنا في الضحى فهو الآن أمعن في النأى . ولئن كان النعيم قد عن لنا في الضحى فهو الآن أدنى منالا . قالت وقد أطالت النظر اليه والتحديد فيه : ليتك لم تعد ، وليتك إذ وعدت أخلفت موعدك ! . فحدثني ماذا صنعت منذ فارقتني ، فإني لا أرى في وجهك ما كنت أراه في الضحى من الإشراق ، ولا أرى في جبينك ما كنت أراه في الضحى من الضوء ، ولا أسمع في صوتك ما كنت أسمع في الضحى من هذه النغمات الحلوة التي كان يملؤها الحنان ، إنما أنت الآن قى من فتیان قریش يبتغى لذة ومالا . ان في أحداث الزمان لعجبا . ما أسرع ما يتغير الرجال ! . قال : وأين ترين هذا التغير ؟ وماذا تنكرين مني ؟ لقد كنت بك مشغوفاً في الضحى ، وكنت أدافع هذا الشغف ، ولقد كنت مقبلاً عليك في الضحى وكنت أخفي هذا الإقبال . فالآن وقد أرسلت نفسي على سجيَّتها وتركت قلبي يُعرب عما يجد ويصوّر ما يحس تلقيني هذا اللقاء ! هلم ! لقد خلت لنا الدار ونأى عنا الرقيب وأمكنك لنا الفرصة . قالت : لقد كنت تفكر في الضحى أو تريد التفكير ، وكنت تروى في الضحى أو تريد التروية ، فالآن دعني أفكر وهب لي سعة من وقت ، فإني لا أدري

ما الذى يصرفنى عنك ، ويخيفنى منك . ولو أنصفت نفسك وأنصفتنى ،
لا نصرفت عنى الآن ومضيت فيما كنت فيه من تهيئة رحلتك إلى الشام .
قالت ذلك ومنهضت متشاقلة فمضت حتى اختفت ولبث الفتى حائراً لا يدري
ماذا يأتى من الأمر . وكان حاجباً قد أزيل عنه وأمرأ قد كشف له ، فوثب
ومضى مسرعاً حتى جاوز الباب وأخذ طريقه إلى بنى زهرة . وقضت فاطمة
ليلاً طويلاً ثقيلاً . حتى إذا كان الصبح أقبلت عاتكة تسعى تريد أن تعلم
علمها ، فرأت فتاة محزونة كئيبة . فلما سألتها عن خطبها قالت :

إنى رأيت نخيلةً عرّضت فتلاً لأت بحمّاتم^(١) القطر

فلما أتتها^(٢) نوراً يضىء له ما حوله كإضاءة الفجر

ورأيت شرفاً أبوء به ما كل قاذح زنده يورى

لله ما زهرية سلبت ثوبيك ما سلبت وما تدرى

قالت عاتكة : لقد ظننت أن حبكن فى البادية كحبنا فى الحاضرة ،

وما كنت أحسب أنه يتجاوز الشباب ويرقى إلى السحاب . قالت فاطمة :

لا تهزئى ، فقد ذهبت آمنة بخير ما كنت أحب .

(١) الحناتم . السحاب السود . (٢) لماتها : أبصرتها ولحقها .

البين

لم تظهر آمنة ارتياعاً للوداع ، ولا التياغاً للفراق . ولم تصعد من صدر آمنة زفرة ولا انحدرت من عين آمنة عبرة . وإنما كان وجهها هادئاً منبسط الأسارير ، وكان صوتها مطمئناً لم تفارقه عذوبته الحازمة حين أقبل زوجها عليها يودّعها آخر السحر ، وقد أخذ الفجر يتنفس في دعة ، ويمس بأصابعه الرفيقة ما حول مكة من الرُّبَى . وكان عبد الله يدافع حزناً عميقاً كان يريد أن يظهر على وجهه وينطلق على لسانه . وكان يتكلف من التجلُّد والتصبر ما لا بدّ منه ليكون قى من فتيان قريش ليس للجزع على نفسه سلطان ، ولا للضعف إلى قلبه سبيل . ومع ذلك فقد اتصلت عيناه الحادثان بوجه امرأته الجميل اتصالاً طويلاً كأنما كانتا تريدان أن تطبعا صورته الحلوة الهادئة في نفس الفتى لتكون له رفيقاً مؤنساً في سفره الشاق الطويل . ولم تجرؤ آمنة على أن تطيل النظر في وجه زوجها كما كان هو يطيل النظر في وجهها ، إنما كانت عينها ترتفعان إلى وجه الفتى ثم لا تلبثان أن تنخفضا حياءً واحتشاماً وصبراً . حتى إذا خرج الفتى ليلحق بأخوته الذين كانوا ينتظرونه غير بعيد ليصحبوه إلى حيث يودّع أباه وأمه ثم إلى حيث عسكرت القافلة تنتظر الإيذان بالرحيل ، نظرت آمنة فإذا عينها لا تبكيان ، وإذا قلبها لا يخفق ، وإذا شخصها كله

هاديء مطمئن لا تظهر عليه آيات الجزع ولا أمارات الذهول . ومع ذلك فقد كانت نفسها تبكي بكاء مرأ ، وكان قلبها يشكو شكاة الطائر المهيض . ولكن أصداء هذا البكاء وهذه الشكاة لم تكن تتردد إلا في أعماق الضمير . كانت آمنة ثابتة للخطب مطمئة له ، كأنما أذعنت للحوادث إذعاناً وكأنما أخذت تروض نفسها على صبر لم تعرفه نساء قریش وشهية نفسها لحزن طويل لم تألفه أترابها اللاتي لم يكنن يذقن لنة الحياة .

وما أشرقت الشمس وما ارتفع الضحى حتى كانت القافلة قد بدأت طريقها الطويلة إلى غايتها البعيدة ، وحتى كان كثير من شباب مكة وأحداها يُشرفون من كل مرتفع ويمدون أبصارهم إلى حيث مضت العير ليرَوْا منها ما يستطيعون أن يروه قبل أن تتقطع بينهم وبينها الأسباب . وكان بيت آمنة في هذا الوقت قد امتلأ بنساء بني هاشم وبني زهرة أقبلن عليها يعزيّننها ويسلّينها ويعاونّها على احتمال هذا الحزن الجديد .

ولكنها لقيتهن كما تعودت أن تلقاهن من قبل باسمّة في حزن نشيطة في هدوء . ولم تعنهن على أن يطلن الحديث في الوداع والرحيل وفي القافلة وما يتصل بها من الأمر ، فأخذن فيما كن يأخذن فيه من أحاديثهن المألوفة في كل يوم . وكان عبدالمطلب قد ذهب إلى مجلسه من المسجد كدأ به في كل يوم ، فتلقاه أبنأؤه بالتحية وتلقاهم هو بالدعاء . وجلس وجلسوا من حوله يتحدثون عن القافلة كما كانوا يتحدثون عنها من قبل . وكان الشيخ يسمع لهم ويردّ عليهم ، ولكنه كان يجدفى نفسه حزناً عميقاً لا ذعاً ، لم يكن تعود أن يجده حين كان يرّحل أبنأؤه غير عبد الله

مع القوافل إلى اليمن أو إلى الشام ، ولا حين كان يرحل هو تاركا أبناءه وأهله . وكان الشيخ يحس كأن له شخصين مختلفين أحدهما حاضر بمكة يأخذ مع أبنائه وغيرهم من قريش بأطراف الحديث ، والآخر غائب عن مكة قد فصل مع العير وأخذ قصد الشام يصاحب هذا الفتى الذى ارتحل ولم يكن من الحق أن يرتحل لو أن عبد المطلب طاع نفسه واستمع لصوت الضمير . وكان هذا الشخص الغائب يرسل إلى الشيخ صوراً قوية متلاحقة تمثل الطريق التى تسلكها العير والأحياء التى تمر بها ، واستقبال هذه الأحياء للعير واحتفاءها بها ومتابعتها لها . وتمثل له ابنه آخذاً فى الحديث مع رفاقه كأنما ما يجد من حزن لفراق أهله وإخوته وبلده . وكثيراً ما كان هذا الشخص الغائب يسبق العير فى طريقها إلى الشام ويعود إلى عبد المطلب بصور هذه الطريق ، فيثير فى نفسه ذكرى ، ويثير فى نفسه أملاً ، ويثير فى نفسه إشفاقاً ، لأنه كان يستحضر ما كان يلقى فى سفره إلى الشام من خير وشر ، ومن راحة وجهد . وكان يرى أن ابنه سيلقى مثل ما لقي وسيحس مثل ما أحس ، فيتهيج حيناً ويبتئس حيناً آخر . وكان على هذا كله لا يستطيع أن يدافع خاطراً يلُمُّ به من حين إلى حين ، فيصور له يوم الفداء ، ويصور له هذا الصراع العنيف الذى كان بينه وبين الموت فى ذلك اليوم والذى كان موضوعه هذا الفتى الذى ترُقل به مطيته الآن نحو بلاد الروم . وكان كلما فكر فى ذلك أحس خوفاً مرّاً تظهر آثاره على وجهه المشرق الوقور ، كأنما كان يسأل نفسه : أفى الحق أن قد انتهى هذا الصراع بينى وبين

الموت ؟ أفى الحق أنى قد استخلصت هذا الفتى ووهبته للحياة المتصلة والبقاء الطويل ؟ إن الدهر لكثير الغدر مشغوف بالخداع . وإن من حولنا لقوى خفية إن يكن منها الخير المسعف ، فان منها الشرير الخاتل . وإن هذه القوى الشريرة لتجدلذة سيئة فى تضليلنا والعبث بنا ودفعنا إلى الشئ كأنه الخير كل الخير حتى إذا اندفعنا إليه وتورطنا فيه انصرفت عنا ساخرة منا وتكشفت لنا الأحداث عن الشر والنكر والبلاء . ومن يدري ! لعل قوة خفية من هذه القوى الخاتلة قد خدعتنى ومكرت بى وخيلت إلى أن فى حمل هذا الفتى على الرحلة مع شباب قومه وكهولهم نفعاً له وإصلاحاً على حين لم تكن تريد به إلا الشر ، ولم تكن تريد بى إلا النكر . ولعلها أن تكون قد أرصدت له فى الطريق رصداً وكادت له فى السفر كيداً . وكان الشيخ إذا ألم به هذا الخاطر وانتهى به التفكير إلى هذه الصورة امتلأ قلبه بهمم شغل عنيف يكاد يقطع عليه حديثه مع من كان حوله من قومه ، ويكاد ينهضه قائماً ويسعى به إلى حيث يركب أسرع نجائه ليلحق بابنه ويرده إلى مكة . فكان الوقار وحده يكفّه عن ذلك ويرده إلى أن يأخذ نفسه بالصبر والاحتمال ويحتفظ بما فى قلبه من الهم سرّاً مكتوماً لا يظهر عليه أحد غيرهِ ولا يناجى به إلا ضميره .

وكذلك اتصلت حياة الشيخ منذ ارتحل ابنه مضاعفة : يحيا مع أهل مكة ويضطرب فيما يضطربون فيه ، ويمضى مع القافلة ويشاركها فيما تجد من مشقة الرحيل وراحة المقام . وربما شاركها فى أحاديثها وآمالها . وربما شاركها

في خوفها وثقتها . ثم ربما فكر في آمنة فأطال التفكير . وما له لا يفكر فيها وقد كانت في حجر عمها وهيب ، فلما زفت إلى عبد الله أصبحت في كنفه هو ، ولا سيما بعد أن سافر زوجها وبقيت هي وحيدة محزونة ليس لها مُسَلٍّ عن الوحدة ولا معين على الحزن ! . لذلك كان الشيخ شديد العطف على هذه الفتاة يزورها فيكثر زيارتها ويطيل المقام عندها ، ويلح على هالة في أن تفعل فعله فتزور آمنة وتستزيرها ، ولا تُخلى بينها وبين الوحدة ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

وفي الحق أن الأسابيع الأولى التي تبعت رحلة عبد الله قد مرّت على آمنة مرّاسريعاً يسيراً . فمّا أكثر ما كان يزورها نساء بنى هاشم ويستزرنها ! وما أكثر ما كانت تجد عزاء وراحة فيما كان ينالها من بر الشيخ وأزواجه ومن ودّ سمراء خاصة ! . على أن حياتها كانت كحياة عبد المطلب مقسمة بين مكة وبين الطريق التي كانت تسلكها القافلة . فكانت تحيا حياة النساء من حولها في قليل من العمل وشيء من الحديث ، وكثير من الصمت ، وكانت تتبع عبد الله في طريق تنخيلها ولا تحققها . وأتّى يكون لها تحقيق الطريق وهي لم ترتحل ولم تجب أقطار الأرض ، إنما كانت تسمع أحاديث الناس عما يجدونه في طريقهم إلى الشام وإلى اليمن فتصوّره لنفسها كما استطاعت ، وترى زوجها في أطوار^(١) المسافرين فتبتّج لذلك قليلا وتشقى به كثيرا . وأصبحت آمنة ذات يوم تجد في نفسها شعوراً غريباً لا تدري أألم هو أم لذة ؟ أحنّ هو أم سرور ؟ . رأت فيما يرى النائم كأن آتياً قد جاءها فوقف

(١) أطوار المسافرين : أحوالهم المختلفة . الواحد طور وهو الحال .

منها غير بعيد ، وحاولت أن تتبين شخصه فلم تستطع ، وحاولت أن تتحقق
صوته فلم تستطع . وما كانت تدري أكان رجلاً أم امرأة . وما كانت
تدري أكان شيخاً أم شاباً . وإنما كانت تعلم أنه كان شيخاً مؤنساً عذب
الصوت ، دنا منها حتى إذا كاد يمسهما تحدث إليها في رفيق كأنه يناجيها
ويُسِرُّ إليها سرّاً . فقال : أتعلمين أنك ستصبحين أمّاً ؟ . قالت : ماذا تقول ؟
لم أفهم عنك . قال : أتعلمين أنك حامل ؟ قالت لا . قال : فاعلمي إذاً أنك
ستكونين أمّاً خير من حملت الأرض من الناس . ثم نظرت فلم تر شيئاً .
ثم استيقظت ونظرت من حولها فإذا الصبح قد أخذ يشرق ويضيء كل شيء .
هنالك فكرت آمنة فيما رأت وفيما سمعت ، وأنكرت آمنة ما رأت وما
سمعت . وسألت نفسها فإذا هي لا تعلم أنها قد أنكرت من أمرها شيئاً ،
إنما هو اضطراب يسير كان يُلمُّ بها من حين إلى حين قبل العرس ، فلا غرابة
في أن يلمُّ بها بعده . وما كانت تقدر أن الحمل يسير إلى هذا الحد ، لا تشعر
المرأة به ولا تجد له عرضاً من الأعراض غير مألوف ، على أنها لم تصدق
ما سمعت ولم تستطع مع ذلك أن تكذبه ، فظلت منه في شك مريب ،
واستشعرت له خوفاً مقلقاً وأملاً لذيذاً . وظلت في حيرتها هذه الحلوة المرة
حتى ارتفع الضحى وأقبلت إليها نساء بنى هاشم وفيهن سمراء وفاطمة بنت
عمرو وهالة بنت وهيب . فقصت عليهن في استحياء ما رأت وما سمعت .
وسألنها عن بعض الشيء ثم رجحن لها صدق الرؤيا . ووصفت لهما سمراء تمام
تقدمت إليها في أن تحملها لتردد عنها الشر وتدود عنها مزيجات الأحلام .

من ذلك اليوم ازدادت نفس آمنة رضاً واطمئناناً ، واحتملت بُعد زوجها عنها في شجاعة لا مرارة فيها ولا حرمان ، وأخذت تفكر في زوجها مبتسمة له ، وتنتظر عودته القريبة في شيء من الغبطة والسرور عظيم . وأخذت تقدّر ابتهاجه حين يعود فيعلم من أمرها ما لو علمه الآن هوّن عليه جهد السفر ومشقة النوى . وعلقت آمنة ما وُصف لها من تائم ، ولكنها لاحظت أنها ما كانت تُفنيق من نوم إلا وجدت تائمها وقد انقطعت أسبابها وسقطت عنها . فلما تكرّر ذلك أعرضت عن التائم ولم تحفل بها ، وأخذت تنتظر أعراض الحمل ، وشيئاً نفسها لمثل ما احتملت هالة من ألم حين كانت تنتظر حمزة . ولكنها انتظرت وأطالت الانتظار ، فلم تجد شيئاً ولم تشكُ ألماً ولم تضيق بالحياة ولم ترغب عما كان متاح لها من لذاتها اليسيرة . ومع ذلك فقد مضت الأيام والأسابيع ولم تشكُ آمنة في أن الأحلام لم تكذبها . وإذا فمتمتازة هي من النساء يالمن ويشكون ويضغن بكل شيء ويرهّدن في كل شيء ، وهي لا تالمن ولا تشكو ، وهي لا تضيق ولا ترهّد ولا تجد ثقلًا ، وهي تتحدث بذلك إلى هالة وإلى سمراء وإلى فاطمة فينكرنه ويعجبهن له ويستبشرن به . على أنها لم تكن تتحدث إليهن بكل شيء . وأكبر الظن أنها كانت تُشفق أشدّ الإشفاق إن وصفت لهن كل ما تجد أو بعض ما تجد أن يسخرن منها ويتهمن عقلمها ويظنن بها الظنون . فقد كانت آمنة في حياة سعيدة لم تعرف مثلها : ما أحسّت من رضا النفس واطمئنان القلب وراحة الضمير مثل ما كانت تحس في تلك الأيام ، وما ذاقَت من عذوبة النوم

ولا استمتعت من جمال الأحلام مثل ما كانت تذوق وتستمتع به في تلك الليالي . إن كانت لتأوى إلى فراشها فيأخذها نوم هادىء رفيق ، ثم تتمثل لعينها مناظر فيها جمال وروعة ، وتلقى في أذنيها أصوات حلوة كأنها غناء الملائكة ، وتقضى الليل كله في لذة غريبة نادرة ، حتى إذا انجلي جبين الصبح أفادت موفورة القوة شديدة النشاط لا تجد كسلا ولا فتوراً . وما هى إلا أن تستعذب أمانة أحلام الليل فتودّ لو قضت وقتها كله نائمة مغرقة في هذه الأحلام . ثم تودّ لو لم يزرها أحد ولم يتحدث إليها أحد لتستحضر في اليقظة ما كانت تبتهج به أثناء النوم . ولكنها قرشية تعرف كيف تملك نفسها وتضبط أهواءها وتلقى الناس بمثل ما كانت تلقاهم به من البشر الهادىء البرىء من الإسراف في الابتئاس أو الابتهاج .

وأخذت قريش تنتظر قفول العير وتستعدّ له . وأخذت الأسر تهيبّء لاستقبال العائدين . وكانت أمانة كغيرها من نساء قريش تنتظر رجوع زوجها وتتهيا له سعيدة مرتين : سعيدة بمقدّمه ، سعيدة بهذا النبأ الذى ستلقاه به إذا خلا إليها . ولم يكن عبد المطلب أقل قريش انتظاراً للقافة وتحدّثاً عنها وتحرقاً إلى لقاء بعض من كان فيها . وأقبل البشير فأذن في مكة أن مقدّم العير قريب . وخفّ شباب قريش يلقون العير قبل أن تبلغ الحرم . واستعد كهول قريش للقاء العير ما دخلت مكة . وازيّنت نساء قريش للقاء الأزواج والإخوة والأبناء . وخرج إخوة عبد الله فيمن خرج ، وانتظر عبد المطلب فيمن انتظر . وازيّنت أمانة فيمن ازيّن ، وأعدت فاطمة بنت

عمرو طعاماً غير مألوف . ولكن إخوة عبد الله كانوا أسرع من عاد من استقبال العير ولم يعودوا مبتهجين ولا مغتيطين . ولم يكذب يراهم عبد المطلب حتى وقع في نفسه حزن ثقیل ، ولم يكذب يسألهم عبد المطلب حتى عرف أن ابنه قد مرض في الطريق فتخاف في يثرب ليرض عند أخواله من بني النجار . واضطرب الشيخ وبنوه بين حزنهم للمريض وحزنهم لأنفسهم . وخاف الشيخ على أمانة وخاف أبناءه على أمهم فاطمة . وقضى الشيخ وبنوه ساعة كانت فيها حيرة سوداء مظلمة ثقيلة الحمل . ثم تاب إلى الشيخ حمله وعاد إليه بصره بالأمر وحزمه في تصريفها ، فلم يفكر في نفسه ، ولم يفكر في أمانة ولا فاطمة ، وإنما فكر في المريض ، فذنب أكبر بنيه ليرحل من فوره إلى يثرب ويشهد من قرب تمرى أخيه . وأبى الشيخ أن يهتم بشيء أو يفكر في شيء حتى يفصل ابنه من مكة . وما هي إلا ساعة من نهار حتى كان أكبر أبناء عبد المطلب في طريقه إلى يثرب لا يلوى على شيء . هنالك رجع الشيخ إلى نفسه فذكر يوم الفداء ، وذكر ضحوة ذلك اليوم الذي أغرى ابنه فيه بالسفر وحضه عليه ، وذكر يوم الرحيل ، وذكر خوفه وإشفاقه ، وذكر القوى الخفية الماكرة التي كان يخافها ويشفق منها . وحاول الشيخ أن يرد إلى نفسه طمأنينتها ودعائها فلم يوفق . فنهض متثاقلاً كلاً أخذ حتى دخل على سمراء . فلما رآته سمراء لم تشك في أن حادثاً قد حدث على أنها تلقته مبتهجةً بلقائه في شيء من العتب والمرارة . ولكنه لم يلبث أن أنبأها بما علم وما فعل ، وبأنه مشفق على الفتى ، وبأنه لا يدرى

كيف يلتقي بهذا النبأ أم القتي وزوجه . قالت سمراء وهى تبكى وقد ذكرت
 ابنها : فابدأ بنفسك فالتقها بهذا النبأ كما ينبغي أن يلتقاها به الشيخ الوقور ، فما
 أحب لك هذا الجزع ، وما أعرف أنه يليق بك أو يجمل منك . وما أرى
 أن على القتي بأساً ، وما أظن إلا أن القتي قد اتخذ هذه العلة اليسيرة سبباً
 إلى زيارة أخواله فى يثرب والمقام عندهم قليلا . ومضت سمراء تعزى الشيخ
 وتهون عليه الخطب . والله يعلم ما كان الخطب عليها هيناً ولا يسيراً .
 ومضت سمراء تعزى أم القتي وزوجه وتهون عليهما الخطب ، وقد سبقت إليهما
 به الأبناء . وكانت طويلاً ثقالاً تلك الأيام وتلك الليالى التى قضاهما آل
 عبد المطلب ينتظرون أبناء المريض . وكان مرّاً ذلك الحزن الذى كان يتجرّعه
 الشيخ إذا أمسى ويتجرّعه إذا أصبح ، ويتجرّعه كلما تقدّم النهار . وكانت
 غزيراً حارة تلك الدموع التى كانت تسفحها فاطمة فى غير هدوء ولا انقطاع .
 وكانت لاذعة محرقة تلك اللوعة التى كانت تجدها آمنة كلما خلت إلى نفسها
 وفكرت فى زوجها . ولكن ! أكانت تملأ إلى نفسها حقاً ! أكان يتاح
 لها أن تفكر فى زوجها حقاً ؟ ! ياله من جنين هذا الذى تحمله بين أحشائها !
 إنه ليصرفها عن الحزن ، وإنه ليصرف عنها الحزن ، وإنه ليقع فى قلبها عزاء
 حلوا وإنه ليملا نفسها صبراً جميلاً . ومع ذلك فهذا الجنين أحق الناس بالثناء
 أن حدث لمريض يثرب حدث . أليس قد يولد يتيماً ؟ بلى ! لم يبق فى ذلك
 شك . ولا بد من أن تؤخذ النفوس باحتماله والصبر عليه . فقد عاد رسول
 عبد المطلب نبيّ قومه بأنه قد بلغ يثرب فلم ير فيها أخاه المريض ، وإنما رأى
 قبره فى ناحية من دور بنى النجار .

وجلس شباب من قريش ذات ليلة عند فاطمة بنت مُرّ الخثعمية
يسمرون . فانتهى حديثهم إلى مرض عبد الله وموته في يثرب . فلما سمعت
فاطمة هذا الحديث غَشِيَتْ جبينها المشرق سحابةً رقيقةً من حزن ، وتحيَّرت
في عينها دمعة لم تلبث فاطمة أن كفكتها وهي تقول في صوت كأنه كان
يأتى من بعيد : نَذَرْتُ وفِداءً ، ورِحْلَةً وَمَرَضَ ، وموت في يثرب ! إنَّ للقدر
في هذا القى من قريش لسراً .

ثم مضى القوم فيما كانوا فيه من لهُو الحديث .



القضاء

خرج تُبَعٌّ من اليمن غازياً في جيش لم تعرف الأرض مثله عدداً وعدة وبأساً وحدة ، وغنى وثروة . فلم يدع تُبَعٌّ في طريقه شيئاً أتى عليه إلا احتواه ، ولا بلد أَمَرَهُ به إلا أذله . وقد دان له النجد والغور ، وأذعن له الحجاز والشام ، وعنت لسلطانة مصر وإفريقية ، وأمعن في المغرب حتى مر بعمود هِرْقُل ووطىء ساحل البحر المحيط ، ذلك الذي كانت تقيم عليه ظلمات دائمة لا تفرقها نجوم الليل ولا شمس النهار . فلما رأى تُبَعٌّ أن قد مَلَكَ مغرب الأرض عاد أدراجه قاصداً الشرق ، فأمعن فيه غزواً وفتحاً ، وثلَّ العروش ، وهزم الجيوش ، وأسر الملوك ، واسترقَّ السادة العظماء ، وملا أيديه من السبي والمال . وما زال ماضياً أمامه يخرج من نصر إلى نصر ، وينتقل من فوز إلى فوز ، وجيشه المُظَفَّر يتبعه فرحاً ومرحاً ، تُغْريه الحرب بالحرب ويُطْمِعه الظفر في الظفر ، ويؤاتيه الحظ ، حتى انتهى إلى أقصى الشرق ووطىء ساحل البحر المحيط ذلك الذي تخرج منه نجوم الليل إذا كان المساء ، وشمس النهار إذا كان الصباح .

هنالك انقلب تُبَعٌّ راجعاً إلى اليمن ، وفي نفسه حزن ألا يتاح له من الظفر أكثر مما أتيح له . والأشْهِيَاءُ له الوسائل ليغزو هذا البحر الذي انتهى

إليه من ساحل إلى ساحل ، ويرى هذه الطريق التي تقطعها الشمس وتقطعها
النجوم حين تأوى إلى أحد ساحليه لتنام . فتنام ولكن في غير سكون ،
وتهجع ولكن في غير استقرار ، إنما تعبر بها زوارق من ذهب وفضة وأخرى
من لؤلؤ وياقوت . وما تزال هذه الزوارق تعبر في دعة وهدوء حتى تبلغ
الساحل الآخر فتصعد في السماء لتبعث الضوء والحياة إلى الناس والأشياء .
ونفس الانسان واسعة الأمل بعيدة أمد الرجاء ولا سيما حين يؤاتيا الحظ ،
ويقدّر لها الفوز ببعض ما تريد . وكانت نفس تُمعّ في أكبر الظن تؤمل
فتبعد في الأمل كما عملت فأبعدت في العمل . وكانت تتمنى لو أتيح لها أن
تطأ أمواج هذا البحر بهذا الجيش الذي وطئت به أكناف الأرض . ومن
يدري ! لعلها أن تظفر بزورق أو غير زورق من هذه الزوارق التي تعبر عليها
النجوم . ومن يدري ! لعلها أن تقطع طريق النجوم في السماء بعد أن قطعت
طريقها في البحر و بعد أن قطعت طريق ضوءها على الأرض . على أن نفس
تبع لم تكن تعرف اليأس وإن كانت تعرف الإرجاء . فلم ييأس تبع من غزو
النجوم في عُمر دارها ، وإنما أرجأ ذلك إلى أن يتخذ له العدة ويهيئ له
الوسيلة ، ويمدّ له الأسباب .

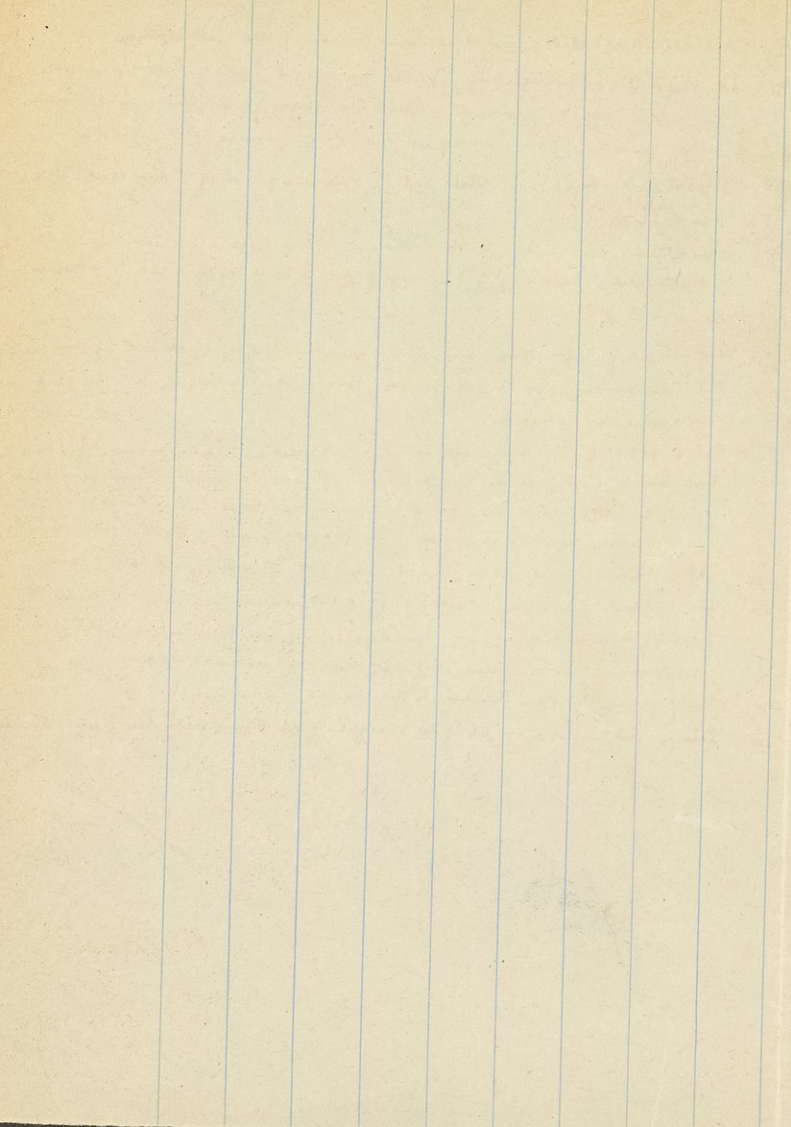
عاد إذا تبع سعيداً يرافقه الظفر والأمل . حتى إذا كان قريباً من النين
وقف عنده هذه المدينة الصغيرة التي كانت تسمى « يثرب » والتي ملكها لأول
عهده بالخروج ، والتي ترك فيها أحد أبنائه يشرف منها على بلاد العرب .

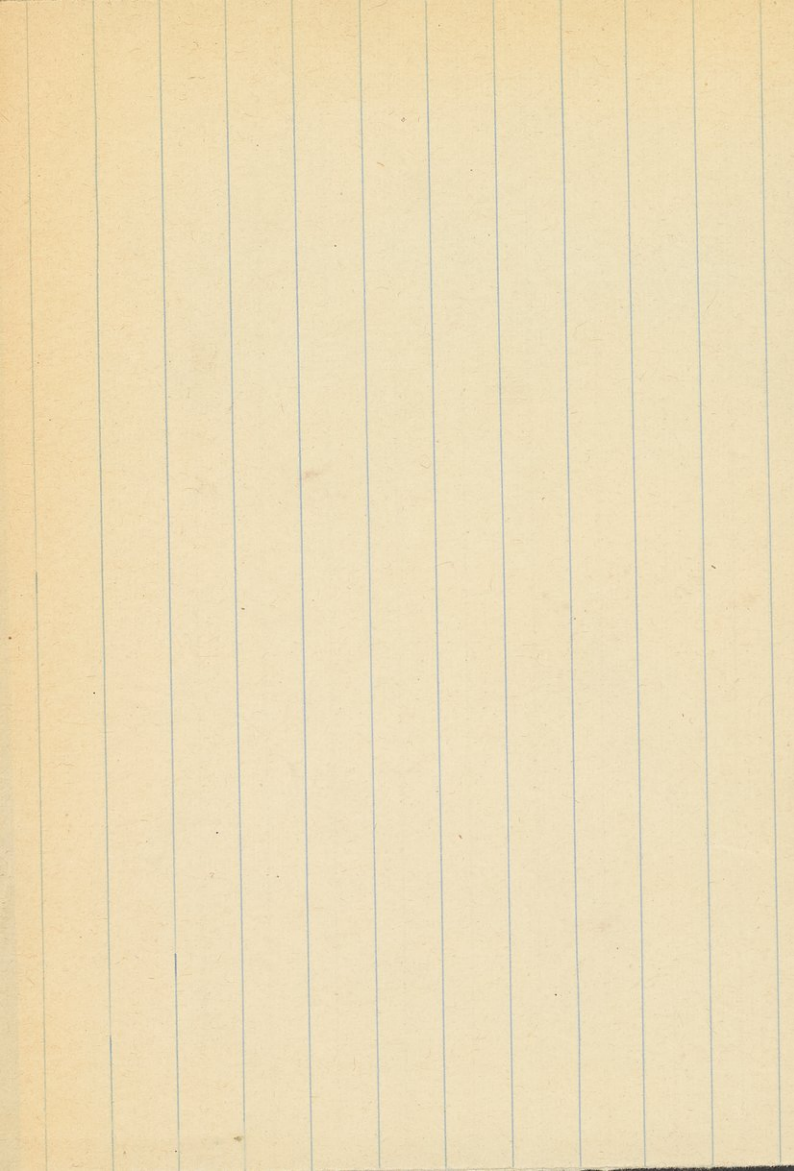
أنكر شيئاً لم يكن يقدره ولا يفكر فيه . لم يخرج ابنه للقائه من بعيد ، ولم يخرج للقائه من قريب . ولم ير من حوله استبشاراً بمقدمه ولا إكباراً لمنزله ، وإنما رأى حصوناً مغلقة وأطاماً قام عليها الجند كأنهم يتأهبون للقتال . لم يحتج تبع إلى بحث واستقصاء ليعلم أن القوم قد غدروا ومكروا ، وقتلوا ابنه غيلةً وأبوا أن يتسلط عليهم أحد غيره أو أن يسود فيهم من ليس منهم . وهم الآن يستعدون للحرب ويتأهبون للدفاع عن أنفسهم مستميتين في ذلك ، مزدريين ما سيلقون من جهد ، وما سينزل بهم من بلاء .

ولم يكن من اليسير على تبع أن يتبين العواطف التي كانت تثور في نفسه والخواطر التي كانت تزدهم في قلبه . فقد كان محزوناً أشد الحزن ملتاعاً أشد اللوعة لفقد ابنه العزيز الذي كان يراه زينةً لملكه ، وذخراً لدولته ، وقرّة عينه قبل كل شيء . وقد كان مغضباً أشد الغضب مُحفظاً أشد الحفيظة أن يثور به هؤلاء النفّر من الأوس والخزرج فيخرجوا عن طاعته ويجهروا بمعصيته ، ويقتلوا ابنه ، ويضربوا للأحياء من حولهم مثل التمرّد والثورة . وكان على هذا كله مُعجباً بهذا النفّر من الأوس والخزرج الذين لم يخافوه ولم يخشوا بأسه ، ولم يمنعهم بطشه العظيم وسلطانة العريض أن يثوروا به ويخرجوا عليه ، ولم يدفعهم مقدّمه ومعه الظفر والأمل ومن ورائه هذا الجيش الضخم المنتصر ، إلى أن يسرعوا فيقدّموا له الطاعة والمعدرة ويلتمسوا عنده العفو والمغفرة . وإنما ثبتوا له كراماً وتلقّوه أبةً للضم ، حُماةً للحرّم مستعدين لاحتمال المكروه .

'Ala Hammish at Sura

- I. 'Abd al-Muttalib and the incitation of the Whispers.
- II. He digs in the cemetery of Sura the gold which makes trouble with his wife & Amsar. Then he finds Zamzum which makes more trouble. His journey in desert & miracle of the water.
- III. Death of Sura's son Shee grief. Redemption of 'Abdallah for 100 camels.
- IV. 'Abdallah's marriage with Umima. His father decides he must go with next caravan. Fatima of the Khath'am tries to allure him but fails.
- V. Departure of 'Abdallah with the caravan after farewelling his people. Umima realizes she is pregnant. Death of 'Abdallah at Yathrib as the caravan returns.
- VI. The Tubba' of Thimyar going north to take blood revenge for his son meets his Jewish Rabbi who persuades him to higher religion cause him to visit the Ka'ba which he covers with Kiswah & accompanying him to Yathrib. His people want to turn him out, but by a miracle the idols are burned & Jewish religion spread.
- VII. The Tubba' dies & the Rabbi tries to persuade his son Hammad to follow in his ways. He, however, prepares for war but is killed by his brother 'Uzza who in turn dies a violent death.
- VIII. The coming of Uthai Nawas to the House.
- IX. Kinan disturbed by sight of the slaughter of the Kinan seeks his friend Nizal.





على أنه لم يُطل الوقوف عندهذا الإعجاب بالأوس والخزرج ، والإكبار لحفاظهم وذودهم عن الذمار . وإنما مضى يتبعه حزنه وغضبه ، فأقسم ليُدرن يثرب تدميراً ، وليُسوين حصونها وآطامها بالأرض هدماً وتحريقاً ، وليجعلن ما كان يحيط بها من الحدائق والرياحين ومن الشجر والنخيل صحراء جرداء كأن لم تعرف من قبل خضرة ولا ظلاً . ولم يرد أن يستأنى بذلك أو يبطل فيه ، فما هي إلا أن يأمر كتابه بالزحف مقدراً أن الأمر لن يحتاج إلى وقت ولا إلى جهد ولن يكلف جيشه الظافر مشقة ولا عناء . وأين يقع هؤلاء النفر من الأوس والخزرج من دول عظيمة أفناها وبلاد عريضة احتواها . وأين يقع قادتهم وسادتهم من هؤلاء الملوك الذين يرسفون في السلاسل والأغلال ، وقد جاء بهم أسرى من أقصى الشرق ومن أقصى الغرب ، ليجعلهم ملهى لأهل صنعاء حين يعود إلى صنعاء .

ولكن كتابه لم تكد تتقدم حتى تأخرت ، ولم تكد تهجم حتى ارتدت ، وإذا هؤلاء النفر من الأوس والخزرج أشد مضاء وأحسن بلاء مما كان يظن ومن كل من لقي في فتحة البعيد من الجيوش والأجيال . لقد كان استهان أمرهم واستصغره ، لأنهم لم ينصبوا له الحرب حين مر بهم غازياً ، وإنما تلقوه مدعين له مؤمنين لسلطانته . رأوا فيه رجلاً منهم فلم يذكروا به ولم يكيدوا له . حتى إذا رأوا من بغى ابنه وتجرئه ما أحفظهم ثاروا للعزة وغضبوا للكرامة وقتلوا الطاغية وتأهبوا لحرب أبيه .

رأى تبع هذا فازداد بالقوم إعجاباً ولهم إكباراً ، ونصب لهم حرباً ثلاثاً

هذا الإعجاب والاكبار . ولكنه لم يلبث أن اشتد إعجابه وعظم إكباره حين أقبل الليل فإذا هو لم يبلغ من القوم شيئاً ، وإذا هم يعلنون إليه أن قد أقبل الليل ، وأن حرب الليل ويل كل الويل وأنهم يضيفون عدوهم في الليل ويقاتلون عدوهم في النهار . هنالك لم يتمالك تبع أن عطفته الرحم على قومه ، وأخذته الكبرياء بما فيهم من عزة وكرم ، وصاح : « ان قومنا لكرام » . ثم أمر من أذن في الجيش بالموادعة حتى يُشرق الصبح .

واتصلت الحرب طويلة مفضية بينه وبين هذا الحى من أهل يثرب : يقتتلون أشد القتال ما أضاءت الشمس ، ويتوادعون أحسن الموادعة ما أظلم الليل . حتى أخذ السأم يسعى إلى هذه النفس التي لا تعرف السأم ، وحتى همّ أن يستقبل الصباح بغارة مطبقة لا تبقى ولا تذر ، فإما قهر القوم ، وإما قهره القوم .

وهو في هذا النحو من التفكير والتقدير ، وإذا حاجب من حجابيه يدخل عليه فيلثم الأرض بين يديه وينبئه أن شيخين من هذا الحى المحالف للأوس والخزرج من يهود يستأذنان على الملك ويلحّان في لقائه ويتقدّمان بما يتقدم به السفراء من حق الأمن والعافية والتكرمة ، فيأمر الملك بادخالهما . فإذا كانا بين يديه لم يركعا ، ولم يسجدا ، ولم يلثما أرضاً ، ولم يعفرا خدّاً بالتراب ، وإنما هي تحية فيها الاكبار والاحلال ، وفيها عزة وأنفة ، وفيها شيء من التواضع والخشوع لم يألفها الملك من أهل هذه البلاد . فإذا أذن لها بالجلوس

وسألها عما أقبلنا به قال أحدهما : أيها الملك لم نأتك سفيرين ولم نحمل إليك رسالة من عدوك ، ولو قد عرفوا إنا نسعى إليك لحالوا بيننا وبين ذلك وللقينا منهم شراً . قال : فانتما إذاً لاجئان إلى كارهان للقوم . وحدّث نفسه بأنه سيجد عندهما ما يعينه على ما يريد بالقوم ومدينتهم . قال : كلا أيها الملك ! ما لجأنا إليك ولا كرهنا من قومنا شيئاً ، إنما أقبلنا نأحين لك ، رفيقين بك نريد لو سمعت لنا أن نهاك عن هذه الحرب التي لن تجدى عليك شيئاً ولن تُبلغك من هؤلاء الناس شيئاً . لقد أدركت وتَرَك بمن سقط في ميدان القتال من هؤلاء الناس ، فحَسْبُكَ ما بلغت وانصرف راشداً . فانك إن نصبت الحرب لهذا الحى ما بقى من عمرك ، وهو طويل ممدود لك فيه ، لم تجد إلى قهرهم سبيلاً . ولقد أبلت فأحسن البلاء ، ولقد غزت فأمعنت في الغزو ، ولقد أزلت الممالك وأسرت الملوك ، ولقد نصبت لأقوى دول الأرض وأعظمها بأساً فلم تثبت لك ولم تمتنع عليك . ثم ها أنت ذا أمام هذه المدينة الصغيرة وهؤلاء النفر القليلين من قومك لا يتاح لك الظفر ولا يتأى لك الانتصار ، ألم يكن لك في هذا عبرة تدعوك إلى التفكير وتحملك على أن تسأل نفسك كيف دانت لك الأرض كلها وامتنعت عليك منها هذه الرقعة الضيقة ! . قال : لقد سألت نفسي وأطلت السؤال ، ولكنى لم أجده جواباً . ولقد فرحت بكما حين علمت أنكما لا تحملان إلى سفارة ولا رسالة ، وقدرت أنكما ستدلاننى على مكان يؤتى منه هؤلاء الناس . قال : لو شاء الله لأتى هؤلاء الناس من كل مكان ، فليست حصونهم ولا أطامهم بالمنيعه المؤشبة ، وليست

السبيل إليهم بالعسيرة ولا الملتوية ، ولكن الله لا يشاء لأمر قضاء . قال الملك : أفصحاً ، فإني لا أفهم عنكما منذ اليوم . فما الله؟ وأين يكون؟ وكيف له أن يشاء ولا يشاء؟ هل لكما في أن تدلاني عليه لعلني آخذ إليه من الأسباب ما يرضيه أو يسلطني عليه ! فتضاحك الحبران وقالا : حقاً أيها الملك إنك لا تفهم عنا منذ اليوم ، فليس الله ملكاً كالملوك ، ولا قائداً كالقادة ، ولا عظيماً كالعظماء . وما ينبغي لك ولا لغيرك من الناس أن تسأله عما يشاء أو عما لا يشاء ، إنما ينبغي لك ولغيرك من الناس أن تعرف سلطانه وعظمته ثم تدع له وتؤمن به وترضى بما يريد لا مجادلاً ولا ممانعاً . قال : فمن هو؟ وأين هو؟ قالوا : هو رب السموات والأرض ، وهو الذي يتسلط على كل شيء ولا يتسلط عليه شيء ، وهو الذي يخلق كل شيء ، وهو الذي منحك هذا الملك الواسع والسلطان العريض ، وهو الذي إن شاء ردك كواحد من رعيتك ، وهو الذي إن شاء سلبك ما أنت فيه وسلبك الحياة أيضاً . أرايت إلى ما حوالك كيف كان ومن أحدثه؟ . قال : هذا شيء قلما فكرت فيه أو سألت عنه ، وإنه مع ذلك خليق بالتفكير حريٌّ بالسؤال . فمن يكون قد خلق الأشياء ، وقدّر لها نظامها؟ . قالوا : فاسمع أيها الملك فإنا سنقرأ عليك نبأ الخلق كيف كان ، وأمر الخلق إلآم يصير . ثم قرأ عليه صحفاً من التوراة لم يكن يسمعها ويقتفه بعض ما فيها حتى لأن قلبه وانبسطت نفسه وكشّف عنه الغطاء ، فقال : يا هذان إن ما تقولان لحق ، فعلماني علمكما ومُراني قبل ذلك بما أصنع مع قومكما . قالوا : أمّا قومنا فالرأى أن تدعهم ، فإن الله لم يقدر لك

أَنْ تَقْهَرَهُمْ وَلَا أَنْ تَمْلِكَ أَرْضَهُمْ ، إِنَّمَا ادَّخَرَهُمْ وَادَّخَرْنَا لَهُمْ لُشَىءَ سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ نَجْدُهُ عِنْدَنَا مَكْتُوبًا فِي هَذِهِ الْأَسْفَارِ الَّتِي تَتْلُوهَا عَلَيْكَ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَا : نَبِيٌّ يُخْرِجُ مِنْ هَذَا الصُّوبِ وَأَشَارَا نَحْمُوكَةَ فِيمَا كُرَّ بِهِ قَوْمُهُ وَيَأْبُونَ عَلَيْهِ وَيَكِيدُونَ لَهُ وَيُخْرِجُونَهُ مِنَ الْأَرْضِ فَيَأْوِي إِلَى هَذَا الْبَلَدِ ، فَيَجِدُ النَّصْرَ وَالْمَنْعَ ، وَيَجِدُ الْعِزَّةَ وَالْقُوَّةَ ، وَيُنْشِرُ دِينَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَطَامِ فَيَمْلَأُ بِهِ الْأَرْضَ كُلَّهَا ، وَيُخْرِجُ بِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُيَسِّكَكَ مِنْ أَرْضٍ أَعَدَّهَا دَارًا لِنَبِيِّهِ وَمُهَيْطًا لَوَحْيِهِ وَمَصْدَرًا لِنُورِهِ الْمُبِينِ . قَالَ : أَوْتَجِدَانِ هَذَا عِنْدَكَ مَكْتُوبًا ؟ . قَالَا : نَعَمْ ، وَنَجِدُ عِنْدَنَا مَكْتُوبًا أَنْكَ سَتَسْمَعُ لَنَا وَتَقْبَلُ نَصَحَنَا لَكَ وَتَنْصَرِفَ عَنْ هَذَا الْحَيِّ ، وَأَنْ قَوْمًا مِنْ هَذِيلٍ سَيَلْقَوْنَكَ إِذَا قَرُبْتَ مِنْ مَخْرَجِ هَذَا النَّبِيِّ فَيَغْرُونَكَ بِهِ وَبَيْتَ اللَّهِ فِيهِ ، وَسَيَزْعُمُونَ لَكَ أَنَّ فِي هَذَا الْبَيْتِ كَنْزًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمِنَ الدَّرِّ وَالْجَوْهَرِ . فَاحْذَرِ أَنْ تَسْمَحَ لَهُمْ أَوْ تَأْتِيَ مَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ . وَلَكِنْ اذْهَبْ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ فَأَكْرِمْهُ وَعَظِّمْهُ وَطَفِّ بِهِ سَبْعًا ، وَامْنَحْ أَهْلَهُ مِنَ الْعُطْفِ وَالْبَرِّ وَالرَّعَايَةِ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ . قَالَ : يَا هَذَانِ إِنِّي مُصَدِّقٌ لَكُمَا مَوْمِنٌ بِمَا تَقُولَانِ سَامِعٌ لِمَا تَأْمُرَانِ بِهِ . وَلَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْصَرِفَ إِذَا لَمْ تَصْحَبَانِي ، فَامْلِي مِنْ صَحْبَتِكُمَا بَدْنًا ، وَلَا بَدَنًا مِنْ أَنْ أَعْلَمَ عِلْمَكُمَا كُلَّهُ ، وَلَا بَدَنًا مِنْ أَنْ أَتَّخِذَ كَمَا لِي وَزِيرِينَ أَسْتَنْصِحَكُمَا وَأَسْتَعِينُ بِرَأْيِكُمَا وَفَقْهَكُمَا عَلَى مَا يَعْزِضُ لِي مِنَ الْأَمْرِ . قَالَا : لَكَ مَا تَحِبُّ مِنْ ذَلِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَسِرْ رَاشِدًا فَنَحْنُ مَعَكَ .

وَأَمَرَ الْمَلِكُ مَنْ أَدْنَى فِي الْجَيْشِ بِأَنَّهُ مَرْتَحِلٌ مَعَ الْفَجْرِ . وَارْتَحَلَ الْجُنْدُ

غير آسفين ولا محزونين . وأيهم لم تكن تضيق نفسه بهذا الحصار الطويل العقيم والدار قريية وهو إلى أهله مشوق ! ، فلما قارب الملك مكة أقبل جماعة من هذيل يستأذنون . فلما أذن لهم قالوا : أيها الملك إنمأسى بنا إليك نصحنالك وإيثارنا لرضاك . قال الملك في نفسه : فهذه نبوة الخبرين قد صدقت . ثم أصغى إلى الهذليين ، فقالوا : وستم بمكة وفيها بيت يعظمه أهلها يعبدون ما ادخروا فيه من مال وما كنزوا فيه من ذهب وفضة ومن درّ وجوهر ، يطوفون حوله وينحرون له وقد نصبوا عليه الأوثان . قال الملك : فماذا تأمرون ؟ قالوا : ما نحب أن يفلت منك هذا الكنز ، فلو قد هدمته واحتويت ما فيه وأخذت أهله عبيدا لك ولأهل صنعاء ! . قال الملك في نفسه : الآن قد تمت نبوة الخبرين . ثم قال للهذليين : لقد قبلت نصحكم وسمعت أمركم ، وإنى ماض فيما تريدون ، وسأعرف لكم حكم علىّ ، ولكنى أريد أن تقدّموا معى على أهل مكة فتكونوا أول من يعمل في هدم هذا البيت .

فلم يكدهذليون يسمعون منه هذا القول حتى أخذوا وظهر على وجوههم الفزع والروع . فلما ألع الملك أظهرها من التلكؤ والتردد ما لم يدع للريب فى أمرهم سبيلا . فأمر الملك بتعذيبهم حتى يعترفوا بالحق . فلما ألع عليهم العذاب قالوا : أيها الملك ما أردنا بك إلا شرّا ، إنا لنكبر هذا البيت ونعظمه ونرى له علينا حرمة ، ونعلم أن أحدا لم يحاول أن يمسّه بسوء إلا أهلكه الله . وقد وترّتنا فى مخرجك الأول فقتلت الرجال وسقت المال وسبيت الحرائر وأذلت هذيلًا ولم تكن قد عرفت الذل . فلما أعجزنا أن نثار لأنفسنا بأيدينا أردنا

أَنْ نَكِلْ ثَارَنَا إِلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْكَ وَمَنَا، فَأَغْرَيْنَاكَ بِهَذَا الْبَيْتِ وَاتَّقِينَ بَأْنَ
صَاحِبِهِ لَنْ يُحْلِيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَلَنْ يَمْهَلَكَ إِنْ حَاوَلْتَ الْإِعْتِدَاءَ عَلَيْهِ. قَالَ
الْمَلِكُ: إِنَّمَا جَزَاؤُكُمْ عَلَى هَذَا الْكَيْدِ أَنْ تَقْطَعَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ،
وَلَكِنِّي قَدْ قَسَوْتُ عَلَيْكُمْ فِي خَرْجِي الْأَوَّلِيِّ وَأَسْرَفْتُ فِيكُمْ قَتْلًا وَسِيًّا،
فَسَاهِبْكُمْ الْآنَ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَهْلِكُمْ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ عَفْوِي عَنْكُمْ كَفَّارَةً
لِمَا قَدَّمْتُ فِيكُمْ مِنْ سُوءٍ، فَاذْهَبُوا فَأَنْتُمْ أَحْرَارٌ.

قَالَ الْحَبْرَانُ لِلْمَلِكِ: لَقَدْ أَحْسَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حِينَ وَضَعْتَ الْعَفْوَ
عِنْدَ الْقُدْرَةِ مَوْضِعَ الْبَأْسِ وَالْإِنْتِقَامِ. وَمَا نَشْكُ فِي أَنَّكَ تَجِدُ لِهَذَا الْعَفْوِ لَذَةً
وَرَاحَةً. وَلَكِنْ لَذَتُكَ وَرَاحَتُكَ لَنْ تَعْدِلَ مَا نَجِدُ مِنْ غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ، وَقَدْ
أَخَذَ دِينُ اللَّهِ سَبِيلَهُ إِلَى نَفْسِكَ وَبَسَطَ سُلْطَانَهُ عَلَى قَلْبِكَ، فَأَنْزَلَ فِيهِ الْبَلَاءَ
مِنْزِلَ الْقِسْوَةِ، وَالرَّحْمَةَ مَكَانَ الْعَنْفِ وَالشَّدَةِ، وَكُنَّا نَحْنُ وَسِيلَتَهُ إِلَى ذَلِكَ.
وَإِنَّا لَنَرِجُو أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَنَا بِهَذَا السَّعْيِ بَعْضَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ سَيِّئَةٍ فِي حَيَاتِنَا.
قَالَ الْمَلِكُ: أَوْ مِثْلَ مَا يَقْدَمُ السَّيِّئَاتِ أَوْ يَقْتَرِفُ الْآثَامَ وَمَا رَأَيْتُ خَيْرًا مِنْكُمْ
وَلَا أَهْدَى إِلَى الْحَقِّ؟! قَالَ الْحَبْرَانُ: أَمَعْنُ أَيُّهَا الْمَلِكُ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ
وَتَدَبُّرِهَا، وَأَنْعَمَ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّظَرَ فِيمَا حَوْلَكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَفِيمَنْ حَوْلَكَ مِنَ
النَّاسِ، فَسَتَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ صَغِيرَ مَهْمَا يَكْبُرُ، ضَيْلَ مَهْمَا يَعْظُمُ، ضَعِيفَ مَهْمَا
يَقْوَى، مَعْرَضَ لِلْخَطِيئَةِ مَهْمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ وَمَهْمَا يَأْخُذُهَا بِالْمَعْرُوفِ وَيُجَنِّبُهَا
الْمُنْكَرَ. قَالَ الْمَلِكُ وَقَدْ كَبَّرَ الْحَبْرَانُ فِي نَفْسِهِ: لَيْتَنِي عَرَفْتُكُمْ فِي أَوَّلِ الْعُمُرِ
وَمُبْتَدَأِ الْحَيَاةِ، إِذَا لَا جُنُبْتُ كَثِيرًا مِنَ الشَّرِّ وَلَتُنْكَبْتُ كَثِيرًا مِنَ الذَّنْبِ.

ولكنى سأكون عند ماتحبان، ولن ترياً منى منذ اليوم إلا ما يُرضيكما .
وأقبل الملك على مكة فدخلها خاشعاً منياً ، وطاف بالبيت وأعظم أمره ونحر
للناس وأطعمهم وأذاع فيهم الخير والمعروف . فلما كان من الغد قال للحبرين :
إني أريت أنى أ كسو هذا البيت . قالوا : فافعل ما أمرت . فكساه خَصَفاً^(١) .
ومضى يعظم البيت ويكرم أهله بياض يومه . فلما أصبح قال للحبرين : إني
أريت كأن هذه الكسوة لا تليق بهذا البيت . قالوا : فاكسوهِ خيراً منها .
فكساه وشياً ، وأمضى نهاره يعظم البيت ويجزل المعروف بأهله . فلما أصبح
قال للحبرين : إني أريت كأن هذه الكسوة لا تُرضى الله . قالوا : فاجتهد فى
إرضائه ما وسعك الاجتهاد . فكساه حريراً وديباجاً ، وزينه بالذهب
والفضة والجوهر ، وفرق العطايا بين الناس . ثم أصبح فقال للحبرين : لم أر
الليلة شيئاً . قالوا : فقد رضى إذاً رب البيت .

وارتحل الملك بعد ذلك إلى اليمن وقد سبقته إليها الأنباء بأنه قد ظفر
ظفراً لم يظفره ملك من قبله ، وسبقته إليها الأنباء بأنه قد صَبَأَ عن دينه وترك
عبادة الآلهة التى كان يعظمها ويسعى لها . وكان أهل اليمن قد تأهبوا للقاءه
فى حفْلٍ حافل وزينةٍ بارعة بالغة . فلما انتهت إليهم الأنباء بأنه قد صَبَأَ^(٢)
تنكروا له وأبوا إلا أن ينصبوا له الحرب وأن يصدوا عن بلادهم ، ويردوا
عن حمير شرّاً هذا الدين الجديد الذى جاءهم به من يثرب .

فلما بلغ الملك أطراف اليمن لقيته طلائع الأقيال^(٣) والأذواء منكراً له

(١) الخصف : سفائف تسف من سعف النخل . (٢) صبأ : خرج

من دينه . (٣) الأقيال : ملوك حمير . والأذواء : ملوك اليمن

مُزَوَّرَةٌ عَلَيْهِ . وقال قادتهم : لقد فارقنا وأنت أברأهل الين بالين ، وأحب
خَيْرَ لآلهة حمير ، وها أنت ذا تعود إلينا وقد آمنت لإله لا نعرفه ووجدت
آلهتنا ، وقد استوزرت غريبين من عدونا تسمع لهما وتطيع ، وأعرضت عن
رأى الأشراف والقادة من الأقيال والأدواء ، فلن نخلي بينك وبين هذه
البلاد التي أنكرت أهلها ووجدت آلهتها . فارجع أدراجك فاتخذ لك
ملكاً حول هذا البيت الذي لم يرضك أن تكسوه الوشى حتى كسوته الحرير
والديباج ، أو اتخذ لك ملكاً في يثرب حيث دم ابنك ينتظر من يثأر له وحيث
صدى^(١) ابنك يدعو من يسقيه . قال الملك : يا قوم لا تعجلوا ولا تسرفوا على
أنفسكم ، ولكن اسمعوا لى واسمعوا لهذين الخبرين ، فلو قد علمتم ما نعلم ورأيتم
ما نرى لسلكتم سبيلنا ، ولقبتم ديننا ، ولآمنتُم بإلهنا الذى خلق السموات
والأرض ، وآمن له من فيها من الإنس والجن ومن الحيوان والطير ومن الماء
والهواء ومن الزهر والشجر . قالوا : ما نريد أن نسمع لك ولا لهما فانصرفوا
عنا . قال الخبران للملك : فما يمنعك أن تدعوهم إلى ما يتدعون إليه إذا شجر
بينهم خلاف أو كانت بينهم فرقة ؟ . قال الملك : أو تعلمان هذا أيضاً ؟ قالوا : نعم ،
أليسوا يختصمون إلى النار إذا اختلفوا ! فخاصمهم إليها . قال الملك : يا قوم هذان
الخبران يدعوانكم إلى الإيصال ويأخذانكم بالعدل . إنكم لتختصمون فيما
بينكم فتحتكمون إلى ناركم تلك المقدسة التي تخرج من أعماق الغار لها زفير

(١) كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذى لم يدرك بثأره تصير صدى -
ويدعى الهامة أيضاً - فيزقو عند قبره يقول : اسقوني اسقوني حتى يدرك بثأره .

وشقيق وقد ارتفع لهما في السماء ، فلا يكاد يراها الظالم حتى يصعق ، ولا يكاد يراها المظلوم حتى يحسّ المنعة والقوة . هلمّ فلنحتكم إليها ، فأينا استطاع أن يثبت لها ويصبر على حرّها فهو صاحب الأمر ، وأينا فزع منها وفرّ من أوارها فهو الظالم المعتدى . فأدار القوم أمرهم بينهم ساعة وقال بعضهم لبعض : لقد دعاكم الملك إلى الانصاف ، وما ينبغي أن نأبى على ملكنا ما لا يأباه أحد منا على صاحبه وما لا تأباه ملوك اليمن على سُوقتها ، فتعالوا نجبه إلى ما يدعوننا إليه ، وتعالوا نخاصمه إلى النار .

ثم أجمعوا أمرهم ليختصمّن إلى النار إذا كان الغد وليقبّلن كل فريق ومعه حجّته وسلطانه . وما أشرقت شمس الغد حتى كان أقيال حمير وأذواؤها قد أقبلوا في عددهم وعُدّتهم وفي حفّلتهم وزينتهم يحملون أوثانهم وأصنامهم . وأقبل الملك ومعه الخبران قد تقلّدا مصاحف التوراة . وكانت نارهم المقدّسة لا ترى ولا تحسّ من بعيد ، وإنما تجيب إذا دُعيت وتخرج إذا نوديت . فلما دنوا من الغار الذي كانت تقيم فيه دعوا وأطالوا الدعاء ، ونادوا وألحوا في النداء . وإنهم لفي دعائهم وندائهم وإذا دخانٌ كثيف ضيق يخرج من الغار كأنه السهم فلا يبلغ الهواء حتى يمتدّ طولاً ويتّسع عرضاً وحتى يملأ الجو كثيفاً ثقيلاً قد حجب الشمس وكاد يأخذ أنفاس الناس . وما يزال الدخان يخرج من الغار ثم يمتدّ في الجو وينتشر وحمير تتقهقر كلما ألح عليها . والملك والخبران قد ثبتوا في مكانهم لا يجدون ألماً ولا يلقون ضرّاً . حتى أخذ صوت يسمع كأنه فحيح الحيات . ثم أخذ هذا الصوت يعظم كلما دنوا من فوهة الغار ،

وإذا زفير وشهيق، ثم لهب يندلع من الغار ولا يلبث أن يحيط بكل شيء،
ويلتهم كل شيء، وحمير جادة في الهرب قد تركت أثانها وأصنامها وتخفت
من زينتها وسلاحها والنار تتبعهم ملحّة في اتباعهم ساعة من نهار. ثم أخذت
النار تتراجع شيئاً فشيئاً حتى دنت من فم الغار، وإذا هي تقصّر وتضيق
وتتضاءل حتى كأنها لسان الغار. ثم لا تلبث أن تختفي كأن الغار قد أطبق عليها
شفتيه، وإذا الشمس مشرقة والجو صفو والملك والحبران قائمون في مكانهم
لم يصبهم أذى ولم يمسسهم ضر ولم تتغير نضرة وجوههم، ولم يفارق ثغورهم
الابتسام. وتثوب حمير إلى ملكها بسرعة مدعنة وقد افتقدت آهتها
وسلاحها وزينتها فلم تجد شيئاً قط، لأن النار التهمت كل شيء.
هنالك هادت حمير وأمنت للملك والحبرين. ومنذ ذلك اليوم استقر
في بلاد اليمن كتاب من كتب السماء.



الردة

عاش تبع ما شاء الله له أن يعيش ، ومات تبع حين قضى الله عليه الموت .
 وكان قد أنفق حياته منذ عاد إلى اليمن في صلاح ونسك ، وتفقّه للتوراة
 ونشر الدين . فلما فارق هذه الدنيا نهض بملك حمير من بعده أكبر أبنائه
 حسان . وكان تقياً ، وكان ورعاً ، وكان دياناً . وكان قد ورث عن أبيه وعن
 أجداده حباً للغزو وكلفاً بالفتوح . وكان الناس يتنبئون قبل تهوّد أبيه بأنه
 سيكون أبعد ملوك اليمن أثراً في الغزو والفتح وأعظمهم بسطة في الملك
 والسلطان . فلما هاد تبع اقتنى حسان أثره ، فظهر عليه حب للنسك وانقطاع
 للعبادة ورغبة في الفقه بالدين خدع الناس عنها وغير رأيهم فيه . حتى إذا
 نهض بأمور الملك لم يشك أصحابه في أن اليمن ستنفق أياماً هادئة وادعة تنعم
 فيها بالأمن والسلم واللين . ولكن الميل القديم الذي كان يجده حسان إلى
 الحرب والتسلط ، والميل الجديد الذي كان يجده إلى الفقه والدين لم يلبث أن
 التقيا وامتزجا ، وأصبحا ميلاً واحداً يوفق بين هاتين النزعتين المختلفتين أشد
 الاختلاف . وأصبح حسان ذات يوم ماضى العزم شديد البأس عظيم النشاط ،
 فلم يكده يخرج للناس حتى دعا إليه الخبرين ، وكان لها معظماً يستشيرهما في
 كل ما يأتي من الأمر . فلما أدخل عليه قام لهما وأدنى مكانهما ، ثم قال : قد
 علمتا أني أعظم من أمركما ما كان يعظم أبي ، وأشاوركما في كل ما أنشط له

من هم قريب أو بعيد. وقد جعلت منذ أيام أسمع داعياً قوياً ملحاً لا يفارقني يقظان ولا يفصل عني نائم ، وهو يهيب بي في كل لحظة أن جرّد نفسك وجيشك لجهاد الكافرين ونشر الدعوة إلى الدين حتى يؤمن بكتاب الله أهل الشرق والغرب وحتى يدعن لسلطان الله كل جيل في الأرض ، وحتى يصبح حكم التوراة حكم الناس جميعاً . وقد أنكرت دعوة هذا الداعي أوّل الأمر فلم يزد إلا انكاراً إلا إلحاحاً في الدعاء . وأبّيت عليه بعد ذلك فلم يزد إلا إصراراً على ما كان يدعوني إليه . وإني لا أحدث إليكما الآن وصوته الملح الحازم يملأ سمعي وقلبي وعقلي ، ويكاد يليني عنكما ويصرفني عما أريد أن أقول لكما . وقد عزمت بعد طول التفكير أن أستجيب لهذا الداعي وأن أخرج بالجيش غازياً في سبيل الله ما يليني من الأرض . فان قضى الله لي بالنصر مضيت أمامي حتى يأذن الله لي بالوقوف . ثم سكت ينتظر جواب الخبرين وهو يقدّر أن كلامه قد وقع منهما موقع الرضا . ولكن عظم دهش حين سمعهما ينصحان له بالعود ويحان عليه في ألا يسمع لهذا الصوت ولا يستجيب لهذا الدعاء . وهما يقولان له : أيها الملك إياك والغرور الذي يصيب الملوك إذا عظم بأسهم واشتدت قوتهم ، ودانت لهم الأرض بمن فيها وما عليها ، فيغريهم بالحرب ويدفعهم إلى الفتح ويحبب إليهم العدوان . قال : أعدوان أن أنشر دين الله وأخذ الناس بالإذعان له والايان به وأذود عنهم شر الأوثان وأطهرهم من رجس الشيطان !! . قد دعوتكما وما أنتظر منكما إلا حشاً لي على أن أمضي فيما عزمت عليه ، فإذا أنتم تصدّاني وتحذلاني وتوثران لي

حياة الجمول والجمود والتقصير . قالوا : فإننا نخشى أن يكون هذا الصوت الذى يدعوك ويلح عليك صوت الغرور والكبرياء لا صوت الطاعة والتقوى ، وأن يكون هذا الحديث الذى يلقيه فى رُوعك تزيينا لما ورثت عن آبائك من حب الغلب وبسط السلطان يدفعك إلى الحرب باسم الدين ، ويصور لك الفتح فى صورة الدعوة إلى الله . ونحن نجد فيما عندنا من العلم أن هذا الدين لا ينشر ولا يذاع على هذا النحو الذى تريد أن تنحوه . ونجد مكتوبا عندنا فى الكتب أن الدين الذى سيسيطر سلطانه على الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، و يملؤها عزاً بعد أن ملئت ذلاً ، ويرد إلى الانسان حريته وكرامته ، ويرقى بنفسه إلى اسمى ما تطمح إليه من الكمال ، ويحقق الأخوة بين الناس ويلغى ما بينهم من الفروق ، لن يخرج من صنعاء ، وإنما سيهبط به الوحى فى آخر الزمان على رجل بمكة من قريش ، ثم يخرج من يثرب فيطبق أقطار الأرض . فاذا شئت أيها الملك فاسمع لنا وأعرض عن داعيك فانه لا يدعوك إلى خير . قال الملك : ما رأيت كالיום صدًا عن الحق ولا صرْفًا عن الواجب ولا تشييطاً للهمم . وهم أن يُعرض عن الحَبْرين ، ولكنهما قالالا له : فَكَّرَ أَيُّهَا الْمَلِكُ فَمَا أَنْتَ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ ، فَقَدْ أَدْخَلَ أَبُوكَ دِينَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ وَأَذَاعَهُ فِيهَا ، وَمَضَيْتِ أَنْتَ عَلَى سُنَّتِهِ دَهْرًا ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَنْبَغِي . فَمَا زَالَتْ فِي حَمِيرِ قُلُوبٍ لَمْ تَخْلُصْ لِهَذَا الدِّينِ . وَمَا زَالَتْ فِي أَعْمَاقِ الْيَمَنِ أَوْثَانٌ مَنْصُوبَةٌ تَهْفُو إِلَيْهَا قُلُوبُ قَوْمٍ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ اللَّهِ بَعْدُ . فَتَبَّتْ هَذَا الدِّينِ فِي بِلَادِكَ قَبْلَ أَنْ

تخرج به إلى غيرها من البلاد . فذلك آمن لك وأحرى ألا تؤخذ على غرة
وإلا ينتقض عليك قوم ليس لهم من الإيمان واليقين مثل مالك، أو يغدر بك
قوم ما تزال في نفوسهم بقية من حنين إلى دين آبائهم الأولين . قال الملك
مُعْرضاً عنهما : قد سمعت قولكما وسأُنظر فيه . ثم لم ينظر بعد ذلك إلا في
التهيؤ للحرب والاستعداد للرحيل . وانقطع الخبران عن الملك ولم يدعُهما
الملك إليه وأذن مؤذن الملك في الجيش بالرحيل . وفصل الملك عن صنعاء لم
يلق الخبرين ولم يودعهما . ومنى الملك أمامه في طريق سهلة وشعوب
سالم لا يلقي خوفاً ولا يتعرض لسكيد حتى بلغ البحرين .

فلما أحسن قادة الجيش من الأقبال والأذواء أن الأمد يبعد بينهم وبين
الين من يوم إلى يوم ، وأنهم مُشْرِفون على بلاد لم يألفوها ، وأنهم يدفعون
إلى حرب لا يفقهون غايتها كما كانوا يفقهون غايات الحرب من قبل ، وأنهم
سيضيق عليهم حين يظفرون فيما تحتوى أيديهم من سبي ومال ، ضاقوا بهذه
الرحلة وثقلت عليهم هذه الحرب . وطال عليهم عمر الملك ، فسعى بعضهم
إلى بعض وتحدث بعضهم إلى بعض ، وماهى إلا أن تجتمع كلمتهم على السكيد
الحسان والبعى عليه ، فيلقون أخاه عمراً . وكان خفيف الحلم سريعاً إلى اللهو
متعجلاً الملك . لم تخلص نفسه لهذا الدين الجديد ولم تطب عما كان لخير من
سنة موروثة وعادة مألوفة وتراث قديم . فلما أظهره على ما في أنفسهم وعاهدوه
على أن يملأ كوه إن قتل أخاه ، ولا يقتضوه على ذلك أجراً إلا أن يردهم إلى

بلادهم ويرفع عنهم ثقل هذه الحرب ، نشط لذلك وجدّ فيه . ولم يجد من خاصته وأصفيائه من يردّه عن ذلك أو يخوفه من شرّه إلا رجلاً واحداً من الأذواء يقال له ذورُ عَيْن . فان هذا الرجل خوَّفَ عمراً عاقبة البغي وحثّره من العدوان على الإخوان، وجدّ في صرّفه عن سفك دم أخيه : يذكّره بالرحيم حيناً ، وبشرف الملوك حيناً آخر ، وبجرمة الدين مرة ثالثة . ولكنه لا يجدمنه إلا إغراضاً يكاد يبلغ الغضب ويشير الريبة وسوء الظن . فلما آيس منه دفع إليه كتاباً مختوماً وقال له : احفظ لى عندك هذا الكتاب . ثم أتمّ عمرو كيده ، فأغمد النّصل في صدر أخيه وارتقى على جثته إلى العرش ، وأسرع بال جيش قافلاً إلى صنعاء معلناً إبطال ما كان أبوه وأخوه قد أقاما من معالم الدين الجديد مُزِعاً قتل الخبرين ، ولكنه لم يجدهما ، فقد هلكا بعد أن فصل الجيش من صنعاء .

ولم يستمتع عمرو بالملك ولا ذاق لذة السلطان ، فقد أخذ الحزنُ يلزمه منذ بلغ صنعاء لا يفارقه ما ابيضّ النهار ولا يفارقه ما اسودّ الليل . وأخذ هذا الحزن يشتد ويقسو ، وأخذ هذا الحزن يعظم ويطنّ ، حتى زاد عن نفس الملك كل راحة ، وردّ عن عين الملك كل نوم ، وأحاط شخص الملك بصور مروّعة مزعجة . فكان تارة يرى حيّات عظاماً ذوات رؤوس عدّة يخرج من أفواهها اللهب وهي تسرع إليه فاغرة أفواهها كأنما تريد أن تزدردّه ازدراداً . وكان يرى تارة أخرى أنهاراً من الدم قويّة عنيقة تنحدر ولها هدير وزئير كأنما تريد أن تأخذ عليه كل مكان وأن تلتهمه التهاماً . وكان

يرى تارة أخرى أشباحاً تدنو منه لتبعد عنه ثم ترتد إليه فتطيف به وتدور حوله وقد كسّرت عن أنياب حادة ، ومدت أطافر دامية ، كأنما تريد أن تنهسه^(١) نهساً وتمزقه تمزيقاً . وكان في أثناء هذا كله يسمع أنين أخيه ويرى الدم يتفجّر من صدره كما يتفجر الينبوع الضئيل القوى من الصخرة الصلبة الملساء . وأخذ الملك يستشير الأطباء فلا يجد عندهم دواء ، ويستعين الكهّان فلا يلتقي عندهم عوناً ، ويسأل العرافين فلا يظفر منهم بجواب مريح . وما زال فيما هو فيه من استشارة واستعانة وسؤال ، حتى أدخل عليه رجل حكيم من أقاصى الين ، وقصّ عليه الملك ما أتى من الأمر وصوّر له الملك ما يلقى من الشرّ . وألح عليه الملك في أن يجد له من هذا الضيق مخرجاً ومن هذا الأذى شفاء . وأطرق الرجل الحكيم غير قليل ثم قال في صوت حازم وقد ظهرت على وجهه صرامة الجد والبأس : أيها الملك لأنبئناك بالحق وإن كان من دونه الموت ، فما تعودت كذبا ولا مينا : إنه والله ما قتل رجل أخاه ولا غمس رجل يده في دم ذى رحم إلا سلّط عليه الحزن والغم ووكل به الفرق والأرق حتى يقضى . قال الملك : انصرف راشداً فلا بأس عليك ، إنما السبيل على هؤلاء الذين كادوا الكيد ومكروا مكرمهم السيئ بنى وبحسّان . ثم أمعن في خاصته ومشيريه قتلا وتمثيلا حتى انتهى إلى آخرهم ذى رعين . فلما قدّم هذا القيل للقتل قال للملك : إن لى عندك براءة . قال الملك : وما ذاك ؟ قال ذورعين : ذلك الكتاب

(١) النهس بالسين : كالنّش بالشين

الختوم الذى دفعته إليك . وأخرج الملك الكتاب وقرأ فيه هذين البيتين :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِ سَهْرًا بِنَوْمٍ سَعِيدٌ مَنْ يَبِيتَ قَرِيرَ عَيْنٍ

فَأَمَّا حَمِيرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ فَمُعَذْرَةُ الْإِلَهِ لَدَى رُعَيْنٍ

قال الملك : لا بأس عليك ! فقد نصحت وبرت وبرت ذمتك ، فليتني

قبلت نصحك واستمعت لدعائك . قال ذورعين : وليت أخاك قبل نصح

الحبرين . وأصبح القصر ذات يوم فاذا عمرو ملقى على الأرض مضرباً

بدمائه ، قد أغمد فى صدره ذلك النصل الذى أغمده فى صدر أخيه . هنالك

تفرق أمر حمير وانتقض سلطانها ، وعادت إلى شر ما عرفت فى قديم الزمان

من الفساد والاضطراب .





الطاغية

وكان عمرو قد أصهر إلى قَيْلٍ من أقيال اليمن يقال له ذو الشناتر فظَّ غليظ القلب جافى الطبع ، سيِّء الخلق مدخول الضمير . على أن خصاله هذه لم تنكد تبدو منه للناس حين كان قِيلاً من الأقيال لا ينبسط سلطانه إلا على الخلاف الذي كان يعيش فيه . فقد كان ماهراً عظيم المهاراة ، مداوراً شديد المداورة، يلقى الرجل فيخدعه عن نفسه ويخيّل إليه أنه أكرم الناس وأصدق الناس وأرحم الناس وأوفاهم وأشدّهم استقامة واعتدال مزاج . لذلك انخدع فيه أقرانه من الأقيال والأذواء ، وحسن فيه رأى تُبَعَّ حتى قدّمه وعظّمه واختار ابنته تَمَاضِرَ زوجاً لابنه عمرو . وكانت تَمَاضِرُ بارعة الجمال ذكية القلب رضية النفس شديدة الحنان . أنكرت من زوجها الغدر ، ولكنها لم تجرؤ على أن تباديه بهذا الإنكار ، ولو قد فعلت لأصابها شر عظيم . فلما خضب زوجها يده بدم أخيه نفرت منه وازورت عنه ، ولكنها على ذلك أظهرت طاعة وإذعاناً حتى إذا سُلِطَتْ على عمرو شياطين الانتقام فأخذته الفرع والجزع وألح عليه البؤس واليأس ، ثابت إلى تماضر رقة قلبها ورضا نفسها وميلها إلى الحنان فلزمت زوجها ورققت به ، وواست زوجها وعظفت عليه حتى إذا حلَّ به الموت كانت وحدها التي سكبت عليه الدمع وذاقت لموته الحزن والغم . وكان لها صبي لم يبلغ الرابعة ، وكان لزوجها

أخ لم يبلغ السابعة ، فجمعت أخا زوجها إلى ابنها ، وقامت على تربية الطفلين ، ففتحتهما من الحب والحنان ما كان يملأ قلبها الرحب الرقيق ، ووقفت عليهما من البرِّ والرفق والعطف ما تمنحه الأم أبناءها وما تقدمه الزوج إلى زوجها . ولو قد خُيرت في ذلك الوقت لما تمت إلا أن تترك في ناحية من نواحي القصر أو تنحاز إلى مخالف من مخالف اليمن بعيد عن صنعاء ومعها هذان الصبيان تسعد بهما ويسعدان بعطفها وبرّها . ولم تكن تفكر لنفسها ولا لأحد الصبيين في ملك ولا وراثة ، إنما كان ههما أن تنفق نشاطها كله في العناية بهذين الطفلين وأن تجد جزاءها على ذلك في هذه النظرات الحلوة التي كانت ترتفع إليها من أعين هذين الصبيين فتملأ قلبها غبطة وجوراً ، وفي هذه الأصوات العذبة التي كانت تقع في أذنها موقع الموسيقى ، وتصيب من قلبها مواقع الرضا والابتهاج . ولكن أباهما فكر في الملك لها ولابنها في ظاهر الأمر ، وفكر فيه لنفسه في أقصى ضميره ودخيلة قلبه . وماهى إلا أن أعلن أن حماية الأسرة المالكة قد صارت إليه وأنه ناهض بها على أحسن ما ينهض الأوصياء بأمر الذين يقومون عليهم من القاصرين . وأظهر ذو الشناتر أول أمره سيرة حسنة ومنهجاً صالحاً في الملك . ولكن تفرق حمير وانفصال أطراف اليمن عن صنعاء واستبداد الأقيال والأذواء بما كان في أيديهم من الخاليف والقصور وطموح العظماء بين هؤلاء الأقيال والأذواء إلى سعة الملك وبسط السلطان ، كل ذلك أغراه بالشدة ودفعه إلى البأس . فما أسرع ما قبل الإغراء واندفع إلى الطغيان ، وإذا هو يصطفي لنفسه من

الجند والقادة قومًا يُؤثّرهم بالمودّة ويختصّهم بالمعروف ويُسبغ عليهم النعمة ويجزل لهم العطاء ، ثم يستعينهم على غيرهم من الجند والقادة . وما يزال يُغرى ويعوّى ويمكر ويكيد حتى تُلخّص له صنعاء وما حولها من الأرض . ثم إذا هو يضرب بمن أطاعه من عصاه ، ويبعث الهيبة والخوف كما يبعث الرعبة والرجاء ، حتى يعظم أمره ويُظهر أشراف حمير له الطاعة إشفاقاً منه أو أملاً فيه . وأنفق ذو الشناتر أعواماً على هذا النحو رفيقاً شديد الرفق بمن رجا منه الخير وانتظر منه النفع ، عنيقاً شديد العنف على من يئس من نصحه ولم يتوسّم فيه خيراً ولا نفعاً . حتى إذا دانت له اليمن كلها وآمن له العطاء والأشراف ولم يبق له بينهم منازع أو مدافع ، أظهر ما كان قد أخفى من أمره ، وأعلن ما كان قد كتم من سره ، فاغتصب الملك لنفسه خالصاً من دون ابنته وسبطه ومن دون أهل البيت من أبناء تبع وذويه . وألّقى بتمأصّر والصبيين في قصر بعيد هو بالسجن أشبه منه بالقصر ، وأقام عليهم الحرّاس والرقباء يعدّون عليهم ما يقولون وما يعملون ، ويضيقون عليهم فيما كان ينبغي أن يتّسع لهم من سبل الحياة . وفرغ ذو الشناتر بعد ذلك للأشراف والعطاء ، فأعمل فيهم مكره وكيد ، ثم سلّط عليهم بطشه وبأسه ، وأخذ يطفى عليهم ويسىء السيرة فيهم . فإن أذعنوا لطغيانه واستكانوا لسوء سيرته أمعن في الطغيان وأسرف في سوء السيرة ، وإن أظهروا نبوّاً أو همّوا بإباء الضيم بطش بهم بطشاً عنيقاً لا يُبقى ولا يذر . وما هو إلا عام وبعض عام حتى كان ذو الشناتر قد أراح نفسه من سادة حمير وذوى المسكاة والسنن فيها . ثم نظر

فلم ير لنفسه قريناً ولا ضريباً، فازداد لنفسه إكباراً وبها إعجاباً، وازداد لحير
إذلالاً وعليها تسلطاً وتجبراً، وأقبل على الذات بمقدار ما كان يمرض عنها،
وتهالك عليها بمقدار ما كان يظهر النفور منها. وما أسرع ما تجاوز في ذلك
كل حد وخرج على كل سنة. وأسرف في الأعراض يعتدى عليها، وفي
الحرمات ينتهكها، وفي الأموال يستصفىها ويؤثر نفسه بخيارها، حتى خافت
حمير أشد الخوف وضائق به أشد الضيق وتمنت له أشد النكر وأظهرت له
أشد الحب. فلما طال ذلك على حمير لم تزد له إلا خوفاً ولم تضر منه إلا
إشفاقاً وذعراً. ولكن الشباب من أبناء السادة والقادة عجزوا عن ضبط
العواطف والأهواء وكرهوا عيشة الذل والخضوع، فجمعوا وغمغمو أول الأمر
ثم انطلقت ألسنتهم بعد ذلك بالنكير واللوم، ثم سعى بعضهم إلى بعض
وأخذوا يمحرون ويدبرون، ولكن الطاغية كان أشد منهم مكرراً وأنفذ منهم
أمراً وأحسن منهم تدبيراً. فهاهى إلا أن يستهوى فريقاً منهم بالمال، ويغوى
فريقاً آخرين بالوعد وإظهار المودة، حتى إذا ظفر من بعضهم بالطاعة والهوى
استعانهم على من لم يظفر به، حتى استقام له أمره. وإذا هو ينتقم لنفسه من
هؤلاء الشباب بما يستطيع أن ينتقم به من ضروب الكيد وألوان الإذلال.
وكان كلما تقدمت به السن واستوثق له الأمر أسرع الفساد في خلقه وطبعه
ومزاجه: فذاق من اللذات ما يباح وذاق منها ما يحظر، وجرب من اللذات
ما يُعرف وجرب منها ما يُنكر. وأصبح قصره بيئة للشرِّ والأثم لم تعرف
مثلاً صنعاء فيما مضى من الدهر. وأفاق ذو الشناتر من سكره ذات يوم

فخطر له على غير انتظار ولا تفكير ذكر ابنته تَمَاضِرَ وابنها عُمَيْرَ وأخا زوجها زُرْعَةَ ، وكان قد فارقه منذ أعوام طوال حتى نسي أمرهم أو كاد ينساه فلما خطر له ذكرهم في هذا اليوم أنكرهم ثم هابه ثم اشتد خوفه منهم فاشتد مكره بهم وكيده لهم ، ولم يحتج إلى تدبير طويل حتى استقر رأيه على أن يخلص منهم ويؤذيهم من طريقه . فأقدم وياشراً ما أقدم ، وعزَمَ ويا سوء ما عزَمَ ، ثم أنفذ ويانكر ما أنفذ !: أمر أن تقتل ابنته وسبْطه خنقاً حيث هما في القصر، وأن يحمل إليه ابن تَبَعَ الشاب . وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى أنفذ أمر الملك، فرأت تماضر ابنها يُصْرَع بين يديها ، ورأى زُرْعَةُ ابن أخيه وأمه الثانية يُقتلان بمرأى منه ، وانتظر أن يسعى إليه الموت ، ولكن الموت أعرض عنه ولم يسع إليه إلا القيد والغل . فلما انتهى الفتى إلى القصر أدخل على الملك فبش له الملك وبش وتلقاه بالعطف والبر، وأمر فحطمت عنه الأغلال والقيود، وأمر فأصلح من زِيَّه ورَفَّه عليه . ثم دعاها فما زال يلاطفه ويؤنسها ويؤكد له أنه لا يريد به إلا خيراً ولا يُعِدُّ له إلا نعيماً وملكا ، وأنه لم يفعل ما فعل ولم يكن ما جرى إلا ليخلص ملك تَبَعَ لابن تبع هذا الذي لم يقترب إثماً ولم يقطع رحماً ولم يغمس يده في دم بريء ، وأنه لم يستطع ولن يستطيع أن يغفر لعمرو قتل أخيه ولا لتماضر ابنته رضاها بهذا الإثم وصمتها عليه . ولم يستطع وما كان ينبغي له أن ينقل الملك من عمرو الآثم إلى عُمَيْر الذي ولد في الإثم ونشئ عليه . لقد قتل عمرو حساناً ، ثم قتل نفسه، وقتل هو ابنه عميرا ، وخلصت بذلك حمير واليمن من هذا الإثم المنكر

الذى كان يوشك أن يجر عليها شرّاً لا ينتضى .

والآن وقد طهرت اليمن من هذا الرجز وخلّصت صنعاء من هذا الشر، فقد آن لملك تبّع أن يؤول إلى ابنه البرىء . وإنما هى أعوام أهيك فيها النهوض بأمر الملك، وأعلمك فيها ما لم تتعلم فى أعماق ذلك القصر، وأقربك فيها إلى الجند والعطاء ، وأقرب فيها الجند العطاء إليك حتى إذا تم لك من هذا كله ما ينبغي ، أصبحت قتيلاً من أقيالك وقدّمت إليك عرش أيبك وتاجه وصولجانه . وما زال يقول ذلك للفتى وكثيراً مثله ، وما زال يزيّن له من الوعود والأمانى والفتى يظهر أمناً بعد خوف وثقةً بعد شك ورضاً بعد إنكار حتى استيقن الشيخ الآثم أن قد استأثر بالفتى البرىء .

هنالك أخذ يُعريه ويغويه ويحبب إليه اللذة ويزيّن له الفجور ، والفتى يظهر إقداماً حيناً وإحجاماً حيناً آخر ، ويطمع مرة ويؤيسه مرّات ولا يضمّر له فى نفسه إلا أقبح المكر والكيد . وأصبح ذو الشناثر ذات يوم وقد همّ بأمر عظيم ، وأصبح الفتى ذلك اليوم وقد تهيأ لأمر عظيم . وما ارتفع الضحى حتى أقبل رسول الملك يدعو الفتى إلى منادمته . فأظهر الفتى طاعة سريعة واستجابة ليس فيها تردد ولا التواء . ومضى الفتى إلى تلك الشرفة التى كان يجلس فيها الملك للهوى ويخلو فيها إلى نديمه ، وما كان يخلو قط إلى غير نديم . وصعد الفتى إلى تلك الشرفة وإن الموت لكامن بين قدميه ونعله . حتى إذا بلغ مجلس الملك حياً فأحسن التحية، ولقيه الملك فأحسن اللقاء . وكان بين الشيخ الآثم والفتى البرىء حديث لم يطل ومعاورة لم تتصل . ثم

هم الشيخ بأمر وأقدم الفتى على أمر ، وانصرف الفتى بعد ساعة . فلما رآه الجند خارجاً من عند الملك نظروا إليه مشفقين ساخرين ، وتندّروا به وإن قلوبهم لتتفطر حزناً وحسرة أن ينتهى ابن تبع إلى هذا النذل والهوان . ولكنهم نظروا فإذا الفتى لا يخفض رأساً ولا يعض طرفاً ولا يسرع في طريقه . هنالك تقدّم إليه أحد الجند مزدرياً مُكبراً في وقت واحد وسأله : كيف تركت الملك ؟ قال الفتى في صوت حازم لاعوج فيه : دونك الملك فسله كيف تركته . فمضى الفتى في طريقه هادئاً مطمئناً ، وأنكر الجند هذا الخزم وهذا الهدوء ، فصعد بعضهم إلى الشرفه وما كاد يبلغها حتى صاح صيحة اضطربت لها أرجاء القصر : ألا إن ابن تبع قد قتل الطاغية واسترد ملك أبيه . فلما كان من غد كان زرعة قد جلس على عرش تبع وتسمّى يوسف ، وتلقب ذا نؤاس ، واتخذ اليهودية له ديناً وأخذ يردّ حمير إليها .



البشير

أقبلن مع ضوء النهار يسعين سعى النسيم يسبقهن عَرَفَ المسك ونَشَرَ
 القَرَنُفْلَ، ويحملن من ندى الأزهار وشهى الثمار ، ومن رطب الأغصان
 وجنى الرياح ، ما يصور الطبيعة وقد أيقظها برد السحر ومسّ الندى وغناء
 الطير ، فخرت فيها رعدة الحياة ، ثم استقبلت ضوء الصبح باسمه له مُقَدِّمة
 عليه ثم منغمسة فيه تريد أن تعبر ما بين ساحليه من مطلع الشمس إلى
 مغيبها . وكنّ قاصرات الطَّرْفِ فاترات اللحظ ساحرات العيون . وكنّ
 واضحات الجباه قاتمات الشعور . وكنّ مشرقات الوجوه باسمات التغور .
 وكنّ أسيلات الحدود جميلات القدود نحيلات الخصور . وكنّ عذاب
 الأصوات ملاح الألفاظ فاتنات الألحان . وكنّ يتغنّين فى يونانيتهن الحلوة
 أغنية الصباح تلك التى تعودن أن يحملن بها تحية النهار إلى سيدهن الشاب
 الفتى المترَفَ كيمون بن اركيتاس . وكنّ يقلن له فى أغنيتهن الرقيقة الظريفة:
 « أَفِقْ أَيُّهَا الفتى المترَفَ ! تَنَبَّهْ أَيُّهَا الفتى السعيد . قم أَيُّهَا الفتى المجدود .
 أَفِقْ كيمون ، فقد وَفَّتْ لك آلهة الليل بعهدا فَرَعَتَكَ وحَفِظَتِكَ ويسَّرت
 لك نوماً هادئاً وأحلاماً حسناً ثم انصرفت عنك وقد استلمتكَ إلى آلهة
 النهار لتفى لك بعهدا كما تعودت أن تفى لك به منذ ذقت الحياة . أَفِقْ

فإن ترى من هذا اليوم إلا ابتساماً أجمل وأعذب من ذلك الابتسام الذى رأيته أمس والذى رأيته أول أمس والذى تعودته منذ عرفت الحياة . أفق فستلقى مودةً وحباً ، وستلقى توفيقاً ونجحاً ، وسيزورك الأصدقاء مسرعين إليك مقبلين عليك وقد اتخذوا على رؤوسهم كاليل من الزهر ، وستتخذ على رأسك إكليلاً كاليلهم ، وستفرحون وتمرحون وستجدون وتمرحون . أفق أيها الفتى السعيد . تَبَّهْ أيها الفتى المترَف . قم أيها الفتى المجدود . ولكنهن بلغن الغرفة التى كان يأوى إليها كيمنون إذا جُزَّ الليل وانصرف عنه الرفاق ، فلم يرَين سيدهن كما تعودن أن يرينه كل صباح مُغرِّقا فى النوم أو متعلِّقاً بأسباب اليقظة يريد أن ينجوبها من بحر الرقاد ، إنما رأيته قائماً يذهب فى غرفته ويحىء ، مُتَعَباً مكدوداً مظلم الوجه كأنه قد أنفق ليله مُسَهَّداً لم يذق النعاس . فلما رأيته أنكرته وهممن أن يسألنه . ولما رآهن أنكرهن ولكنه منحهن ابتساماً فيها عطف عليهن حزين ، ورفق بهن لا يخلو من ألم ، وانصراف عنهن يشوبه شىء من التبرُّم وإحساس الشقاء . ثم أشار إليهن فلم يسهبن إلا أن يعدن من حيث أتى صامتات كثيرات قد سَقِطَ فى أيديهن كأنما أتى من الأمر شيئاً عظيماً .

وكان الفتى فى حقيقة الأمر ينكر نفسه أشد الإنكار ويضيق بما حوله كل الضيق بعد تلك الليلة الطويلة الثقيلة التى أنفقها وحيداً محزوناً يفكر فى تلك الدماء التى كانت تجرى قريباً من داره كأنها السيل ، وفى تلك الأشلاء التى كانت منتشرة من حول داره آخر النهار ، وفى تلك الأصوات التى كانت

ترتفع بالصلاة والدعاء قوية رائعة مبتهجة بالموت ، وما تزال في صلاتها ودعائها قوية رائعة مبتهجة بالموت ، حتى يسعى الموت إلى أصحابها فيخربون صرعى ، وتستحيل تلك الأصوات القوية الرائعة المبتهجة إلى حشرة فضيعة مروعة . ويرى تلك الوجوه التي كانت تستقبل الموت وعليها ابتسامة حلوة فيها جلد وثقة ، وفيها يقين وأمن ، وفيها أمل وإيمان . فما تزال هذه الوجوه تدنو من الموت باسمه له ، وما يزال الموت يدنو منها عابساً لها حتى يكون اللقاء المنكر الشنيع ، فاذا عبوس الموت قد استحال إلى ابتسام حين مس هذه الوجوه الباسمة . وكانت المدينة قد شهدت يوماً من أعظم أيامها شراً وأشد أيامها نكراً : يوماً من أيام الاضطهاد ، جميع فيه النصارى من كل وجه وأخذوا من كل مكان ، فيهم الرجال والنساء ، وفيهم الشباب والشيب ، وكلهم من ضعفاء الناس وذوى المنازل الخاملة فيهم : أخذوا من الدور حيث كانوا آمنين ، وأخذوا من الحقول حيث كانوا يعملون ، وأخذوا من تلك البيع التي أقاموها في الأتفاق حيث كانوا يجتمعون للصلاة والدعاء . فلما حشد منهم المئات امتحنوا في دينهم امتحاناً يسيراً قصيراً . فلم يكن منهم من أجاب إلى وثنية الامبراطورية الرومانية ، ولم يكن منهم من أظهر العبادة لقيصر أو الخضوع لدين روما . هنالك أمر بهم الحاكم فقتلوا تقيلاً ، ونكّل بهم أشد التنكيل ، وعيشت بهم السيوف والخناجر ، ولعبت فيهم سهام والحراب ، وأشرف المدينة المقيمون على دين الدولة وعامة المدينة المتعصبون لدين الدولة ينظرون إلى ذلك فرحين به مستمتعين بجماله البشع الفظيع . وكان كيمن بين الأشراف في الصف

الأول من النظارة سمع ورأى ، فأنكرت نفسه ما سمع وما رأى . ولكن
صوته لم يستطع إلا أن يصيح صيحات الرضا ، ولكن يديه لم تستطيعا إلا أن
تصفقا تصفيق الإعجاب ، حتى إذا انتهت المجزرة وتفرق الناس سكارى
لكثرة ما رأوا وشموا من منظر الدم وريحه ، عاد الفتى إلى قصره ذاهلا
واجما كئيبا حزينا . ثم خلا إلى نفسه قفصى في غرفته بقية النهار وسواد الليل .
ورأى في هذه العزلة الطويلة أهوالا وأوجالا لم يكن تعود أن يراها . وأنى
له ذلك ولم يشهد قط ما شهد أمس من الاضطهاد ! وأنى له ذلك ولم يشترك
قط في حرب ولا يرى قط نزلا ولا قتالا ! . على أنه لم يستطع البقاء في
غرفته بعد أن انصرف عنه الإماء ، فخرج من داره لا يدرى إلى أين يقصد
ولا يعرف إلى أين يريد . ومضى أمامه لا يلوى على شيء ولا ينظر إلى
شيء . ولم ينتبه إلا وهو يستأذن على صديقه نكياس . فلما أذن له دخل على
صاحبه فلم ير في وجهه إشراقا ولا ابتساما ولم يحس منه ابتهاجا ولا نشاطا ،
وإنما رأى وجها عابسا مظلما وشخصا كئيبا فاترا فابتدر صديقه قائلا : إن
أمرك لعجيب ! أقتراني قد حملت إليك حزني وبؤسى ونقلت إليك كآبتي
وشقائي ! . قال نكياس : أحزون أنت ! أما أنا فلم أذق النوم . قال كيمون :
ولم أذقه أنا أيضا ، وكيف يذوق النوم من رأى مثل ما رأينا أو سمع مثل
ما سمعنا أو شهد مثل ما شهدنا من كيد الناس للناس ، ومكر الناس بالناس ،
وقسوة الناس على الناس ! . قال نكياس : هوّن عليك ! لقد نام أهل المدينة ملء
جفونهم آمنين مطمئنين وما يمنعهم أن يناموا وأن يأمنوا وأن يطمئنوا وقد

كانوا يخافون هؤلاء النصارى على أمن الدولة ودينها وعلى نظام الدولة وسلطانها !
 فقد أراحتهم سيوف الجند ورماح الشرطة وسهام الرماة من هؤلاء النصارى
 فأخلت منهم الدار وعفت منهم الآثار وقدّمتهم ضحايا دامية إلى جو بيتير
 إله روما العظيم . قال كيمون : إن عجبى من هؤلاء النصارى لا ينقضى ،
 كلهم كان ضعيفا ذليلا ، وكلهم كان فقيرا معدما ، وكلهم كان بائسا محروما ،
 وكلهم كان قد تعود الطاعة وألف الخضوع ، فكيف قويت قلوبهم بعد
 ضعف ، وكيف عزّت نفوسهم بعد ذلّة ، وكيف اجترءوا على أن يعصوا
 ساداتهم وقادتهم ويخالفوا عن أمر الحاكم والامبراطور ! . ما هذا السحر
 الذى غيرهم هذا التغيير ، وبدّلهم هذا التبديل ، ومنحهم هذه الشجاعة
 والعزة ، وهذا الصبر والبأس وكل هذه الخصال التى لم تكن تعرف إلا
 للأشراف ! . قال نيكياس : وما يدهشك من هذا ! إنما هو الإيمان خليق
 أن يحوّل الأشياء إلى أضدادها والنفوس إلى نقائضها . أو تظن أن أمر
 هؤلاء الناس هو وحده الذى يثير الدهش ويدعو إلى العجب ! . أليس
 كل شيء الآن يتغير ويتبدّل ! ألسنت تحس من حولك إنكارا لكل
 شيء ، وضيقا بكل شيء ، وسخطا على كل شيء واستعدادا لثورة عنيفة
 عامة توشك أن تشبّ فتقلب الأشياء كلها رأسا على عقب ! إنك تعجب
 من الناس ! فماذا تقول إن أنباتك بأنى أعجب من الآلهة !

قال كيمون : وأنت أيضاً تعجب من الآلهة ! أفرأيت إذا ما رأيت ، وسمعت
 إذا ما سمعت : لقد كنت أحسبه حلما من هذه الأحلام التى تروّع الناس فى

النوم إذا رؤوهم الحوادث وهم أيقاظ ، وكنت أجادل نفسي في هذا الحلم الخفيف فما أذكر أنى ذقت النوم منذ أمس .

قال نيكياس : فاقصص على ما رأيت ، أحدثك بحدِيثي وإنه لعجيب .
قال كيمون : طال على الليل ، وثقل على الهمّ وضاقَت بي الغرفة بما فيها من الجدران القائمة والسقف المطبق والباب المغلق ، فخرجت كأنما كنت ألتس في الحركة فرجا من حرج ، وفي الفضاء الواسع فسحة من ضيق ، وأشرفت أرفع طرفي إلى السماء كأنما كنت أسأل نجومها عن سرٍّ ما لا أفهم من أمر الحياة والأحياء ، وأمدّ عيني إلى البحر كأنما كنت أدعوه ملحاً عليه إلى أن يطغى بعض الشيء على المدينة فيغسل ماعِيق بأرضها من دماء القتلى ويحمل ما انتثر على أرضها من أشلائهم . وإني لفي ذلك حائر الطرف مفرّق النفس كاسف البال محزون الضمير ، وإذا شيء يعرض لي لا أثبتّنه أول الأمر لأنه كان بعيداً عني ولكنه يروغني ويقف عيني عليه ويدنو مني شيئاً فشيئاً حتى أثبتّنه . وما أعجب ما أثبتّنه ! - جماعة من الفرسان كأجل وأروع وأجهر ما رأيت قد علّوا أصوات جياد غريبة ما رأيت قطُّ مثلها ولا سمعت قطُّ عن مثلها إلا فيما أقرأ من شعر الشعراء ومن قصائد پندار حين كان يتغنّى تلك الخيل التي كانت تسبق ألعاب أولمبيا . جياد مجتّحة كانت تعبر إلى البحر بمن عليها من الفرسان ، لا أدري أكانت تركض على الماء أم كانت تطير في الهواء . حتى إذا بلغ الجماعة شاطئ البحر وكادت حوافر جيادهم تطفأ

الأرض وقفوا . وقد تبينت أشخاصهم فإذا هم أربعة فيهم رجلان وامرأتان .
وما أقرب الشبه بين هؤلاء الأشخاص وبين هذه التماثيل التي نراها في
المعابد لا يُلَوَّن وأرتميس ولا تَنَمَّا وأريس . أ كنت يقظان حين رأيت ،
أ كنت يقظان حين سمعت ! ولكن أشخاصهم مازالت ماثلة أمام عيني ،
ولكن حديثهم ما زال مستقرًّا في صدري كأنما نقش على قلبي نقشًا . سمعت
أشبههم بأبلون يقول : ما أبشع منظر هذه المدينة التي كنا نحبا ونصبو إليها !
وما أقبح هذه الريح التي تصعد إلينا منها ! قالت أشبه هؤلاء الأشخاص
بأتنا : لقد كنا نحب أن نلج بهذه المدينة فنطيل فيها المقام . وكنا نستعذب
حديث أهلها ونستحب أخلاقهم ونستلذ ما كانوا يقدمون إلينا من الضحايا
والقرايين . قالت شبيهة أرتميس : وكم كنت أحب أن أتجول في غاباتها
وأستمع فيها بلدة الصيد . قال شبيهة آريس : أمّا أنا فكانت تهجني
حصونها الحصنة ، وقلاعها المؤشبة ، وهذا الجيش الباسل المرباط فيها والمستعد
في كل لحظة للدفاع والهجوم . قال شبيهة أبلون : فقد آن لنا أن ننصرف
عنها على ألا نرجع إليها وأن نأق عليها نظرة وداع لا لقاء بعده . قالت شبيهة
أرتميس : لم أستطع بعد أن أفقه ما ألمّ بأهل هذه المدينة : أفتنة أتت على
عقولهم خالت بينها وبين الفهم والتفكير ، أم قسوة غلبت على قلوبهم فحرمته
الحسّ والشعور . إنهم يظنون أنه الدين وما يدفعهم إليه من حبنا والتعصب
لنا وحماية معابدنا وأوثاننا وسلطاننا أن يطغى عليها هذا الدين الجديد الذي
أقبل من الشرق ولكنهم يكذبون ، فما أكثر من وفد علينا من أكمة الشرق

قديمًا ! وما أكثر من يفد علينا منهم في هذه الأيام ! وما أحسن ما تلقيناهم
وما أحسن ما تتلقاهم الآن ! . لم نَضِقْ بهم ولم يَضِقْ بهم الناس . فما
ضيقهم بهذا الدين الجديد وبهذا الإله الشرق الجديد ! . قال شبيه أبلون :
إنهم يَخْدَعُونَ أنفسهم ويريدون أن يخدعونا ، ولكنهم يعلمون لو فكروا
أنهم لا يثورون لنا ولا يغارون علينا ولا يغضبون للدين ، إنما يثورون
لقيصر ويغارون على روما ويغضبون للسياسة . ولولا أن قيصر قد آله
نفسه وأخذ الناس بعبادته ، ولولا أن روما قد آلهت نفسها وفرضت
ما لم تفرض مدن اليونان حين كان إليها الأمر من هذا الدين الغريب
الذي تقام به المعابد لها ويؤمر الناس به أن يقدموا إليها الطاعة ، ولولا
أن هؤلاء الرومان قد اتخذوا الدين وسيلة من وسائل السياسة وأداة من
أدوات الحكم وبسط السلطان يكذبون به على أنفسهم ويكذبون به
على الناس - لولا هذا كله لما أُرِقت الدماء ولا انتشرت الأشلاء ولا
أُزهقت النفوس ولا قتل الناس بعضهم بعضًا على هذا النحو . قال شبيه
أريس : إنكم تعلمون جلي للدماء ونشوق بالقتال والحرب ، ولكني شديد
البغض لما أرى ، شديد النفور مما أجد . وكم ضقت بما رأيت أمس من هذا
التقتيل والتتكيل والتتمثيل ، ومع ذلك فكم شهدت من حرب وكم اشتريت فيها !
وكم أغريت بها وكم دفعت إليها ! وكم أبلت فأحسن البلاء ! . قالت شبيهة
أتنا : وأى غرابة في ذلك ! أنا أيضًا أحببت الحرب وما زلت أحبها . ولكن
الحرب شيء وهذا التكر شيء آخر . وأين الحرب التي تصدر عن الشجاعة

والبأس من هذا الإجرام الذى لا يصدر إلا عن الجبن والبغى والعدوان .
 وأى فرق بين تقتيل العُزْل الأبرياء وبين ما فعله أيّاس حين جُنّ جنونه
 فأعمل سيفه فى قُطْعان البقر والغنم التى لا تملك عن نفسها دفاعاً . قال شبيهه
 أبلون : وما بقاؤنا فى هذه الأرض التى ليست لنا بدار بعد ما أزمع الآلهة
 أن يدعوا هذه الأقاليم لدين قيصر ولهذا الدين الجديد ؟ ! . لقد وقفنا فأطلنا
 الوقوف ، وودّعنا فأطلنا الوداع ، وآن لنا أن نلحق بمن سَبَقنا من الآلهة إلى
 تلك الأرض الموعودة التى لم تفسد عقول أهلها حيلة برومئوس ولا فلسفة سُقراط
 ولا سياسة قيصر ، هَلُمَّ . ثم ترتفع بهم أفراسهم فى الجوِّ . وما هى إلا لحظة
 حتى أرى سحاباً رقيقاً يمضى أمامه مسرعاً ، ثم أنظر فلا أرى شيئاً . أ كنت
 نائماً أرى ما يرى النائم ، أم كنت يقظان أرى ما يرى الأيقاظ ! . قال نكياس :
 لم تكن نائماً ولا حالماً فقد كنت أسمع حديثك الآن وما أشك فى أنك قد
 كنت تقرأ ما كان قد نُقش على قلبى ورسخ فى قرارة نفسى . الصورة هى
 الصورة ، واللفظ هو اللفظ ، ومقدّم الفرسان ورجلهم ووقوفهم بين ذلك
 كما وصفته لم ترد فيه ولم تنقص منه . ولكنى لم يطل علىّ الليل ولم يثقل
 علىّ الهمم ، ولم يضيق بى المكان . لقد أنفتحت بقيّة النهار وأكثرت الليل فى
 قصر الحاكم مع أغنياء المدينة وأشرفها نستمتع بلذات هذا الحفل الذى دعانا
 إليه ، ولم تنشط أنت له . وأشهد لقد أسرفت فى الطعام ، وأسرفت فى الشراب
 خاصة ، لأنى كنت أريد أن تفرّق الجربى بينى وبين نفسى ، وأن تسُلّ الحجر
 ما كان يملأ صدرى من الهم والحزن . ولكن الليل عجز عن أن يُسلمك

إلى النوم وعجزت الخمر عن أن تسلمنى إلى السكر . فلما انقضى الحفل وانصرف الناس لم أستطع أن أعود إلى دارى ، ففضيت أمشى على ساحل البحر أتسّم الهواء وأنظر فى السماء حتى رأيت مثل ما رأيت ، وسمعت مثل ما سمعت . وعدت وإنى لأسأل نفسى منذ ذلك الوقت أكان حقاً ما رأيت وسمعت أم كان لوناً من ألوان السكر وخيالا من هذه الخيالات التى تساطها الخمر على النفوس . قال كيمون : وإذا . قال نكياس : وإذا ! . ثم سكت الصديقان وقتاً طويلا . ثم استأنف نكياس حديثه وهو يقول : وإذا فنحن بين اثنتين : إما أن نرحل كما رحل الآلهة ، وإما أن نقيم كما أقام الناس . وفى السباحة لذة ، وفى الخمر واللهو عزاء . قال كيمون : أمّا أنا فمرتحل . قال نكياس : أمّا أنا فقيم . قال كيمون : فكأن إذا خلقتى فى مالى حتى يأتيك أمرى فيه . قال نكياس : أجاد أنت ؟ وما يمنع أن يكون مارأينا وسمعنا عبثاً من عبث الآلهة ، فقد علمت أنهم يحبون العبث بنا والسخر منا ! وما يمنع أن يكون ما رأينا وسمعنا أثراً من آثار هذه الصدمة التى دهمتنا أمس حين رأينا ما سَفِكَ من دماء وما أزهق من نفوس . أقم فان فى اللهو واللذة وفى الخمر والغناء وفى جمال هؤلاء الإماء اللاتى يملأن قصورنا نعيما وبهجة ، وفى هذه الثروة التى تتيح لنا من ألوان الشرف والمجد ما لا يتاح إلا لقليل من الناس ما هو خليك أن ينسينا ما شهدنا منذ أمس . أقم ! ولنضاعف مانحن فيه من عبث ولهو . فما أرى حياة الناس تستقيم إلا على العبث واللهو : شرب فى النهار ونوم فى الليل . حتى إذا سئمنا الحياة خرجنا منها مزدرين لها . قال كيمون :

أنت وما تحب من هذا ، أما أنا فترحل عن هذه الأرض ولو إلى حين .
ثم افترق الصديقان بعد ذلك فلم يلتقيا ولم يعرف أحدهما من أمر صاحبه شيئاً
أما التاريخ فقد عرف من أمر كيمون شيئاً كثيراً .

على أن الذي حدثني بحديث كيمون لم ينس أن يصطنع الصدق
والأمانة في الحديث ، ولم يرض أن يتكلف ما يتكلفه القصاص وكثير من
المؤرخين من التزيُّد في الرواية والتحدث بما لا علم لهم به . فقد أنبأني بأن
جزءاً غير قليل من حياة كيمون لم يصل عنه إلى الرواة والمؤرخين إلا أطراف
قصيرة من الحديث ، وأن التاريخ لم يعرف تفصيل حياته إلا في آخرها حين
تقضى شبابه وأقبلت عليه الشيخوخة بما تحمل إلى الناس من هذه الهدايا
البغيضة التي تتألف من الضعف والمرض وأعراض الفناء والانحلال . ولوقد
عُرف التفصيل من أمر كيمون لوجد الناس في قراءته لذة لا يجدون مثلاً
كثيراً حين يقرءون حياة الشهداء والقديسين . فقد انصرف كيمون عن
صاحبه محزوناً مؤزَّعاً بين اليأس الواضح البين إن أقام ، والرجاء الغامض المبهم
إن ارتحل . وكان قد كره المدينة والحياة فيها كرهاً شديداً . وكان قد سئم
قصره ومن فيه وما فيه ، سائماً له خلقه حتى أنكر نفسه ، وحتى كره
ما كان يسمع من صوته وألفاظه حين كان يتحدث إلى أهل القصر من
الأحرار والأرقاء ، ولم يكد يتم يومه في القصر حتى عرف أن بقاءه في المدينة
أمر لا سبيل إليه ، وأن الموت آثر عنده وأحب إليه من هذه الحياة الحمراء
اللاغطة الممزقة التي لا يرى فيها إلا دماء وأشلاء ، ولا يسمع فيها إلا صلاة

ودعاء ، وحشجة ونداء . فلما جنة الليل وهذا من حوله كل شيء وكل
إنسان ، خرج من القصر يساب كأنه الحية ، وينسل كأنه اللص ، وأخذ
يمضي في طرق المدينة منتقلاً من طريق إلى طريق حتى جاوز أسوارها
وأرباضها^(١) ودفع^(٢) إلى الفضاء الواسع وإلى هذا الريف الذي تسكن فيه
الطبيعة إذا تقدم الليل سكوناً رهيباً ولا يكاد يحس الإنسان فيه إلا هذه
الأصوات الضئيلة التي تنبعث من حين إلى حين عن بعض الحشرات المنبثة في
ثنايا العشب والزرع ، وعن بعض الطير المستقرة على الأغصان حين يمر بها طائف
الحلم فتهم بالغناء والتغريد ثم يقطع عليها النوم غناءها وتغريدها ، وإلا هذه
الأصوات الخفية التي لا تسمعها الأذن وإنما تسمعها النفس لأنها أدق من
السمع وألطف من الحس ، وهي نجوى الهواء حين تتحدث أجزؤه وطبقاته
بعضها إلى بعض إذا سكن الليل وأطبق الظلام ، كما ياقص بعضها على بعض
أحاديث الطبيعة في حياتها وحركتها قبل أن تنام وقبل أن يضطرها الليل إلى
السكون . ومع أن هذا الهدوء الرهيب وهذا الصمت المهيب يروعان أهل المدن
إذا دفعوا إليهما دفعاً على غير تعود لهما فانهما لم يبعثا في نفس القتي روعاً ولم
يدخلا في قلبه رعباً ، لأن نفسه كانت مشغولة حتى عن هذا الرعب وذلك
الروع بما كان يزدحم فيها من الخواطر والأحاديث . وكان القتي يمضي أمامه
لا يعنيه أهمته هو قصده السبيل أم جائر هو عن هذا القصد ، لأنه لم يكن في

(١) الربض (بالتحريك) : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

(٢) يقال : دفع فلان إلى المسكان (بصيغة المعلوم والمجهول) : إذا انتهى إليه .

حقيقة الأمر يعرف إلى أين يريد، ولم يكن قد رسم لنفسه طريقاً يسلكها أو غايةً ينتهى إليها، إنما كان همه كل همه أن يفر من هذه المدينة التي جرت فيها الدماء أنهاراً وانتشرت فيها الأشلاء انتشاراً وجنى فيها بعض الناس على بعض هذه الجرائم والآثام. وكان حديث الآلهة قد ملأ نفسه دهشاً وعجباً واضطره إلى أن يسأل نفسه من حين إلى حين: إلى أين ذهب الآلهة، وأى طريق سلكوا، وفي أى مكان من الأرض أو من السماء أقاموا قصورهم الخالدة؟ وكيف هان على زوس أن يدع أولب وما كان له فيه من حياة فيها الجِدِّ الرائع والعبث اللذيذ. وكيف هان على أبلون أن يترك معبده الخالد في دلف، وكيف استطاعت أتنا أن تتعزى عن الأكر وپول، وأين يجد آريس مدناً تقتل وتحترب كما كانت مدن اليونان تقتل وتحترب. وكان يسأل نفسه عن سلطان هؤلاء الآلهة الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا العدوان الإنسان على الإنسان فضلاً عن أن يحسوا هذا العدوان ويبطشوا بالمعتدين. وكان يسأل نفسه عن هذا الدين الجديد الذى يؤثره أصحابه على الحياة ولذاتها وآلامها، وعن هذا الإله الجديد الذى أخذ يغزو العالم اليونانى الرومانى فيحبب إلى أهله الألم والصبر والتضحية ويهد أهله فى الثروة والغنى ويزين فى قلوبهم حب الفقر والإعدام، ويُنسِّمُهم تشيئاً جديداً لا صلة بينه وبين ما ألف الناس منذ أنشدوا شعر هو ميروس، وتغنوا شعر سافوا وپندار، واستمتعوا بشعر سوفوكل وأرستوفان وتفكروا فى فلسفة سقراط وأرسطاطاليس. وكان يسأل نفسه وهو يمضى فى طريقه لا يلوى على شىء والليل من حوله مُطبِّقٌ قد غمر بظلمته الخيفة كل شىء، أماضٍ هو فى

أثر الآلهة الذين ارتحلوا ليلحق بهم ويقيم معهم لأنه لا يستطيع أن يعيش من دونهم ، أم ساعر هو إلى دار هذا الإله الجديد لعله يلتقى من كهانه وقساوسته من يعته أسرار دينه ، فقد سئم حياة اليونان ، وتمنى لو ظفر بلون من الحياة جديد . وكان الفتى يمضى ، وكانت هذه الخواطر تزدهم على نفسه وتضطرب فيها ، وكان الليل يمضى هو أيضا فى طريقه دون أن يتبين الفتى أكان سريعا فى سيره أم بطيئا . وإنه لكذلك يسير ويسير ويفكر ويفكر قد نسى نفسه ونسى الليل ، وإذا هو يشوب إلى نفسه لحظة فيقف ويرفع رأسه ، وإذا الضوء قد غمره وغمر الأرض من حوله ، وإذا هو ينظر أمامه فلا يرى إلا سهلا مشرقا ، وينظر وراءه فلا يرى إلا سهلا مشرقا ، وينظر من يمين وشمال فلا يرى إلا سهلا مشرقا . وإذا هو لا يدرى من أين جاء ولا إلى أين يريد : ينظر وراءه فلا يرى للعمران أثرا ، وينظر من كل ناحية فلا يرى للعمران أثرا ، قد انقطعت الصلّات والأسباب بينه وبين مدينته التى خرج منها أمس حين أظلم الليل ، فكأنه لم يعرف هذه المدينة ولم يعيش فيها ولم يقاسم أهلها ما نعيموا به من لذات وما ابتأسوا به من الألم . وكأنه لم يشهد فيها ما شهد ، ولم ينكر من أهلها ما أنكر ، وكأنه شىء قد لا صلة بينه وبين شىء ، وكأنه شىء ضائع بين هذه الأرض التى لا حد لها وهذه السماء التى لا حد لها ، وهذا الضوء الذى يضطرب بينهما إلى غير حد . هنالك أحسن الفتى راحة لم يُحسبها قط كأنه قد ألقى عن نفسه أعباء الحياة كلها ، هذه الأعباء التى لا تختصر حياة الفرد وما لقي فيها من شر وخير فحسب ، وإنما تختصر معها حياة هذه الأجيال التى سبقتهم وأورثته الحضارة

أثقلها . أحس القى راحة قلما نستطيع نحن أن نتصورها ، وأحس هدوء
ونشاطا قلما نستطيع نحن أن ندوقهما . ووقف يستمتع بهذه الراحة ويستلذ
هذا النشاط . وحاول أن يدعو إليه تلك الخواطر التى كانت تزدحم على نفسه
فى ظلمة الليل فلم يستجب له منها خاطر واحد ، كأنما طردها هذا الضوء المشرق
مع ذلك الليل المظلم الكثيف .

ما أجمل هذا الشعور الذى امتلأت به نفس كيومون حين أحس أنه قد
خلق خلقاً جديداً ! لقد امتزجت نفسه الجديدة بهذا النور الجديد . ولقد نسى
الآلهة الذين كان يمضى فى أثرهم ، ونسى الإله الذى كان يسعى ليعلم علمه .
وماله ولهذا الإله الجديد ولا لتلك الآلهة القدماء وقد استيقن أنه قد وجد فى
هذه الطبيعة المطلقة الحرّة التى لا تحصر ولا تُحدّ آية أرشدته إلى إله ليس كما
تعود أن يرى الآلهة . لا سبيل إلى أن يُحصَر ولا إلى أن يُحدّ ، ولا مطمع فى
أن يرقى إليه العقل أو يتناوله الفكر بالدرس والبحث والتحليل . إنما هو
قوة يُكبرها ولا يفهمها ، يجلّها ولا يحيط بها ، يشعر أنها تأخذه من كل
مكان ، وتأخذ كل ما حوله وأنه إن يمض أمامه فهو مقبلٌ عليها ، وإن
يرجع أدراجه فهو خاضعٌ لها ، وأنى يذهب يميناً أو شمالاً فهو فى ظلها الظليل
وفى كنفها الرحب . سبحانك اللهم ! إن لم أجذك فقد وجدت آيتك ، وإن
لم أرك فقد رأيت خلقك ! لك على ألا أومن إلا لك وألا أخاف إلا إياك .
ثم يمضى القى أمامه فى شىء من الدهول ليس إلى تصويره من سبيل ، حتى
يشد حر الشمس ويبلغ منه الإعياء ، وهو على ذلك جاثٍ صبور لا يحسّ

كلالا ولا فتوراً . وما يزال يمضى ويمضى حتى يرفع له بناء يراه فيأنس به ويتسكّر له في وقت واحد : تأنس به طبيعته الغانية التي قد أحست الجهد والكد وذاقّت ألم الظمأ والجوع ، وتتسكّر له نفسه الخالدة التي تشفق أن يخرجها من هذه الحياة الروحية الراقية الحلوة التي لم تألفها من قبل . ويهمّ الفتى أن يقف ، ولكن هذا البناء الذي يُرفع له يدعوه إليه في إلحاح أن أقبل أيها الفتى ولا تخفّ ، فليس عليك من بأس . فيمضى الفتى صوب هذا البناء . حتى إذا دنا منه سمع أصواتاً عذبة ترتّل ترتيلاً عذبا فيُسرع إليها ، وماهى إلا أن يلحق بجماعة من الرهبان يصلّون ويرتلّون ، وإذا هو يصلّي معهم ويرتلّ . لم يُنكروه ولم ينكرهم ، كأنه واحد منهم وكان العشرة بينه وبينهم متصلة منذ عهد بعيد . ذلك أنه قد وقع إلى دير من هذه الأديرة التي كانت تقام في تلك الصحراء حين كان النصارى يَفرون إلى الصحراء بدينهم من تلك المدن التي كانت تسيطر عليها آلهة اليونان والرومان وديانات روما والامبراطور . ثم سكت محدّثي ساعة كأنه يفكر أو كأنه يستريح . فلما طال على صمته قلت له في لهجة المشوق إلى ما عنده من الأنباء : هَلُمَّ أُنَبِّئْ كَمْ لَبِثَ الفتى في الدير ؟ وكيف كانت حياته فيه ؟ قال محدّثي : لو علمت ذلك ما بَخِلْتُ به عليك ، وقد سألت عنه أسيّاخنا كما سألتني فكلمهم أجابني بما أجبك به ، وكلهم قال هذه الجملة التي يقولها الرواة والمؤرخون إذا اضطربهم النسيان وضياح الحوادث إلى الإجمال والابهام : أقام كيّمون في هذا الدير ماشاء الله له أن يقيم . قلت لمحدّثي : فانك قد علمت من أسيّاخك في غير شك أطرافاً من

حياة هذا الفتي بين هؤلاء الرهبان ، وعلمت منهم في غير شك أيضاً إلى أى الأحوال صار أمره بعد أن عاشر أهل الدير وتعلم منهم دين المسيح . قال محدثي : لم أكد أعلم منهم شيئاً لأنهم كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً . وكانوا إذا انتهوا من حديث كيمون إلى حيث انتهت قالوا هذه الجملة التي تشبه ما تقوله العامة حين تنسى أوحين يُعيها التفصيل : وما أسرع ماتقدم السنّ بأبناء الأحاديث ، فقد تقدّمت السنّ بكيمون بعد أن قضى في الدير ما شاء الله من الدهر مجتهداً في طاعة الله والفقّه في الدين والانصراف عن غير ذلك من شؤون الحياة . قال أسيّاخنا : والناس يتحدّثون أن كيمون ضاق آخر الأمر بحياته في الدير لأنه رأى نفسه قد أصبح فتنة لرفاقه وخُطائئه من الرهبان ، ورأى ديرَه قد أصبح فتنة لأديرة كثيرة كانت تقع على أمّاد بعيدة منه في الصحراء ، وأصبح فتنة لأهل الريف الذين كانوا يقيمون على أطراف الصحراء وفي داخل الأرض الخضراء ، فقد تسامع هؤلاء جميعاً بما كان الله عز وجل قد اختص به كيمون من الكرامة وآثره به من الفضل ، وبما أجرى على يده من العجائب والأمور الخارقة . فقد كان لا يدعو لمريض أو ذى ضرر بالشفاء إلا شفاه الله من فوره . وكانت بركته قد عمّت أهل الدير ومست ما حوله من أرض الصحراء إلى أمد بعيد ، فإذا أهله لا يشكون جوعاً ولا ظمأ ولا يلقون جهداً ولا عناء ، وإذا ديرهم قائم في وسط جنة خضراء قد أنبت الله فيها من ألوان الشجر والزهر ومن فنون الحب ما فيه غنى عن كل جهد ودفع لكل مشقة ، وإذا الناس يحجّون إلى هذا الدير

في كل عام مرة أو مرات فيتبركون ويلتمسون الدعاء ويلجئون في لقاء
 كيمنون : هذا يريد أن يمسه ، وهذا يريد أن يلثمه ، وهذا يريد أن يسمع
 صوته ، وهذا يريد أن يملأ عينه من منظره الجميل ؛ حتى ضاق الشيخ بذلك
 وأشفق منه على نفسه وعلى دينه . وقد أصبح كيمنون شيخاً . وما أسرع
 ما تتقدم السن بأبناء الأحاديث ! . فلما شق عليه ذلك أزمع أن يخلص منه
 ويفرّ بدينه من إكرام المكرمين وإيثار المؤثرين ، كما فرّ قبل ذلك من
 تلك المدينة التي كان يفتن الناس فيها عن دينهم بالتقتيل والتنكيل والتثيل .
 وأصبح أهل الدير ذات يوم يفتقدون وليهم المبارك فلم يجدوه حيث تعودوا
 أن يروه في كل صباح ، والتسوه في كل مكان في الدير وفي جنة الدير
 وفي الصحراء من حول الدير فلم يظفروا به ولم يجدوا له أثراً . فذهبت ظنونهم
 وظنون غيرهم من الناس في هذه الغيبة كل مذهب وأولوها كل تأويل .
 ولكن كيمنون نفسه لم يظن ولم يؤوّل ، وإنما استعان الله على أن يخلص
 من هذا الضيق ، ودعا الله أن يخفيه عن الناس حتى يبلغ مأمنه ، فاستجاب
 الله له . ومضى في طريقه هاربا من الدير ، كما مضى في طريقه هاربا من
 المدينة لا يلوى على شيء حتى خرج من الصحراء المجذبة وأمعن في أرض
 خصبة فيها خير وثرأ كثير ، فمضى فيها لا يُعْريه ما كان يرى من حياة
 الناس ونعيمهم ، ولم يمَسَّ قلبه ولا حسه ما كان يرى من تلك المدن العامرة
 التي كانت تذكره بمدينةته لأنها كانت تشبهها بما كان يقوم فيها من
 القصور الفخمة والملاعب الواسعة الضخمة ، وبما كان ينصب فيها من

الأسواق التي تحمل إليها ألوان التجارة من أطراف الأرض ، وبمن كان يضطرب فيها من هؤلاء الشبان المترفين ومن هؤلاء النساء المتهاككات الدعايات باللحظ واللفظ إلى الإثم والفتون .

كان الشيخ يمضى بين هذا كله لا منكرًا له ولا راغبًا في شيء منه لأنه كان مشغولاً بنفسه ودينه عن هذا كله . حتى إذا قطع هذه الأرض من حدٍ إلى حدٍّ ، وقف عند قرية فقيرة في طرف من أطرافها تسمى الخصب من ناحية وتمس الصحراء من ناحية أخرى . أقام كيمنون في هذه القرية ، وقد أعجبه فقرها وشظف أهلها ، وأعجبه هذه الصحراء التي كانت تمتد أمامه من غير حد . وقد كان كيمنون كلفًا بالصحراء لا يستطيع أن يسلوها لأنه لا يستطيع أن ينسى أنه وجد فيها الهدى وتبين فيها وجه الصواب . فكان يُنفق أيام الأسبوع أجيرًا لأهل القرية يعمل فيما يحتاجون إلى إقامته من البناء ، حتى إذا كان يوم الأحد خرج مع الصبح فأبعد في الصحراء حتى تنقطع الصلوة بينه وبين الناس ، ثم ينفق نهاره كله في ذكر الله ويعود إلى القرية مع الليل . وكان كيمنون رحيمًا للبائسين رقيقًا بأهل الضرر : فكان إذا مر بالبائس أو المحروب أو المريض رق قلبه ودعا له في نفسه ، فما أسرع ما يزول البؤس ويُكشَف الضرر ويُرفع المرض ! . وكان الناس ينكرون ذلك ويعجبون له . فلما كثرت ذلك واتصل وعرفه الناس أحبوا هذا البناء وكلفوا به ، ثم استحال جهنم وكلفهم إلى شيء يشبه الفتنة . وأحس كيمنون أنه صائر إلى مثل ما صار إليه في الدير فارتحل عن هذه القرية تحت الليل ، واقتطعت الناس من الغد فلم يجدوه . وكذلك أخذ الشيخ

ينتقل من قرية إلى قرية ويرحل من مكان إلى مكان حريصاً على أن يلازم الصحراء ليقضى فيها الأحد من كل أسبوع ، يقيم في القرية ما جهله الناس ، ويفرّ من القرية حين يحس أنهم قد عرفوه . حتى إذا كان في قرية من قرى الشام في آخر العمران وأول البادية عرفه رجل من أهلها كأنه عربي كان يسمّى صالحاً: عرفه وعرف تسوّره وتنكره للناس ، فلزمه عن بعد . وخرج كيّمون في يوم من أيام الأحد فأمعن في الصحراء كهادته وصالح يتبعه عن بعد . حتى إذا انتهى إلى مكان من الفلاة قام يصليّ وصالح يلحظه . وانه لفي صلاته وإذا حيّة عظيمة ذات رءوس سبعة قد أقبلت تسعى إليه فاعرة أفواها ولها فحيح مزعج خفيف . فلم يحفل بها كيّمون ، ولكنه دعا الله عليها فألمّتها الله في مكانها . وجزع صالح حين رآها تسعى إليه فصاح : إياك والحية ! . ومضى الشيخ في صلاته حتى أتمها . ثم أقبل على صالح يسأله عن أمره . قال صالح : شهد الله ما أحببت أحداً ولا شيئاً جبي لك ، وما أردت إلا أن أزمك وأتعلّم منك ، فأذن لي في ذلك . قال كيّمون : لست أرى بذلك بأساً ، ولكنني أشفق أن تشقّ عشتري عليك ، فدوّنك ما أحببت إن قدّرت على صحبتي . وعادا إلى القرية في المساء ، فلم يُقم فيها كيّمون يوماً حتى عرف أهلها منه ما عرف أهل القرى من قبل . وجاءه رجل من أهل القرية فقال : إني أريد أن أصلح بعض البناء في بيتي ، فهل لك في أن تنظر في هذا البيت لأشاركك على ما أريد ؟ فلما انتهى معه إلى الدار أدخله في حجرة وأخذ يتحدث إليه عما يريد تغييره . ثم نظر كيّمون فإذا الرجل يهوى إلى

الأرض فيرفع ثوباً كان مبسوطاً وإذا صبيّ ضرير سيئ الحال . فلما رآه
 كيّمون رقّ له ودعا الله ، فنهض الصبي وليس به بأس . واستيقن البناء
 أن أمره قد افتضح ، فقال لصاحبه صالح ، لا مقام لي بعد اليوم في هذه القرية ،
 إني ماض في الصحراء ، فان شئت فاتبعني وإن شئت فأقيم . ولم يدركهما
 صبح غد إلا وقد انقطعت الصلة بينهما وبين الحواضر . ولكن وحدتهما
 لم تطل ، فما أكثر القوافل التي تتردد بين الشام وبلاد العرب آخذة في
 الصحراء كل طريق ! . مرت بهما قافلة من هذه القوافل فعدت عليهما
 واتخذتهما بضاعة . حتى إذا عادت إلى نجران من أرض الين باعتهما لرجلين
 من أشراف المدينة . فأما صالح فقد نسيه التاريخ ، وأكبر الظن أنه ذهب
 مع الناهبين في تلك الفتنة المنكرة التي أظلت أهل نجران بعد ذلك بأعوام .
 وأما كيّمون فقد أكرم سيّده مشواه وأفرده حجرة في داره . فكان يعمل
 لمولاه بياض النهار ويقوم للصلاة أكثر الليل . ولاحظ سيّده مرة ومرة
 أن حجرة هذا العبد مضيئة في الليل من غير مصباح . فأنكر ذلك أوّل
 الأمر ، ولكنه استيقنه بعد طول الملاحظة . فلما أصبح دعا اليه كيّمون وسأله
 عن ذلك ، فلم يجبه بشيء . فسأله عما يصنع في حجرته . قال : لا أصنع شيئاً
 إنما أصلي وأذكر الله . قال : فحدثني عن دينك وعن إلهك هذا الذي تعبد ،
 فأني لا أراك تعكف على نخلتنا هذه الطويلة التي نعكف عليها ولا أراك
 تتقدّم إليها كما نفعل بالعبادة والتكريم . قال : وما نخلتكم هذه الطويلة ؟ وأين
 تقع من العبادة والتكريم ؟ ! وإنما هي نخلة كغيرها من النخل تختلف عليها

الأحداث والخطوب لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضرراً، ولو دعوت الله عليها لأراكم فيها ما تكرهون . قال : فافعل فإنك إن تبلغ ما تريد دخلنا جميعاً في دينك . هنالك دعا كيمون ، وإذا ريح عاصفة تقبل فتقتلع النخلة اقتلاعاً وتجتثها من أصلها اجتثاثاً . هنالك آمن السيد بدين العبد ، وأقبل أهل نجران على هذا الشيخ يسألونه ويتعلمون منه . ولم ينتقض النهار حتى كان كيمون قد هدى المدينة كلها إلى دين المسيح . وكذلك استقرت النصرانية في بلاد العرب . وهم أهل المدينة أن يُكرموا كيمون ويُكبروه ويتخذوه لهم سيّداً وإماماً . ولكنه كره ذلك ونفّر منه وفرّ بدينه من المدينة كما فرّبه من الدير وكما فرّبه من القرى . فخرج مهاجراً حتى بعد عن العمران ، وابتنى لنفسه في الصحراء خيمة أقام فيها ما شاء الله أن يقيم منقطعاً للعبادة والطاعة عاكفاً على الدين والذكر والنظر في الإنجيل . والناس يقدّمون عليه من نجران ومن حولها فيعلمهم ويبصّرهم في دينهم ثم يصرفهم عنه في رفق حازم ، لا يرضى منهم لزوماً له ، ولا يقبل ما كانوا يحملون إليه من ضروب الهدايا . وعظم أمر المسيحية في نجران حتى لم يبق من أهلها الوثنيين رجل ولا امرأة ولا غلام ولا فتاة إلا دخل في الدين الجديد . واجتهد فيما كان يأخذه به من عبادة وتقرب إلى الله ، وحتى ضاق بذلك عدد يسير من اليهود كان مستقراً في هذه المدينة ، يعمل فريق منه في التجارة وفريق آخر في الصناعة . فأخذ هؤلاء اليهود يجادلون تصارى نجران في دينهم ويشددون عليهم

النكير ، وينالون شيخهم ومعلمهم بالسنة حدّاد ، حتى اغتاز لذلك النصارى فغضبوا لدينهم . وكان بين فريق منهم وبين اليهود خصام عظيم شره بعض الشيء وارتفع أمره إلى ملك اليمن في صنعاء ، وهو الذي كان يُعرف بنذى نُوَاس .

وكان ذو نواس هذا قد نهض بملك آبائه من حمير بعد فتنة طويلة ملحة ، فجد في جمع الكلمة وتوحيد الرأي وكان قدورث يهودية أبيه تنمّع فحمل الناس عليها حملاً ، وأحيا سنتها وأنفق في ذلك نشاطاً عظيماً ، وأقام حكم التوراة بين أهل المدن وبين القبائل في السهل والجبل . ثم عاوده حلم أخيه حسان فأخذ يفكر في أن يتبها للخروج من اليمن يهوديته لينشرها في الآفاق ويفرّضها على أهل الشرق والغرب . ولم يكن في قصره حَبْران كالذين كانوا في قصر أخيه ، فلم يرده أحد عما كان قد همّ به وتبها له . وإنه لقي ذلك وإذا يهودى من أهل نجران قد أقبل مسرعاً مروّعاً حتى دخل صنعاء وانتهى إلى القصر ، واستأذن على الملك شاكياً باكياً مستغيثاً لليهود ، مستنجداً للتوراة . فلما أذن له ومثّل بين يدي ذى نُوَاس زعم له أن رجلاً من الروم أقبل في قافلة من القوافل فأفسد نجران وما حولها وحمل المشركين من العرب والأعراب على دين المسيح ، وأن هؤلاء النصارى قد اعتزوا على اليهود وعلموا عليهم ، ثم بغوا وطغوا ، وأسرفوا في البغى والطغيان ، حتى أهانوا التوراة ونالوا من داد عنها بالسوء ، وحتى قتلوا من اليهود نفراً وأخافوا من بقي منهم في المدينة . وقد قدّمت عليك أيها

الملك فزعاً مستصرخاً، فأما نصرتنا وإما حوّلنا عن هذه المدينة التي لم يبق لنا فيها مقام . قال الملك وقد أخذ منه الغضب وملكه الغيظ : أفتراني آذن لغير اليهودية من الدين في أن يستقر ببلاد العرب وأنا عظيم حمير ووارث تبع وذو صنعاء ! ثم أذن في الجيش بالرحيل ، وما هي إلا أيام حتى كانت نجران قد أحيط بها . ودعا الملك إليه جماعة من قواده وعظاء جنده ، فأمرهم أن يجمعوا له أشرف المدينة وأهل الرأي والمكانة فيها . فلما حشدوا له حشداً خيراً بين اليهودية والموت . ولم يدع لهم مخرجاً من هذين الأمرين ، ولم يمهلهم ليفكروا أو ليدبروا أمرهم بينهم . وما كانوا في حاجة إلى التفكير ، وما كانوا في حاجة إلى التروية ، فقد ملكت النصرانية عليهم قلوبهم وعقولهم واختلطت بدمائهم . فما أسرع ما أجابوا : أيها الملك ، إذا لم يكن بُدٌّ من الاختيار فإننا نختار الموت . فلما رأى الملك منهم ذلك أمر منادين أن يؤذّنوا في المدينة : ألا أن الملك قد خير أشرافكم بين اليهودية والموت ، فأثروا أن يموتوا ، فأيكم اختار اليهودية وأشفق من الموت فله أن ينحاز إلى الجيش . وطال نداء المنادين وتأذين المؤذنين ، فلم ينحز إلى الجيش أحد . هنالك أمر ذو نواس فاحتفرت الأخاديد ^(١) وجمع فيها الحطب والخشب وألقى فيها الزيت ، وأضرمت فيها النار ، ودفع أهل نجران إليها دفعاً . وهنالك أطلق ذو نواس أيدي حمير في أهل نجران ينالونهم بالقتل والمثلة ^(٢) ويحتازون من أموالهم ونساءهم ما يشاءون . وهنالك جرت الدماء أنهاراً ، وانتثرت الأشلاء

(١) الأخاديد : جمع أخدود ، وهو شق مستطيل في الأرض .

(٢) المثلة (بفتح الميم وضم الثاء أو سكونه) : العقوبة .

انتشاراً ، وارتفع اللمب إلى السماء بنفوس الشهداء .

وفى أثناء هذا كله كان شيخٍ فانٍ ضعيف قد خرج من خيمته وأشرف من مكان مرتفع ، فأخذ ينظر إلى النار ترتفع فى السماء وإلى الدماء تجرى على الأرض ، وأخذ يسمع أصوات المصلين وهم يُقبلون إلى الموت ، وأصوات المعتدين وهم يدفعونهم إليه ، وأخذ يذكر عهداً بعيداً بعيداً جداً ، ويستحضر صورة منكراً منكراً جداً ، رآها أثناء الشباب فى مدينة من مدن البحر جرت فيها الدماء وانتثرت فيها الأشلاء واضطربت فيها النار ، وصلى فيها الشهداء ، وسخر فيها المعتدون . وأخذ الشيخ ينظر إلى هذه الصورة البشعة أمامه ، ويرى تلك الصورة البشعة وراءه ، ويقارن صورة إلى صورة ، ثم تحدّث إلى نفسه فى صوت هادىء رقيق : لقد ضاقت نفسى الشابة بتلك الصورة ففرّرت من المدينة وخرجت إلى الله عن أهلى ومالى ، وما كانت الحياة قد هيأت لى من لذة وأعدت لى من نعيم . وإنى لأنظر إلى هذه الصورة فأحبها وأشتيها ، وأفتنّ بها وأدفع إليها . ماذا !! لقد انحسرت عنى الشيخوخة انحساراً وارتفع عنى الضعف ارتفاعاً وأصبحت شاباً قوياً شديداً النشاط كما كنت منذ أكثر من خمسين عاماً . ماذا !! إن هذه النار المضطربة لتعجبنى ، وإن هؤلاء الذين يقبلون إليها ليدعوننى . ماذا أرى ! هذه النار ولا أسرع إليها ! وأرى هؤلاء الناس ولا أدخل فيهم ! إنى لأجبل طرفى فى السماء من أمام ومن وراء ، ماذا ألتص ! لن أرى ألهة اليونان كما رأيتهم من قبل ينظرون ثم يسكرون ثم يرتحلون . إنما كان ألهة اليونان باطلاً كلهم . وقدمات الباطل ، وما ينبغى له أن يُبعث من جديد . ثم يسعى كيوم هادئاً

متّنداً ، حتى إذا دنا من النار استحال سعيه عدواً واتّاده حركة عنيفة ، وإذا
هو ينضمّ إلى الناس وإذا صوته يمتزج بأصواتهم ، وإذا هو يدخل معهم
في هذا الموت ، ليصل معهم بعد ذلك إلى دار الخلود .

قلت لمحدثي : وكم كان عدد الشهداء من أهل نجران ؟ قال : تحدّث
الناس أن ذا نواس أففى منهم قريباً من عشرين ألفاً ، وأن رجلاً واحداً جدّ
في الهرب حتى أعجز الطالبين فنجوا ومعه إنجيل قد مسّته النار ، فانطلق به
إلى النجاشي يستعينه على الثأر . وكانت هذه القصة آخرة الملك الحميريّ بل
آخرة الملك العربي في بلاد اليمن .



راهب الإسكندرية

أقبل أهل الدير على راهبهم الجديد يحدّثونه ويسمعون منه ، وكان شيخاً قد تقدّمت به السن ، ولكنه احتفظ بقوة ونصرة قلما يحتفظ بهما الشيوخ إذا قاربوا السبعين . وكان وضيء الوجه ، مشرق الجبين ، منطلق اللسان ، عذب الحديث في يوانته الإسكندرية . وكانت تظهر على وجهه وفي حديثه آثار النعمة والغنى ، وحياة الرجل الذى لم يذق بؤساً ولا فقراً ولا هواناً . وكان قد أقبل على هذا الدير الصغير الذى كان يقوم فى طرف من أطراف الصحراء مما يلي الشام حيث تمر القوافل الآتية من بلاد العرب والذاهبة إليها . وكان مقدّمه على الدير حديثاً لم تمض عليه إلا أيام قليلة . وكان قد أقبل يحمل مالا كثيراً فيه ذهب وفضة ، وفيه جوهر وعروض . فلما بلغ الدير استأذن على رئيسه فأذن له . وهناك قدّم إليه ما كان يحمل من المال وقال : اتخذ من هذا المال ما تُصالح به من أمر الدير وأهله ، فان بقي منه فضلٌ فأنفقته فى وجوه الخير والمعروف ، فانى قد خرجت لك عنه كما خرجت لله عن لذات الحياة كلها ، ووقفت ما بقي لى من العمر على الطاعة والعبادة والتفكير فى الدين . ولست أسألك إلا أن تؤوينى فى هذا الدير لأقطع لعبادة الله وانتظار أمره . قال رئيس الدير : أما أنت فقد قبلناك على

الرَّحْب والسَّعة ، وما ينبغي لنا أن نرُدَّ طارقاً يريد أن يشاركنا فيما نحن فيه من ذكر الله والإحسان إلى الناس . وأما مالك فإننا نقبله شاكرين لله أن ساقه إلينا ، فإن حاجتنا إلى المال في هذا المكان المنقطع الذي نحن فيه لا تنقضى . وسترى أن أيماننا وليالينا لا تخلو من هؤلاء الطارقين الذين تنقطع بهم سبل الصحراء فتؤويهم ونُعيمهم ونحملهم ونبدل ما نملك من الجهد لنُبَلِّغهم مأمَنهم . والناس يعينوننا على هذا المعروف بالقليل والكثير ، فنقبل منهم ما يبذلون وننقعه فيما ترى . ثم أوصى به من أهل الدير من علمه ما للجماعة من نظام . فلم يكدهم يمضى بينهم أياماً حتى ألفوه وكلفوا بحديثه وعلموا أن عنده شيئاً ، وأنه ليس كغيره من هؤلاء الذين تدفعهم قوة إيمانهم أو يدفعهم يأسهم مما كانوا يبتغون من المنافع والآمال والذات إلى الدير . إنما كان رجلاً فذاً تدل مظاهره وأحاديثه على أنه نبأ لا كالأنبياء وأمثالهم لا كالآمال . فأخذوا كلما فرغوا من أعمالهم وطعامهم وصلاتهم حين يقبل الليل يطيفون به ويسمرون معه فيتحدثون إليه ويستمعون له . وهم في هذه الليلة يسألونه عن أمره كيف انتهت به الحياة إلى الدير وكيف طابت نفسه عن هذا المال العريض والثراء الضخم ، فنزل عنه كما ينزل عن أيسر الأشياء . قال : إن قصتي لا تخلو من عجب ، وقد تسمعونها فتذكرون منها الشيء الكثير ، ولكني مع ذلك سأحدثكم بها لارغبة في أن أثير العجب في نفوسكم ، ولا في أن أعينكم على إنفاق الوقت ، ولكن نصحاً لكم وإشفاقاً عليكم ، فقد أرى أن أمري يثير في نفوسكم حباً

للاستطلاع قويا متصلا ، يوشك أن يصرفكم عن بعض ما ينبغي أن تفرغوا له ، وما أريد أن أكون مصدر خطيئة مهما يكن أمرها يسيراً . ثم أطرق غير طويل كأنه يفكر ويستحضر أول قصته ، ثم قال : كنا ثلاثة شركاء نصرف بين أرجاء الأرض العريضة تجارة واسعة . وكنا قد اقتسمنا الأرض بيننا أثلاثاً ، فرغ كل واحد منا لواحد منها يدبر شأنه ويصرف التجارة فيه إيراداً وإصداراً . وكنا نلتقي من حين إلى حين ليلقي بعضنا إلى بعض ما انتهت إليه تجارته من ربح ، ولننظم فيما بيننا أمر هذه الثروة التي كانت تنمو فتسرع في النمو ، وتطرد زيادتها الغريبة من عام إلى عام . وكان أحداً قد اتخذ مستقره في روما يدير منها تجارة القسم الغربي من الأرض ، وكان الآخر قد اتخذ مقامه في قسطنطينية يدير منها تجارة هذا القسم من أقسام الدولة في بلاد اليونان وتراقيا وما إليها حتى يصل إلى بلاد السيتين . وكنت أنا قد اتخذت الإسكندرية لى داراً ، وكنت من أهلها . وكانت إلى تجارة الهند وهذه البلاد التي يسكنها البدو والتي تسير منها القوافل فتخترق الصحراء على ظهور الابل والتي يسمونها بلاد العرب . وكانت تجارتنا الواسعة تضطرننا إلى علم دقيق بأمور الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وبأمور الأقاليم والأقطار وما تستطيع أن تعطي وما تستطيع أن تأخذ . وكان هذا العلم يدفعنا إلى نشاط شديد عند رجال المال والزرع ، وإلى اتصال شديد برجال الدين والسياسة والحكم . فأما صاحبي في قسطنطينية فقد كان واسع الحيلة حسن المدخل إلى نفوس الناس حتى استطاع أن يجعل

لنفسه في بلاط قيصر مكاناً ممتازاً . وأستطيع أن أقول : إني جهدت ووقفت في الجهد حتى كان حكام مصر و بطارقتها وقادتها أصدقاء لي لا يكاد أحدهم يصل إلى الاسكندرية حتى تنشأ بينه وبينى أسباب المودة والألفة ، وماهى إلا أن أصبح من خاصته وأصفيائه المقربين . ولم يكن صاحبنا الغربى أقل منا مهارةً ولا أضيق منا حيلةً في التعرف إلى من في الغرب من العظماء والسادة ومن الأشراف والملوك . وكانت أمورنا تجري على خير ما نحب ، إلا من ناحية واحدة كانت تكلفنا عناءً وجهداً لا آخر لها ولا غناء فيها . وكانت هذه الناحية هى ناحيتى أنا ، فقد كنا نلقى مشقةً وعناءً في تدبير تجارة الهند والشرق ، لا نستطيع أن نصل إلى مصادرها ولا أن نأخذها من أهلها بعد الشقة وضعف الأداة وانقطاع سلطان الدولة عند الصحراء . فكنا نتلقى هذه التجارة كما يتلقاها الناس الآن من هذه القوافل التى تحملها إلينا فتقطع بها الصحراء وتنفق في ذلك من الجهد وتحتمل في ذلك من المشقة وتبذل في ذلك من النفقات ما يدفعها إلى أن تغالى في البيع وتشتط فيما تطلب من الربح . وكنا ندع لشططها كما يدع الناس الآن ، لأننا لم نكن نجد كما لا يجد الناس الآن بدءاً من هذا الإذعان . وكنا نسعى في بلاط قيصر وعند حكام الإسكندرية ونلج في السعى نريد أن نحمل الدولة على أن تبذل شيئاً من الجهد لتبسط سلطاننا على الصحراء أو على البحر ، فلم يكن سعيها ينتهى إلى شئ . وإنا لفي ذلك وإذا فرصة تسنح وظروف تهيأ ما كنا لنحسب لها حساباً وما كان ينبغى لنا أن نهملها وقد سنحت وأمكنتنا من العمل : أقبلت سفينة البريد ذات

يوم من قسطنطينية وفيها رسول أرسله صاحبي إلى ينيثني بأن كتابا ذا خطر قد أرسل إلى الحاكم ، ويتقدّم إلى في^(١) أن أتلطّ حتى أعرف من أمر هذا الكتاب ما يعني تجارتنا وألا أقصر إذا عرفت ذلك فيما ينبغي أن أتخدم الوسيلة لتستفيد تجارتنا أعظم الفائدة . فلما قرأت هذا الكتاب غنيت بما فيه . ولم ألبث أن زرت الحاكم ، ولم أنصرف عن مجلسه حتى علمت جليّة الأمر ، وحتى قدّرت لتجارتنا نمواً لا حدّ له . ذلك أن السفينة كانت تحمل إلى الحاكم كتابا من ديوان قيصر يأمره فيه أن يهيّء أسطولا لا يقل عن مائة من السفن ليبحر إلى بلاد النجاشي . وعرفت أن مصدر هذا الأمر إنما هو اعتداء اليهود في أقصى البلاد العربية على إخواننا في الدين وتحرّيقهم بالنار وأخذهم بالوان العذاب ، حتى بلغ الذين قتلوا منهم عشرين ألفاً أو يزيدون . وقد لقيت عند الحاكم أخاً لنا في الدين من أهل تلك البلاد قد استطاع أن يُمثّل من اليهود ومعه مصحف من مصاحف الإنجيل قد مسّته النار . فليجأ إلى النجاشي يطلب منه الغوث ، وأظهر النجاشي حفيظة وغضباً للدين ، ولكنه عجز عن أن يُمثّله ، لأن جنده على قوته وكثرته لم يكن يستطيع أن يعبر البحر إلا على السفن ، ولم يكن عند النجاشي من السفن قليل ولا كثير .

هنالك أرسل النجاشي هذا العربي النصراني إلى قيصر يستنجده ويستعينه ، ويطلب إليه السفن لتجيز جيشه إلى عدوة^(٢) الين . ولم يكد قيصر يرى مصحف الإنجيل وقد مسّته النار ، ولم يكد قيصر يسمع قصة

(١) تقدم اليه بكذا أو في كذا : أمره به وأوصاه . (٢) العدو : الشاطئ .

النصارى وقد خُدَّتْ لهم الأخاديد وحرَّقوا فيها تحريقاً ، ولم يكد قيصر يسمع قصة ذلك القديس اليونانى الذى حمل إلى العرب دين المسيح ، فذاق فى سبيل ذلك الموت محرَّقاً بتلك النار التى حرَّقت غيره من المؤمنين ، حتى ثارت حفيظته وموجده ، وأمر من فوره أن يكتب الحاكم الإسكندرية فى تسيير هذا الأسطول مهما يكلفه ذلك من النفقات . فلما عرفت من الحاكم ومن هذا العربى جليَّة الأمر لم أطل التفكير ، وإنما عدتُ إلى الحاكم بعد ساعات وقلت له : لا عليك ! إنى أريد أن أنهض بهذا الأمر ، وأن أجد فيه وحدى . وأن أريح الدولة مما قد تتكلف فى سبيله من الجند والمال والمشقة . فهذا النجاشى لا يريد إلا سفناً تجهز جنده إلى اليمن ، فدعنى أهىء هذه السفن . قال الحاكم وهو يتسم : لا أرى بذلك بأساً ، فهو يريح الدولة وهو ينفعك وينفع صاحبك ، فما أرى أن هذه السفن ستعود فارغة ، وما أرى أن قوافل الصحراء ستتعب فى عبورها إلى الشام فى العام المقبل ، وما أرى إلا أن أهل البادية سيحسون لذع الجوع . قلت : وإن أهل مصر والإسكندرية سيجدون الثروة والغنى إن وفَّقنا فى هذه الرحلة ، وإن أصحاب هذه السفن إن عادت سالمة موفورة سيعرفون للدولة ورجالها ما ينبغى من الحق . قال الحاكم : فهو ذاك . ولست أستطيع أن أصور لكم تلك الخواطر التى لم تكن تحصى والتى كانت تضطرب فى نفسى اضطراباً كاد يذهلها عن كل شىء . فقد كنت أرى نفسى قائداً عظيماً على رأس أسطول ضخم يبعد فى البحر ليرفع أعلام قيصر على أرض لم تباعها جنودنا من قبل . وكنت أرى نفسى

سائحاً عظيماً يسجل في كل يوم ما شهد وما رأى من غرائب البر والبحر ،
ومن أطوار الناس وضروب الحيوان والنبات . وكنت أقارن بين نفسى
وبين إكسينوفون ، وأرى أن الكتاب الذى سأكتبه عن هذه الرحلة لن
يكون أقل جمالاً ولا روعة ولا خطراً من كتاب إكسينوفون بعد أن عاد من
رحلته المشؤومة . وكنت أرى نفسى ثائراً للدين منتقياً للنصرانية مؤيداً
للمسيح ظافراً بكبار القسس والرهبان والبطارقة فى جميع أقطار الأرض . ثم
كنت أرى نفسى بعد هذا كله مثرياً عظيماً قد ملك البحر ، وقاد مائة
سفينة فارغة ثم عاد بها مثقلة بخير ما تنتج الهند وبلاد البحر السعيدة وبلاد
الاثيوبيين من ضروب التجارة والعروض ، حتى إذا انتهى إلى مصر نشر
تجارته هذه فى الشرق والغرب ، وغمر الأرض كلها بهذه البضاعة ، فيسّر
على الناس من أمرهم كل عسير ، وأتاح للأغنياء المترفين والفقراء البائسين
من وسائل الترف واللذة ما لم يكونوا يحلمون به ، وربح من هذا كله مالاً
لم أكن أفكر فى إحصائه وتقديره ، لأن ذلك كان يسلط على رأسى شيئاً
من الدؤار لم أكن أستطيع أن أثبت له .

ومنذ ذلك اليوم أعرضت عن كل شئ إلا تدبير هذه السفن وتهيتها
للرحيل . فما أكثر ما اشتريت من سفن ! وما أكثر ما ابتليت منها ،
وما أسرع ما بثت أعوانى فى أقطار مصر يجمعون لى من أنواع التجارة
والعروض ما كنت أريد أن أحمله ! فلم تطب نفسى عن ذهاب السفن
فارغة إلى بلاد النجاشى . ولم تمض ستة أشهر حتى ألقع الأسطول العظيم بعد

أن بارك عليه رجال الدين و بمشهد حافل من رجال السياسة والأعمال ومن جماعات الشعب الذين كانوا ينظرون إلينا مبتهجين مستبشرين والذين لم يملكوا أنفسهم أن دفعوا في الجو صيحة هائلة ملؤها البشر والاعجاب حين اندفعت سفننا تشقّ عُبَاب الموج . وقضينا في البحر أياماً طوالاً تطيب لنا الريح فيها أحياناً ، وتتنكر لنا فيها أحياناً أخرى ، ونحن على كل حال مبتهجون مستبشرون نستمتع بما نرى من جمال الطبيعة في هذا البحر الذي لم يألفه اليونان ولم يُدِلّوه لسفنههم بعدُ . ولست أريد أن أسوءكم بأن أصوّر لكم -يا بني- في تلك الأيام التي قضيتها قائداً عظيماً للأسطول العظيم ، والتي كنت أراها أسعد ما كان ينتظر الإنسان من دهره ، فأصبحت أراها الآن أيام شقوة وثقمة وتعس . وأستغفر الله جاهداً مما حملت فيها من أوزار وأثقال ، وأعتقد أني مهما أتكلّف من مشقة في العبادة ومن حرمان في ذات الله فلن أكفر عن بعض ما جنيت فيها من إثم وذنب . وحسبي أن تعلموا أني كنت كغيري من أهل طبقتي ومنزلي في الإسكندرية وغيرها من المدن التي كانت تزهر فيها الحضارة ويسود فيها سلطان الفلسفة والعلم رقيق الدين . قد اتخذت من المسيحية ستاراً لا يكاد يُخفي ما بقي لي من عادات آبائي الوثنيين ، فقد كنت أحب اللذة وأمهالك عليها . وقد كنت أبسط سلطان عقلي على كل شيء فينتهي بي إلى الشك في كل شيء . وكنت أحب وثنية اليونان القدماء ، ولكنني لا أؤمن بها ، وأتكلّف مسيحية اليونان المحدثين ، ولكنني لا أطمئن إليها . وكنت قد اتخذت لنفسى

دينًا قد اتخذهُ أشرافنا وسادتنا لأنفسهم في هذه الأيام . وقوام هذا الدين الشك في كل شيء ، والإيمان بإلهين اثنين هما اللذة والغنى . وعلى اللذة والغنى وقفت حياتي في الإسكندرية . وعلى اللذة والغنى وقفت حياتي حين كنت قائدًا عظيمًا لأسطول عظيم . فكم اصططبت من القيآن والمغنين والشعراء والمضحكين ! وكُم حملت من الكتب والنبذ ! وكُم أنفقت من الحيلة لأتخذ من ألوان الزهر والشجر ما يستطيع الاحتفاظ بجماله ونصرته على بعد العهد واختلاف الجو والإقليم . وتستطيعون بعد ذلك أن تصوّروا لأنفسكم كيف قضيت تلك الأيام الطوال منذ أبحرت من مصر إلى أن بلغت بلاد الإيثوبيين .

هنالك استقبلنا الناس استقبال الفاتحين الظافرين ، فقد كانوا يتحرّقون غيظًا على هذا الملك العربي اليهودي ومن حوله من اليهود . وكانت قلوبهم تدعى حزنًا على إخوانهم المسيحيين الذين فُتِنُوا عن دينهم واستشهدوا في سبيل ذلك المسيح . ولم تكن النار التي كان يُشِيرها الغيظ والحزن في صدورهم أقل من النار التي أذكاها ذلك الملك العربي اليهودي وحرّق فيها إخوانهم في الدين . وما أظن أن أحدًا كره البحر وضاق به وتمنى لو غار ماؤه والتقى ساحله كما كره أولئك الناس بحرهم ذلك الذي كان يحول بينهم وبين عدوهم من اليهود . على أننا أنفقنا أيامًا قبل أن نجيز بالجند إلى بلاد العرب ، فلم يكن بدّ من أن ألقى الملك وأقدّم إليه تحية قيصر وهديته . ولم يكن بدّ من أن أُصرّف تجارتى وأستوثق لما حملت من العروض .

وما هي إلا أيام حتى كانت السفن قد سُحنت بالجند وما يحتاج إليه من عدة وسلاح وفيلة . ولم يكن عبور البحر عسيراً ، ولم يكن النزول إلى أرض اليمن شاقاً . ولم يحتاج الجند إلى كبير قتال ، فإن الملك العربي لم يكذب يرى هذا الجيش الضخم مجهزاً بما كان قد جهّز به من العدة والسلاح ، ولم يكذب يرى هذه الفيلة المروعة الخيفة حتى خاف وارتاع ، ووجه فرسه نحو البحر فاقحمه ولم يعرف الناس له خبراً ، وتفرّق من كان حوله من الجند وعلى رؤسهم أقيال اليمن وأذواؤها ، وخَلَصَت الطريق لنا إلى صنعاء فدخلناها ظافرين ولم نلقَ كيداً . ولم نستقر في صنعاء حتى وجهنا الجند إلى تلك المدينة الشهيدة فنبُلُغها بعد أيام ونرى من آثارها وأطلالها ما يمزق الأفئدة ويذيب النفوس . فما أسرع ما يعمل الجند ! وما أسرع ما يسخر اليهود ! وما أسرع ما تقام المدينة ، وما أسرع ما تقام فيها البيع والكنائس ، وما أسرع ما ينادى في الناس أن مدينة المسيح قد رُدَّت إليه ، وأن أهلها الذين فرقهم الخوف آمنون ! . وما أسرع ما حُمِل كثير من أهل اليمن على النصرانية حملاً ! وما أسرع ما دخل كثير من أهل اليمن في النصرانية راغبين أو راغبين ! . ونعود إلى صنعاء وقد ثارنا للدين وأقمناجران على خير ما كان ينبغي أن تقام عليه مدينة من المدن .

وأخذت بعد ذلك أفكر في العودة إلى مصر . وأخذت قبل كل شيء أفكر فيما ستشحن به السفن من التجارة والعروض ، وجعلت أتهيأ لذلك وأهيء له ، وتحدثت فيه إلى قائد الجيش فلم يمانعني ولم يَأْبَ عليّ ، بل

تقدّم في ذلك بخير ما أحب . ولكنه طلب إلى الأأعود بالسفن كلها إلى مصر ، فقد تطلّأ الطواريء وتعرّض الأحداث ويحتاج جند اليمن إلى العبور إلى بلادهم أو يحتاج أهل الحبشة إلى العبور إلى إقليمهم الجديد ، فلا بدّ لهم من سفن مهما تكن قليلة يستعينون بها على مثل هذه الشؤون . فدع لنا بعض أسطولك ونحن نعوّضك عنه بما شئت من المال والعروض .

وكذلك تمّ الاتفاق بينه وبينى على أن أنزل له عن ثلث الأسطول وأعود بثليته ، وقد حمّلتها ما استطاعا حملة من تجارة تلّكم الأقطار . ويتم كل شيء وتقلّع سفن الأسطول كلها إلا سفينة القائد العظيم ، فإنها تنتظر أن أصل إليها لتأخذ طريقها إلى مصر . ولكن حدّثاً يحدث فيغيّر كل شيء ويقطع بينى وبين الأسطول كل سبب ، ويصرفنى عن التجارة كارهاً أعواماً طوالاً . ماذا أقول ؟ ! بل يصرفنى عن نفسى أعواماً طوالاً .

فقد كان قادة الجند منذ استقرّ لهم الأمر في هذا الإقليم الجديد يخطفون بينهم اختلافاً شديداً : ايكثفون بهذا الفتح الذى وُقِّعوا إليه ، وهذا الثأر الذى ظفروا به ، فقد أرضوا الملك حين بسطوا سلطانه من وراء البحر وأرضوا الله حين انتقموا لعباده الشهداء ، أم يحملون الناس على دين الملك حملاً ، ويمحون اليهودية والوثنية من هذه الأرض محواً ؟ . فأما قائد الجيش أرباط فقد كان صاحب سياسة وكيد ، وكان يرى الرأى الأوّل وينظر إلى هذا الإقليم على أنه مستعمرة قد ضُمَّت إلى أملاك النجاشى فيجب أن تُستغلّ أرضها وأن يُستذلّ أهلها ، ويسخروا لخدمة سادتهم الفاتحين . وأما غيره من زعماء

الجيش ، ولا سيما عظيمهم أبرهة ، فقد كانوا أحاب نسك وطاعة ودين ،
وكانوا يضعون النصرانية في المكان الأوّل ولا يكادون يحفلون بالسياسة
واستعمار الأرض . وكانوا يريدون أن يفرضوا النصرانية على الين فرضاً .
وتقدموا في ذلك الى قائدهم أرياط فأعرض عنهم وأبى عليهم . وماهى إلا أن
ينقضوا عليه الجيش ، وماهى إلا أن ينظر الرجل فإذا هو مضطّر إلى أن
يضرب بعض الحبشة ببعض . ويُعجبني أنا ما أرى ، فأبقى لأشهد عاقبة هذا
الخلاف . ولست أدري كيف استحالت مسيحيتي الرقيقة إلى إيمان قوى
متين . والحق أنى سألت نفسى فأطلت السؤال عن مصدر هذا التبديل
الذى أخذت أحسه منذ وطئت قدماى أرض الين . وأكبر الظن أن منظر
تلك المدينة البائسة التعسة وما كان قد أصابها من الخراب والدمار لأن
أهلها ثبتوا على دينهم ، ثم ماناها في وقت قصير من التجديد والعمران لأن
قوماً آخرين قد أرادوا أن يثأروا لدينهم - أكبر الظن أن هذا كله قد
أثار في ضميرى على غير شعور منى إعجاباً بقوة هذا الإيمان الغريب الذى
يحمل ألوفا من الناس على أن يستقبلوا الموت ويتهافتوا في النار فرحين
مبتهجين كأنهم الفراش ، والذى يححو مدينة من الأرض محوا ثم يقيمها
رفيعة العماد شاهقة البنيان معمورة بالناس ، كأن الدهر لم ينلها بمكره .
فانصرفت نفسى شيئاً فشيئاً عن هذه الحياة التى كنت أكرها والتى أصغرها
هؤلاء المؤمنون . ومهما يكن من شىء فقد أخذت أحسن حباً لهذه الأرض

الجديدة وميلاً إلى البقاء فيها وعطفاً على هؤلاء الزعماء الذين كانوا يريدون أن يُعلوا كلمة الحق ويأخذوا الناس بدين المسيح راضين أو كارهين . وإنى لنفى هذا كله وقد اشتد الأمر بين الجيشين المختصمين ، وإذا رسول أبرهة يقبل على أرياط ليلبغه أن صاحبه يكره أن يقتل الجيشان وأن تسفك دماء الأبرياء ، ويقترح عليه المبارزة فأيهما ظفر بصاحبه كان الأمر إليه . فيرى أرياط في هذا الاقتراح قصداً ورقفاً وإنصافاً فيقبله ويحجب إليه . ويزداد في نفسى الحرص على البقاء لأشهد عاقبة الأمر ، وقد شهدتها فأكبرتها : التقي الخصمان وبطش أرياط بعدوه ، ولكن الحربة لم تقتله وإنما شقت جبهته وأنفه وشفته . ويسرع عبدٌ لأبرهة فيضرب أرياط فيرديه . ويجتمع الحشدة على هذا الزعيم الذى كان يريد أن يكسب أهل اليمن لدين المسيح . هنالك وقع فى نفسى أن هذه العاقبة ليست من عمل الإنسان ولا من المصادفة ، وإنما هى شئ قضاء الله لأمر يراد . فتشتد فى نفسى الرغبة فى أن أطيل البقاء بهذه الأرض لأشهد الصراع المحتوم بين المسيحية من ناحية واليهودية والوثنية من ناحية أخرى . وكنت مع ذلك أنازع نفسى نزاعاً شديداً ، ولكنى لم أكّد أتحدث إلى أبرهة حتى استقر رأيى على البقاء ، فأرسل رفيقائى إلى سفينة القائد ليقيم بالأسطول على مصر ، وقد أوصيته ، وأحكمت أمرى له إحكاماً . ثم أبقي لأرى ما كان الله قد قدّر لى أن أراه . وهنا أذن مؤذن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى مجراتهم فنفرقوا ، وكل كانوا يودّون لو مُدّت لهم أسباب السمر والحديث .

وأنفق أهل الدير بقية ليلهم بين جاهد في العبادة ومغرق في النوم .
وأنفق أهل الدير بياض نهارهم بين مصلّي لله ومحسن إلى الناس . فلما
جَنَّهُم الليل وهدأت من حولهم الأشياء واتخذت الصحراء جلالها الرهيب ،
عادوا إلى مجلسهم يسمّرون وسألوا صاحبهم أن يتم عليهم ما بدأه أمس من
الحديث . فقال : تمت عزيمتي بعد طول التردد والتفكير على الأوبة
إلى مصر وانتصر في نفسي حب الوطن على حب هذه الأرض الجديدة ،
وظهر في نفسي حب اللذة والغنى على هذا الميل الجديد إلى النسك والجهاد
في سبيل المسيح ، فأقبلت على أبرهة من الغد أودّعه قبل الرحيل . ولكني
لم أر قائداً ظافراً ، ولا ملكاً منتصراً ، ولا رجلاً يزدهيه الفوز ويحيي نفسه
الأمل ، وإنما رأيت رجلاً متهدماً محزوناً كثيراً قد فكر حتى عجز عن التفكير ،
وقدّر حتى أعياه التقدير ، فأسلم نفسه لقضاء الله فيه كأنه الغريق أعيته
مكالحة الموج ، فاستسلم له وانتظر الموت . ولم أكد أتحدّث إليه حتى
عرفت مصدر ما هو فيه من همٍّ وغمٍّ ومن كآبة وبؤس . فقد كان مستيقناً
أنه أغضب الله ، وأحفظ الملك ، وأساء إلى الناس . ألم يكن قد بغى على
قائده واعتدى عليه في غير حق ولا إذعان لما تقدّم به الملك إلى الجند
من الطاعة لقائده ، والنصح لخليفته فيه ؟ فكيف استباح لنفسه أن ينتصف
لرأيه بيده ، وأن يفرض هذا الرأي على الجند فرضاً لا يرجع في ذلك إلى
أمر من الملك ولا ينتظر في ذلك رأى الملك بعد أن يرفعه إليه ! . وكيف
استباح لنفسه أن يقتل رجلاً من النصارى ويسفك دمه ظلاماً وبغياً لالشئ

إلا لأنه لم يوافقته في الرأي ولم يشاركه في الهوى . وقد كان هذا الرجل مع ذلك نصرانياً مثله يؤمن بالمسيح ويصلى لله ، وقد ثار للدين من عدوه ، ورد المطرودين من النصارى إلى وطنهم ، فأظلمهم بسلطان واسع رفيق من الرحمة والعدل والإنصاف . ثم هو لم يقف من العدوان والإثم عند هذا الحد ، ولكنه ابتهج بما أُتيح له من الانتصار والظفر ، فلم يكدرى خصمه صريعاً تحت قدميه حتى التفت إلى عبده الذى قتل أرباطاً شاكراً له مغرقاً في الثناء عليه قائلاً له : احتكم فأنا زعيم لك بكل ما تريد . وقد احتكم العبد ، فأسرف على نفسه وعلى مولاه ، وطلب إلى سيده أمراً عظيماً : طلب إليه أن يحكمه في أبكار البن كافة ، فلا تُزَفِّ واحدة منهن إلى عروسها حتى تمر به قبل الزفاف . ولم يشعر أبرهة بعظم هذا الأمر الذى طلبه إليه العبد لأن نفسه كانت شملةً بهذا الفوز ، معرضة عن كل شيء غيره ، فأجاب العبد إلى ما أراد . ولم يقدّر أنه قد عصى الله بهذا الإثم الذى اقتترفه وأقدم على إذلال أمة لم تعرف الذل ، وما كان لها أن تعرفه . ولكن أمر هذا العبد لم يكدر يعرف في الناس حتى انتهى إلى نتيجته المحتومة فلم يحى العبد بعده يوماً كاملاً : لم يكدر يلقاه أول من عرف هذا النبأ من حَمِير حتى عدا عليه فقتله . فكان أبرهة إذاً حين لقينته مُتعباً مكدوداً مضطرب النفس حاراً غارقاً في ندم عميق . وجعلت أرده إلى نفسه قليلاً قليلاً وأجدلاً لا في تهوين الأمر عليه ، فلم يكن أمره هيناً ولا يسيراً ، بل في التقريب بينه وبين الرشد والصواب ، لعله يعود إلى التفكير والتقدير ولعلّ أستطيع أن أعينه على أن

يجد لنفسه مخرجاً من هذا المأزق الذي اضطرَّ إليه . فقد كان عظيماً حقاً
أن تذهب كل تلك الآمال والأمانى التي ملأت نفس هذا الرجل وأصحابه
من قواد الجند ، ودفعتهم إلى مادفتهم إليه لينشروا كلمة الله ، وليدولوا^(١)
للمصرانية من وثنية الوثنيين ، ويهودية اليهود . وما زلتُ به ألاينه حيناً
وأخاشنه حيناً آخر حتى هدأت نفسه بعض الشيء واستطعنا أن ننظر إلى
الأمر في روية وتبصُّر ، وأقنعتُه بأن يبدأ بما لا بدَّ من الابتداء به ، فيُرْضَى
هؤلاء الناس الثائرين الذين أحفظهم وأثار في نفوسهم الحمية حين حكم عبداً
من عبيده في أعراضهم وكرامتهم . وماهى إلا أن يسمع لى ويقبل رأيي ،
وإذا هو يدعو إليه من حضره من أشراف حمير ، فيعتذر إليهم ويثنى عليهم
ويهنئهم بما أظهروا من عزة وإباء للضميم ، ويقسم لو قد عَزَف نية العبد لما
حكمه ، بل لا كُتِفِي بما يكتفى به الناس في مثل هذه الحال ، فأعتق العبد
وأغناه وردّه إلى بلاد الحبشة راضياً مسروراً . فآه ! وقد قتل هذا العبد نفسه
فلا عليكم ولا علىّ ، فقد ظهر لى أنكم أحرار كرام ، وسيظهر لكم أنى حرٌّ
كريم وأن المودة بينكم وبينى لن تسوءكم ولكنها ستسركم وتقرّ أعينكم ،
وستشعرون بأننى لأملك بلادكم لنفسى ولا للنجاشى مولاي ، وإنما أملكها
لكم قبل كل شيء : أصالح من أمرها وأمركم ، مستعيناً بكم على هذا
الإصلاح . فن رأى منكم أن يشير علىّ بشيء فليفعل مشكوراً واثقاً بأننى
سأقدر نصحه وأسمع لمشورته ما وجدت إلى ذلكم سبيلاً .

وكان لهذا الكلام الابن الرفيق موقعه في نفوس هؤلاء الأشراف من

(١) يقال : أدال الله فلاناً من فلان إذا أخفّره به وجعل الكبرة له عليه .

حمير الذين كانوا ينتظرون غضب أبرهة عليهم وانتقامه منهم . فلما رأوه
 ملأيناً محاسناً ، لا ينوه وحاسنوه وأظهروا ثقة ورضاً واطمئناناً ، ووعدوا
 بالنصح له والطاعة بأمره ، كما كانوا يفعلون مع ملوكهم من أبناء تمع . وبالف
 أبرهة في استرضائهم ، فأجزل العطاء ونظم الصلوة بينهم وبينه على خير ما يحبون .
 ثم خلا إلى فقال : لقد جئتنى مودعاً فيما أذكر لأنك تريد العودة إلى بلادك .
 قلت : نعم ، فقد طالت غيبتى عن الوطن والأهل والمال . قال : فأنى مع
 ذلك لن أذن لك فى الرحيل . قلت : وما ذاك ؟ قال : ذاك أنك رددتني
 إلى نفسى وأشرت علىّ فأحسننت المشورة ، وما أرى أنى أستطيع فراقك
 منذ اليوم ، فأنا فى حاجة إلى رأيك وتديرك ومعونتك لى على ماسيعرٍ
 من الخطوب والأحداث . وقد رفعت عنى بعض الثقل ، وفرجت عنى
 بعض الحرج ، وأصلحت ما بينى وبين أهل هذه الأرض . ولكن الملك
 واجد علىّ وناقم منى ، ليس فى ذلك شك ولا ريب ، ولا بدّ من أن يسأل
 ما بينى وبينه علىّ أى نحو من الأنحاء ، وليس لى غنى عن نصيحتك قبل
 أن تستقيم بينه وبينى الأمور . وهبها استقامت على ما أحب وأهوى فإن
 بينى وبين نفسى خصومة عنيفة لا أقوى على حملها وحدى ، فأعنى على
 نفسى ببقائك معى ، فلعلك إن فعلت أن تعيننى على أن أنفق حياتى فى
 إصلاح ما بينى وبين الله بعد أن أثمت فأسرفت فى الإثم ، وعدوت فأسرفت
 فى العدوان .

وكنت كلما هممت أن أجيبه مضى فى حديثه ملحاً فيه ، ولم يمكّننى

من الكلام . وكان يقول : لقد أقدمت على ما أقدمت عليه من الأمر وإن
في نفسي لآمالاً كباراً ، فلم أكن أريد أن أكسب هذه الأرض وحدها
لدين المسيح ، وإنما كنت أريد أن أنشر هذا الدين في جميع هذه الأقطار
التي لا تصل إليها أيدي الملوك ولا يبنسط عليها سلطان قيصر وكسرى
والنجاشي . فما يمنحك أن تعينني على ذلك وتشاركني فيما سأبذل فيه من
جهد ، وما سأحتمل فيه من عناء ، وما سألقى عليه من أجر وجزاء ؟ ! وكان
يقول : ولست أرى على تجارتك بأساً ، وإنما أرى لها الربح كل الربح
والنحو كل النحو ، فما يمنحك أن تقيم هنا حتى تنظم الصلة بين بلادنا وبلادك
فتكسب أنت ، ونكسب نحن ، ويستفيد الناس جميعاً ؟ !

كل هذا الحديث المختلف أثر في نفسي وغير رأيي وعزيمتي وأغراني
بالبقاء ، وفتح لي أبواباً من الأمل والنشاط لم أقدر قط أني سألجها في
يوم من الأيام . فقد رأيتني محتكراً لتجارة الهند وبلاد العرب ، ورأيتني
وزيراً لملك إلا يكن عظيماً الآن ، فسيكون عظيماً من غير شك بعد وقت
قصير . ورأيتني سفيراً مقبلاً لقيصر عند هذا الملك وهند النجاشي ، أستطيع
أن أسير سياستهما فيما يرضى مصالح الروم ومراقبتهم وتفوقهم السياسي على
عدوهم من الفرس . وما هي إلا أن أقبل الإقامة مع أبرهة ، ولو إلى حين .
وتنضي أيام ، وإذا أبناء النجاشي تصل إلينا خيفة مروعة . فلم يكديعلم
بما كان من اضطراب الجند وقتل قائده أرباط حتى أقسم لا يستقر قبل أن يسفك
دم أبرهة ويطأ أرضه . ويخلو إلى أبرهة للتشاور والتدبير . فيتفق رأينا على

أن نحلّ الملك من قَسَمِهِ بِحِمْلَةٍ من الخيل وفن من فنون المكر ، فإن أفلحنا فذاك ، وإلا نصبنا له الحرب ، وقطعنا ما بينه وبيننا من صلة . وأنى ليده أن تمتد إلينا والبحر بيننا وبينه ، والسفن خالصة لنا من دونه ! ثم يفتصد أبرهة ويضع دمه في قارورة ويملاً جراباً من تراب اليمن ، ويرسل دمه وتراب اليمن إلى الملك معتذراً إليه ما وسعه العذر ، مجدّداً طاعته مؤكداً وفاءه قائلاً : « هذا دمي فليسفكه الملك ، وهذه أرضي فليطأها الملك ، تحمّلةً له من قسمه ، وله علىّ بعد ذلك ألاّ أورد ولا أصدر إلا عن أمره ورأيه ورضاه » .

وقد أعجبت الملك حيلتنا هذه فيرضى عن قائده ويقرّه على عمله . ونفرغ نحن لما كنا ندبّر من الشؤون . وكانت عزيمة حقاً تلك الشؤون التي كنا ندبّرّها ، فلم نكن نطمع في أقل من أن نردّ إلى بلاد اليمن منها القديم وشرائها الذي بعد صوته في الآفاق ، وفي أن نجعلها خالصة للنصرانية ، وفي أن نبسط سلطانها على بلاد العرب كافة . وكنت أداعب في نفسي حلمًا لذيذًا ، لم يلبث أن أصبح أملاً تدفعنا إليه ظروف الحياة دفعاً . فقد كنت أفكر في أن أنشر سياسة قيصر وسلطانه مع دين المسيح ، وفي أن أصل بين ملك قيصر في الشام وحلفاء قيصر في اليمن ، وفي أن أخضع ما بين هذين القطرين من الأرض لسلطان إن لم يكن خالصاً لقيصر فهو شركة بينه وبين حليفه النجاشي ، وهو على كل حال معين لقيصر على عدوّه كسرى . ولم أكن أصارع أبرهة بهذه الأحلام والآمال حتى اضطررتني الظروف إلى أن

أصارحه بها ذات يوم حين أقبل السفراء من عند كسرى فأنبؤا بأن الحرب قد شبت بين الفرس والروم ، وطلبوا إلى أبرهة أن يمين على الروم بما يملك من قوة وتأيد . هنالك صارحت صاحبي ، ولم أجد مشقة في إقناعه برأيي وحمله على ما كنت أريد . ألم يكن يجمع بيننا وبينه الدين !

على أننا فرغنا قبل كل شيء لأموال اليمن ، فجددنا من عماراتها المتداعية ، وأقمنا سدودها المتهدمة ، ونظمنا مجارى الماء فيها تنظيماً حسناً ، واجتهدنا في نشر الدين ما وسعنا ذلك . لا نشقُّ على الناس ولكن نأخذهم باللين والرفق . وأقمنا كنيسة في صنعاء لم يعرف أهل هذه البلاد مثلها ضخامةً وفخامةً وجلالاً وجمالاً وزخرفاً ، جلبنا لها المرمر من أطراف الأرض ، ودعونا لها العمال من قسطنطينية ، وحلبناها بالذهب والفضة والجوهر ، وحرقنا فيها من الطيب والبخور ما كان ينتشر عرْفه إلى أماكن بعيدة حول صنعاء ، ورببنا لها القمس والأحبار ، ورغبنا الناس في أن يختلفوا إليها ويصلوا فيها ، وقدّرنا أن نقيم أمثالها في أماكن مختلفة من هذه البلاد . ولكن العرب أهل وثنية ولجاج في الوثنية ، كانوا يكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف ، ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتآبى نفوسهم الاستجابة له . وكان الذين يختلفون إلى كنيستنا قليلين مهما يكثرُوا ، وكانوا جميعاً من ضعفاء الناس وفقراءهم وأصحاب الحاجة منهم . على أننا لم نستيس وأخذنا نهى أمورنا ونرغب الوفود في طاعتنا . حتى لقد دعا أبرهة إليه عظيماً من عطاء العرب في هذا الإقليم الذى يسمونه تِهامة ، فأكرم مشواه

وأعظم أمره وتوجه ملكا على قومه ، وردّه عزيزاً مكرماً . وفي ذات يوم رفع إلى أبرهة أمران ضاق بهما أشد الضيق وخرج لهما عما كان قد أُنِف من الحلم والأناة ، أصبح سدنة الكنيسة فرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم ، رأوا كنيستهم قد لَطَّخت بالقاذورات وألّقت فيها الجيف وانتهكت حرمتها . فثاروا بذلك ورفعوه إلى أبرهة ، وزعموا له أن هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من تهامة حيث يقوم لهم بيت هناك يقدّسونه ويحجّون إليه ويسمونه الكعبة . والعرب كلها تحب إليه ، وتُعظم أمره ، وتعظم الذين يعيشون حوله من هذا الحى الذى يُسمى قريشاً والذى يتجر بين بلادنا وبلاد الشام . فلما سمع الملك ذلك غضب أشد الغضب وأقسم ليهد من هذا البيت ، وليحملن العرب على أن يحجّوا إلى كنيسته بالسيف بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . ولم يكد النهار يتقدّم حتى رُفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذى أرسله إليهم ملكا . فطار طائرته ، وثار ثائرته وأذن من فوره بالتجهّز للحرب والاستعداد للرحيل . وأرسل إلى النجاشى ينبئه بذلك ويسأله أن يمدّه بالجنود والفيلة . وما هى إلا أيام حتى تهيأ له جيش ضخم قوى ، وحتى فصلنا عن صنعاء يملؤنا الأمل وتردهينا الكبرياء . وكنت أتحدث إلى أبرهة بأننا سنقطع هذه الطريق على طولها فى غير مشقة ولا جهد وبأننا سنصل بين الشام واليمن ، وبأنى سأستقبله ضعيفاً فى بلاد قيصر ، كما استقبلنى ضعيفاً فى بلاد النجاشى . وكان جيشنا يعظم ويضخم كلما تقدمنا فى

الطريق بمن كان ينضم إلينا من أذواء اليمن وأقيالها . ولاكن طريقنا لم تخل مع ذلك من العقاب ^(١) ، ولم تكن أمناً كلها ، فقد نصب لنا الحرب جماعة من أقيال اليمن على رأسهم رجل يقال له ذو نَرٍّ غيرةً على وثنيهم وحفيظةً لبيتهم ذلك ودفاعاً عن حلفائهم من قريش . ولكننا هزمناهم في غير مشقة ، وأخذنا رئيسهم أسيراً . وهمَّ الملك أن يقتله ، ثم رقَّ له وعفا عنه واستبقاه في أسره . ومضينا أمامنا لا نلقى كيداً حتى كدنا نبلغ تهامة اليمن ، وإذا حيٌّ من أحيائها قوى عظيم البأس متسلط على الأرض ، متحكم في الطريق وفي القوافل التي تقطعها ، يقال له خُثَم ، قد جمع حربنا ، وغرَّه عدده فخيَّل إليه أنه سيقهرنا كما تعود أن يقهر الناس من قبل ، ولكننا قهرناه في أقصر وقت وأيسر جهد ، وأخذنا رئيسه رجلاً يقال له نُفَيْل بن حَبِيب أسيراً . وهمَّ الملك أن يقتله ولكنه استعطف وغلا في الاستعطاف حتى ظفر بعنق الملك ، وتقدَّم مع الأدلاء ليسلكوا بنا طريق هذا البيت الذي كنا نقصد إليه . ونمضى في طريقنا لا نلقى كيداً وقد هابتنا العرب وختَّت لنا الطريق وأعظمت أمرنا إعظاماً . حتى إذا دنونا من مكة ، وبلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف تقوم على مرتفع من الأرض عظيم ، ومن حولها النخيل والكروم والحدائق فيها أنواع الفاكهة والشر ، كأنها مدينة من مدن الساحل الشامي قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة المجربة فأقامت فيها مشرفة زاهية كأنها الابتسامة الجميلة في الوجه المظلم الكثيب هنالك خرج إلينا

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهي طريق في الجبل وعر . ويكنى بها عمال يعترض الانسان من المشاق والمصاعب .

أهل هذه المدينة فقدّموا الطاعة وأظهروا الخضوع وبعثوا معنا رجلاً منهم
يسلك بنا إلى مكة أقرب طريق. ونمضى أماننا حتى نبلغ مكة، فنيخ الجيـش
ليستريح قبل أن يأخذ في الهجوم. ويأتى سفراء القبائل إلى الملك من كل
مكان يقدّمون إليه طاعتهم ويعرضون عليه ثلث أموالهم، ويطلبون إليه أن
يدع بيتهم هذا لا يمسّه بسوء. فلا يسمع الملك منهم، ولا يحفل بهم. ثم
يرسل الملك طلائعهُ فتغير على ماحول مكة من الأرض وتستاق كل ما تجد
فيه من مال. حتى إذا كان الغد أرسل الملك جماعة من أصحابه إلى مكة
وكلفهم أن يسألوا عن سيّدّها وعظيمها، فإذا لقوه أنبئوه بأن الملك لا يريد
قتلهم ولا حربهم وإنما يريد أن يهدم هذا البيت، فإن خلّوا بينه وبين
البيت فهم آمنون، وإلا فليأذّنوا بحرب تسحقهم سحقاً. وأمر الملك سفراءه
أن يأتوه بعظيم قریش إن أظهر الموادعة والميل إلى السلم. ويمضى السفراء
ثم يعودون ومعهم رجل عظيم وسيم جسيم، لم أر قط أجمل منه، ولا أملاً
للعين، ولا أوقع في القلب ولا أشد مهابة وجلالا. حتى إذا بلغوا به سراق
الملك دخلوا يستأذّنون له. ويسأل الملك عنه فيقال له: هذا عبد المطلب
سيّد قریش وصاحب غيرها، أعظمها شرفاً، وأعلاها مكانة، وأكرمها
نفساً، وأسخاها يداً، يطعم الناس في السهل، ويطعم الوحوش في رءوس
الجبال. وكنت عند الملك حين أدخل عليه هذا الرجل. ورأيت الملك ينظر
إليه فيكبره ويعظمه ويلقاه بالتجلّة والكرامة، ويهمّ أن يجلسه معه على
السريّر، ولكنه يشفق أن تنكر الحبشة ذلك، فينزل عن سريّره ويجلس
مع هذا الرجل على البساط. ثم يكلف الترجمان أن يسأله حاجته. فما أشدّ

ما عجب الملك حين فسّر الترجمان له جواب سيد قريش . قال : حاجتي أن تردّ إلى مائتين من الإبل أخذتها طلائعك فيما أخذت أمس من المال . قال الملك مستهزئاً : لقد أعظمتك حين رأيته ، فاني لأصغر من شأنك الآن . لقد كنت أظن أنك ستحدثني في بيتك هذا الذي أريد أن أهديه والذي هو دينك ودين آبائك ، وشرفك وشرف آبائك ، فإذا أنت تحدثني في مائتين من الإبل ! . قال سيد قريش في صوت الهاديء الواثق المطمئن : أنا رب الإبل ، وَلَا حَدُّكَ فيها ، فأما البيت فإن له ربّاً سيمنعه . قال الملك : لن يمنعه مني . قال سيد قريش : فأنت وذاك . وأمر الملك أن تردّ إلى الشيخ إبله ، فردّت إليه . ولكنني تبعته لأرى ما يكون من شأنه ، فإذا هو لا يقبض هذه الإبل إلا ليرسلها هدياً إلى هذا البيت الذي لم ير دُ أن يتحدث إلى الملك فيه . ويمضي هذا الشيخ إلى قومه من قريش فيأمرهم أن يتفرّقوا في الشعاب وعلى رؤوس الجبال هرباً من الملك وإشفاقاً من معرّة الجيش ، ويقوم أمام بيته هذا الذي يعظمه وقد أخذ بحلقة بابه ومن حوله نفر من قومه ، ويقول كلاماً حسن الانسجام ، شديد الوقع في النفس ، سمعته فأحببته ولكنني لم أفهمه ، على أنّي كنت قد أخذت أحسن هذه اللغة . ثم يرسل حلقة الباب ويمضي مع من كان يصحبه من قومه فيتحصن في شعب من الشعاب . وأنظر أنا إلى هذه المدينة ، فإذا هي قد دخلت من أهلها ، وقامت بيوتها هادئة ساكنة يظللها حزن عميق فيه هيبة وجلال ، قامت يظللها هذا الحزن ، ولكنني لم أكن أرى في هذا الحزن خوفاً ولا إشفاقاً من معاول

المهادين . وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة ، فيهمّ الجيش أن يتحرك
 وفي مقدمته فيل عظيم ، ولكنى أرى دليلنا نفيل بن حبيب الخثعمى يدنو
 من الفيل فيأخذ أذنه ويُسِرُّ فيها كلاماً ، ثم يرسلها ويشد هار بأفى الجبل .
 وتثير حركة هذا الرجل فى نفسى شيئاً من العجب ، فما علمت أنه يعرف منطق
 الفيلة ، وما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب . عجبت ، وليت عجبى لم يتجاوز
 هذه القصة . ولكنى رأيت بعد ذلك ما يقضى على كل عجب : رأيت بعد ذلك
 أشياء ما قدرت قط أنى سأرى بعضها . رأيت بعد ذلك أشياء وددت لو لم أرها
 قط . وإنى على ذلك لسعيد أشد السعادة معتبط أشد الغبطة ، لأنى رأيتها .
 فهى التى هدتنى إلى الحق وهى التى كشفت عن نفسى الغطاء . رأيت الفيل
 قد برّك ، حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ، حتى إذا وجهوه إلى
 مكة برّك من جديد . ويجدّ ساسته بعد ذلك فى إنهاضه فلا يبلغون منه
 شيئاً . يحثونه ويؤذونه ويضربونه ويبلغون به أقصى ما يهيج الفيل ، فلا
 ينهض ولا يهجم بالنهوض ، حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو
 الشرق نهض ومضى مُهَرِّولاً ، فاذا أداروا رأسه نحو مكة برّك ولم يتقدم أمامه
 أصبغاً . ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا العجب ، وأخذ الدهش من نفوسنا
 كل مأخذ ، وبدأ الخوف يلعب بقلوبنا وبدأ الذعر يطلق بعض الألسنة
 بالرغبة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت . وإننا لفى ذلك ننظر إلى
 الساسة وهم يعالجون الفيل ، وإذا الجوّ يظلم شيئاً فشيئاً وإذا سحاب كثيف
 يبدو لنا من بعيد قد أقبل إلينا مسرعاً من ناحية البحر ، فلا نكاد نطيل النظر

إليه حتى تبين ، وياهُوْلُ ما تبين ! لسا نرى سحابا كالسحاب ، ولا غماما كالغمام ، وإنما نرى سحابا حيا يخفق بأجنحته خفقا ، ويبعث منظره في نفوسنا روعا يخرجننا عن أطوارنا ، وينتهى بنا إلى شيء يشبه الدهول . إني لأرى الآن هذا السحاب حين كان يُقبل علينا أسرابا من طير صغار لها مناقير الطير وأكف الكلاب ، حتى إذا دنت منا أخذت تحصب الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها في مناقيرها وأرجلها . ولم تكن هذه الحجارة تبلغ دقة العدسة ولا عظم الحصاة وإنما كانت شيئا بين بين . وكانت على دقتها لا تمس شيئا إلا هشمته تهشما ، ولا تمس رجلا إلا ألقته صريعا .

وسلوا ماشتم عن خوف الخائفين وذعر المذعورين وانصرف أصحاب الفيل عن الفيل ، وتحوّل الجيش عن مكة إلى غيرها من الوجوه جادا في الهرب ، وهذه الأسراب من الطير تتبعه تحصبه بهذه الحجارة وتملأ الجو من حوله بصياح خفيف . ولست أدري كيف انتهى أمرنا ، ولا كيف نجونا من هذه الطير . ولكنني أراني مجددا في الهرب ، ومن حولي قوم يجدون مثلي في الهرب وقد حملوا رجلا مريضا سيء الحال . حتى إذا انقطعت أصوات الطير ونظرنا فلم نرفى السماء شيئا ، أخذت أسأل عن نفسي ، وعن حولي ، وعن الجيش ، وأخذت أسأل عن هذا المريض الذي أراه محمولا يتأذى ، فاذا هو أبرهة قد مسه حجر من تلك الحجارة فضرع وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلا قليلا لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديد منكر قبيح . كم تأذى هذا الرجل ، وكم احتمل

من ألم في نفسه وجسمه ! وكم ذاق مرارة الندم ولذع الحسرة والوعه ! إلى
لأراه حين بلغنا صنعاء وأدخل إلى قصره ليمرّض فيه وقد هزل ومسه
الضر، حتى لكأنه فرخ من فراخ الطير . على أن حياته لم تمتد في قصره وإنما
ألم الألم عليه إلحاحاً شديداً ، وأقبل أحد ابنيه صباح يوم فنعاه إلى . فلما
سألت كيف مات علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجاراً .

وكان حديث الشيخ قد ملك على هؤلاء السمار نفوسهم وقلوبهم ،
فأغرقوا في شيء من الوجوم لم يحسّوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث واندفع
في تفكير عميق بعيد . ولست أدري كم أنفقوا من الوقت في هذا الوجوم الصامت
ولكني أعلم أن رجالاً منهم شاباً لم تكن قد تقدمت به السن بعد خرج من هذا
الصمت وأخرجهم منه حين قال بصوت متهدّج قطعّه العبرات تقطيعاً :
« إن لهذا البيت في مكة لشأناً » . قال الشيخ : نعم إن لهذه البيت في مكة لشأناً .
وإن هذا الشأن هو الذي اضطرني إلى أن أعود من اليمن مسرعاً ما وسعني
السرعة حتى أبلغ مصر وأنتهي إلى الاسكندرية . وأقسم ما حفلت بأهلى
ولا بوطى ولا بشر كأي في التجارة ولا تحت^(١) لأحد منهم أن يسألني من أمري
عن قليل أو كثير، وإنما فرقت فيهم مالى تفريقاً ، وحملت منه ما استطعت
حملة ومضيت إلى الشام يحسبني الناس تاجراً يبتغي الربح، وإنما كنت سائحاً
أبتغي هذا الدير لأدخله فأخرج من الحياة ولذاتها وآمالها وغرورها وأفرغ
للعبادة وطاعة الله، وإنى لأرجو إن امتدت بي الحياة أن أعود إلى هذا البيت

(١) أتاح فلان الشيء : هياه .

في مكة لا غزياً ولا باغياً ولا قاصداً إلى شرٍّ بل تائباً تائباً منيباً مستغفراً من
 هذا الإثم الذي شاركت فيه . وإلى أن يتيح الله لي هذه الأوبة إلى مكة
 إن كان قد قدر لي أن أراها مرة أخرى، فسأقيم معكم ألقى من تلقون من
 هؤلاء الذين يأتون من مكة ويعودون إليها ، فأحدث إليهم وأسمع منهم
 وأنا لهم بما أستطيع أن أناهم به من إحسان . وأذن مؤذن أن قد آن لأهل
 الدير أن يأووا إلى حُجراتهم ، فتنفّقوا وما في نفوسهم رغبة في سمر ولا ميل
 إلى حديث ، وما منهم إلا من يشكر في هذا البيت الذي أحجم عنه الفيل ،
 وحمته طير أبابيل ، ترمي عدوه بججارة من سجيل ، فاذا هم كعصف مأكول .



البيتم

قضى أهل مكة أيامهم فرحين مبتهجين يملؤهم الفخر ، ويزدهيهم النصر ، ويتحدثون بحديث الفيل إذا أضحوا ، ويتذاكرون انهزام الحبشة إذا أمسوا ، حتى كاد يشغلهم ذلك عن تجارتهم . ويصرفهم عن مراقبتهم . وتسامعت العرب بهذه الآية الكبرى التي أظهر الله بها كرامة هذا البيت ، ورفع الله بها مكانة الذين يقومون حوله من قريش . فازداد العرب لقريش حباً واکراماً ، وأخذت تستوثق الأمور لأهل مكة على من دنا منهم أو نأى عنهم في تهامة ونجد والحجاز . ولكن شيخاً من قريش لم يشغله فخر ، ولم يزدده نصر ، ولم تصرفه أحاديث الناس من حوله عن حديث نفسه المتصل وحزنها المقيم ، وهو عبد المطلب بن هاشم . ولكن امرأة من قريش لم يأخذها عجب ولم يملكها تيه ، ولم تشارك نساء قريش فيما كن يتخذن من زينة وينصرفن إليه من لذات الحياة ، إنما كانت تهتر العزلة وترغب في الخلوة إلى نفسها . تتحدث إليها وتسمع منها ، لا تجد في هذا الحديث حزناً صريحاً ولا سروراً صريحاً ، وإنما هو شيء بين بين : فيه راحة من لدغ اليأس ، وفيه صارف عن نشوة الأمل ، وهي آمنة بنت وهب .

كان الشيخ يذكر ابنه فيشغله الحزن الممض العميق عما كانت فيه

قريش من بهجة وسرور ، ومن غبطة وحبور . وكان الشيخ يفكر في قصة
الفييل وانصراف المغيرين عن مكة ، ثم يرى فخر قريش وتمدحها واستعلاءها
على العرب ، فيبتسم في نفسه ساخراً منها عاطفاً عليها . فلم تصنع قريش شيئاً
إلا أنها لاذت بشعاف^(١) الجبال ، وفرت إلى حيث كانت تهيم الوحوش ،
وخلت بين طاغية الحبشة وبين البيت . فلم تردده إذاً ، ولكن الله رده ،
ولم تحطمه إذاً ولكن الله حطمه . وهي على ذلك تفاخر وتكاثر ، وهي
على ذلك تستكبر وتستعلي . وكذلك الانسان يغره بنفسه الغرور ، فيضيف
إليها ما لم تفعل ، ويحمل عليها ما لم تأت من الأمر .

كان الشيخ يسخر في نفسه من قريش ، ويعطف في نفسه على قريش ،
يلتمس لها المعاذير في هذا الضعف الذي يصيب الناس ، فيخذلهم عن أنفسهم
ويكبرهم في أعينهم ، ويخيّل إليهم أنهم شيء ، وما هم بشيء أمام هذه القوة
القاهرة التي تغلب ولا تغلب والتي تقهر ولا تقهر ، والتي لا تريد إلا بلغت
ما تريد . هذه القوة التي أخرجت من البحر طيراً لم يرها الناس من قبل ، فسلطتها
على جيش لم ير الناس مثله من قبل ، فما هي إلا أن حلقت فوقه ساعة من
نهار حتى انهزم وانحطم ، وأصبح كعصف مأكول ، وسلم البيت من عادية
المعتدى ، وأمن البيت طغيان الطاغية . هذه القوة التي ظن هو أنه قد استنقذ
منها ابنه فجاء من الموت ، وضمن له حياة كحياة الرجال : فيها ما في حياة
الرجال من سعادة وشقاء ، ومن راحة وتعب ، ومن جد وسعي ، ومن

(١) شعاف الجبال : رؤسها واحدها شعفة (بالتحريك) .

اضطراب بين اليمين والشام ، ومن استقرار في الظواهر والبطحاء . ألم يصارع الموت عن ابنه صراعاً ؟ ألم يشتر ابنه من القضاء شراء ؟ فها هذا الجهاد بالقداح بينه وبين القضاء المسأط . يفادى ابنه بالابل فيشتط عليه القضاء ، ولا يرضى حتى يبلغ المائة . وفيهم كان انتصاره ؟ وفيهم كان ابتهاج بني هاشم ؟ وفيهم كان ابتهاج قريش بانتصار الحياة على الموت ، وافلات الشباب من مديّة المضحى !

وكان الشيخ يضحك في نفسه ضحكا حزينا يوشك أن يكون ياساً مهلكاً وثورة جامحة ، لولا أنه كان ذا قلب تعلم كيف يطمئن للأحداث ، ويدعن للخطوب ، ويصبر على النائبات . كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكا حزينا مؤلماً حين كان يفكر في غرور قريش ، وتقديرها أن الله قد ردّ طاغية الحبشة وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبايل ، تكريماً لها وإيثاراً ، وحين يفكر في غروره هو حين كان يقدر أن الله قد أقدّر ابنه من مديته وفداه بمائة من الأبل إيثاراً له بالعافية ، واختصاصاً له بالكرامة . كلا ! كلا ! لم يهزم الفيل وأصحاب الفيل أكراماً لقريش ، وإنما هي آية أجراها الله لأمر يعلمه هو ، ولا يعلم الناس منه شيئاً . ولم ينقذ الله عبد الله من الموت ويفادّه بمائة من الأبل أكراماً له ، أو أكراماً لأبيه ، وإنما أنقذه من الموت وفاداه بالابل لأمر يريد به هو ولا يعلم الناس منه شيئاً . وإلا فقيم نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل ؟ أليس غريباً أن ينجو من الموت فيتخذ له زوجاً لا يقيم معها إلا وقتاً قصيراً ، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود إليها كما يعود الناس إلى أزواجهم ! . ولكن

رفاقه يعودون وهو لا يعود . إنما يتخفف في يثرب ليموت عند أخواله من
بنى النجار . وقد عرفت زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حملها أمانة مازالت
تحملها في جوانحها حتى إذا جاء أمر الله أدت هذه الأمانة . ومن يدرى لعل
عبد الله لم يوجد إلا ليودع هذه الأمانة عند زوجه ! ومن يدرى لعل أمانة لم
توجد إلا لتؤدي هذه الأمانة إلى الناس !

وكان الشيخ إذا فكر في هذا كله لم يملك نفسه أن يرى ابنه شديد
النشاط عظيم القوة رائع الشباب بارع الجمال ، يستقبل السفر بأمل لا حداً
له ، ثم يراه نحيلًا ، هزيلًا ، شاحبًا ، متبالسًا ، محزونًا يمرض على فراشه عند
بنى النجار . ثم يراه وقد دنا منه الموت مكابراً مكاثراً ، فاستلّه من الحياة أو
استلّ الحياة منه ، كأنما يثار لنفسه من تلك الهزيمة التي أصابته يوم الغداء .
فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يخرج منه إلا اضطراب الناس من
حواله ، وإلحاح الناس عليه ، وفيهم أبناءؤه وبناته ، فيما كان يشغلهم من الأمور .
وكانت أمانة ترى نساء قريش ونساء بنى هاشم من حولها ، يبسمن
للأيام ويتهجن للحياة . فيعجبها ذلك منهن ، ولا يداخلها حسد لهن أو ميل
إلى مشاركتهن . كانت تحس إحساساً قوياً ، ولكنه غامض ، بأن الأيام
قد وقّتها حظّها من الغبطة وقسطها من النعيم في ذلك الوقت القصير الذي
قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الغداء إلى أن فقدته يوم الرحيل . وكانت
تريد أن تسعد بالتفكير في هذا الجنين الذي تحسه يضطرب في أحشائها ،
ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها ، وأنه قد حُرِم السعادة بهذه النعمة ،

فكره أن تستأثر من دونه بالخير ، وتحدث إلى نفسها بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لئلا يستبد بها الفرد ، وإناهماى مشتركة بين اثنين ، فاذا ذهب أحدهما ثقلت على الآخر وشق احتمالها عليه وكانت مصدر ألم وحزن . ولكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممض الذى كانت تقدره وتنتظره ، كما تأملت نفسها مدعنة ، وكأنا فطر قلبها على الرضا ، وكأنا استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل سواء رضى الناس أم سخطوا ، وأن احتمالها مع الرضا والاطمئنان خير من السخط الذى لا يجدى ، والثورة التى لا تفيد .

على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنة نحو ذلك اليوم المشهود حتى يغمرها شيء يشبه نسيان النفس والانصراف عن الشعور الواضح بالحياة والتفكير الجلى فيها وكانت تنفق نهارها ذاهلة أو كالذاهلة ، وتنفق ليلها فى نوم هادىء حلوا الأحلام . وما أكثر ما كان يزورها من حلم ! وما أكثر ما كان يلتم بها من طيف ! وما أكثر ما كان يلقى إليها من حديث ! حتى إذا كانت ذات ليلة تهيأ للخروج من ذهول النهار والدخول فى هدوء الليل ، أحسّت بعض ما يحس النساء حين يدنو منهن الخاض .

هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بنى هاشم ، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالى ، أنكرن فيها كل شيء وأعجن فيها بكل شيء . . . أنكرن حتى أنفسهن . فقدرأين مالم ير أحد ، وسمعن مالم يسمع أحد ، وأحسنن مالم يحس أحد . ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وأعجاباً . فقد كانت

ترى وهى يقظة غير نائمة أن نورا ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها
ويزيل الحجب عن عيناها . وكانت تنظر فترى قصور بُصْرِى فى أطراف
الشام ، وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تَرْدِى ^(١) فى أقصى الصحراء . وكانت
لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يظنن
بها الظنون . وكانت هذه من صاحباتها لا تمدَّ طرفها إلى شىء حتى تراه
نورا كله لاظلمة فيه وإنما هو مشرق مضى ، أو هو الإشراق الخالص .
وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر ، فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض
وتمد إليها أشعة قوية نقيّة باهرة ساحرة ، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى
الرائية أنها توشك أن تمسّها وتقع عليها .

وكانت هذه الأخرى من صاحباتها ترى ظلمة مظلمة قائمة ، وتأخذها
رعدة قوية منهكة ، ويلمّ بها شىء كأنه النوم تسمع أثناءه صوتا مهيبا
وهيبا يسأل : إلى أين ذهبت به ؟ فيجيبه صوت مهيب رهيب : إلى المشرق ،
ثم ينبجلى عنها ما ألم بها فتفتيق ، ثم يعاودها ما كانت فيه ، فإذا ظلمة مظلمة
قائمة ، وإذا رعدة قوية منهكة ، وإذا غاش يغشاها كأنه النوم ، وإذا هى
تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل : أين ذهبت به ؟ فيجيبه صوت مهيب
رهيب : إلى المغرب ، ثم ينبجلى عنها ما هى فيه فتفتيق . وكذلك لم تدن السماء
من الأرض كما دنت فى هذه الليلة . وكذلك لم ير الناس من الأعاجيب
كما رأى هؤلاء النساء فى هذه الليلة . ولم تكن آمنة على هذا كله تجد

(١) تردى : تسرع بين العدو والمشى الشديد .

ألمًا قليلًا أو كثيرًا ، إنما كُشِفَ عنها كل حجاب ، وُزِفَ عنها كل غشاء ، وُخِلَ بينها وبين عالم من الجمال الذي يُرى ، ومن الجمال الذي يُسمع لا عهد للناس بمثله . ثم ترى ويرى صاحباتها كأن شهابًا انبعث منها فلأ الأرض من حولها نورًا يَهْرُ الأَبصار ، ثم ترى فإذا ابنها قد مسَّ الأرض يتقيها بيديه رافعًا رأسه إلى السماء ، مُعَدِّ قَابِصِرَه فيها كأنما يلتمس عندها شيئًا . ثم تسرع صاحباتها إليه وإليها ليؤدِّين له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة ، وما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة . فإذا هي لا تحتاج إلى شيء ، وإذا هو لا يحتاج إلى شيء ، وإذا هن يتناولن أجمل صبيٍّ ، وأروع صبيٍّ ، وأبرع صبيٍّ ، وإذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليدًا لا كالولدان .

ثم يشرق الفجر وتبسط الشمس رداءها النقي على بطحاء مكة وما يحيط بها من الجبال . ويرتفع الضحى ، ويضطرب الناس في أمورهم وقد قضوا ليلاً جاهلاً غافلاً لم يشعروا فيه بشيء ، كأن لم يكن فيه شيء . ولو قد كُشِفَ عنهم الغطاء ، ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا . ولكن الله قد جعل لكل شيء قدرًا . فهو يظهر آياته لمن يشاء ، ويخفي آياته على من يشاء . وعبد المطلب جالس في الحجر وحوله أبناءه وجماعة من قريش ، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث . وهو يسمع إليهم بأذنيه ويعرض عنهم بنفسه . يفكر في فقيدته الذي لا يستطيع أن ينساه . وإنه لفي ذلك وإذا البشير يُقْبِلُ عليه مسرعًا ، حتى إذا انتهى إليه حيَّاه وقال : لقد

وُلد لك غلام. فهُلِمَ فانظر إليه. فلا يسمع هذه البشرى حتى يحس أن الله قد أخلفه من فقيدته ورفق يه في مُصابه ، وادّخر له عزاء عن محتته . فيسأل : أهو ابن عبد الله ؟ فيجيبه البشير نعم . فينهض مسرعا ، وينهض معه بنوه ويمضون لا يلوون على شيء حتى يبلغوا بيت آمنه . فإذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن ، وردّه إلى غبطة وسرور بعد عهده بهما .

ثم يسمع حديث النساء فلا ينكر منه شيئا كما كما كان ينتظره ، وكأما كان منه على ميعاد . ثم يرفع الصبي إليه فيقبله ويقول : لأسميته محمدا . قالت آمنه : لقد أتاني آت في النوم فأمرني أن أسميه أحمد . قال عبد المطلب : فهو محمد وهو أحمد ، وما أرى إلا أنهما بعض أسمائه .

قلت لمحدثي : فقد زعموا أن عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة ونحر الإبل لأهل الشعاب ، ونحر الإبل على رؤوس الجبال ، ليطعم الناس وليطعم الوحش . قال : وهل كان عبد المطلب إلا نعمة للناس وقيمة على الإبل ! .

ولكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك ولم يعد إلى المسجد مع العصر حتى رأى أندية قریش متجمعة فيه ، تلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريف أذاعه في مكة رجل من أهل الطواهر ، فشغل به الناس وتناقلوه . وكان هذا الرجل طلبه أهل المسجد ، يتنقل بحديثه من ندي إلى ندي ، فلا يكاد يتم حديثه إلى قوم حتى يدعوهم قوم آخرون ليسمعوا منه

ويسأله . وكان يستجيب لمن يدعو ولا يزهد في أن يعيد قصته مرة ومرة ، وكأنه قد أحس لنفسه خطراً ، وكأنه قد رأى نفسه مطلوباً بعد أن لم يكن من قبل إلا طالباً ، وكأنه قد كبر في نفسه ، فكان يقول ويطلق في القول وكان يفصل ويفرق في التفصيل ، وكانت أفناء قریش تسمع له ، فمنها من يعجب ، ومنها من يرتاع ، ومنها من يلقي الحديث بالإغراق في الضحك ، ومنها من يلقي الحديث بهزّ الرؤوس . وكان هذا الرجل يقصّ قصصه فيقول : ما كنت أعلم أن الليل أسراراً ليست للنهار . وما كنت أعلم أن للصحراء أنباء ليست للمدن والأرض العامرة . وما كنت أحسب أن في هذا الهواء الذي تننّسه وفي هذا الفضاء الذي يحيط بنا أرواحاً تتناجى ، وأحياء تتجاذب الحديث ، حتى رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت ، فتبينت أن حياتنا غرور وأن علمنا جهل ، وأن أحاديثنا لهو وهراء . والناس يتعجلونه فيقولون له : هات ما عندك من النبأ حتى إذا فرغت من قصته فقل ما شئت . وهو يقول : لقد جنني الليل وإني لفي طريق من الطائف إلى مكة فلا أحفل بذلك ولا آبه له ، ولا أفكر في أن آوى إلى حيٍّ من هذه الأحياء التي تنشر بيوتها في الطريق لأتتظر مشرق الشمس ، ولكنني أمضي أمامي لا ألوى على شيء ولا أرهب شيئاً . وماذا أرهب والطريق آمنة واضحة يسلكها الناس إذا أصبحوا ، ويسلكونها إذا أمسوا ، يسرون فيها مع ضوء النهار ويسرون فيها مع ظلمة الليل ، قد عرفوها فهم لا يحتاجون إلى مرشد ولا دليل ، فأمضي أمامي مجدداً في السرى ، أريد أن أجأ أهل مع الصبح . وإني لفي بعض الطريق

وقد سكن من حولي كل شيء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتي تمس الأرض
 مسافراً رقيقاً ، وإلا هذه الأنات التي ترسلها المطايا إذا جهدها السير وحثت
 إلى الراحة ، وإلا ما كنت أناجى نفسي به من حديث أهلي إذا طلعت
 عليهم مع ضوء الشمس ، وكان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئاً نقيّاً
 فملاً نفسي أماناً ودعة وهدوءاً . وإني لفى ذلك ، وإذا غممة تصل إلى من
 بعيد فلا أحفل بها ولا ألقى إليها بالاً ، وإنما أمضى فيما أنا فيه من الاستمتاع
 بلذة هذا السرى ومسّ أخفاف مطيتي للأرض وحنينها إلى ما بعد عهدها به
 من الراحة ، وأحاديث نفسي عن فارقت في الطائف وعن سألتني في مكة .
 ولكن الغممة تدنو مني أو أنا أدنو منها ، وإذا هي تشد شيئاً فشيئاً ،
 وإذا أصواتها تمتاز وتستبين ، وإذا أنا أسمع أحاديث قوم يتهايمسون ، وإذا
 أنا أنظر فلا أرى أحداً ، والقمر مع ذلك مشرق مضى ، والفلاة مع ذلك
 مبسوطة لا عوج فيها ولا ارتفاع ، والحديث مع ذلك من حولي واضح يملأ
 الهواء ، وقلبي مع ذلك يضطرب ويمشي في صدرى رعباً . وأنا أذهب بمطيتي
 إلى أمام وأرجع بها إلى وراء ، وأذهب بها عن يمين وأذهب بها عن شمال ،
 وأرفع بصري إلى السماء وأخفض بصري إلى الأرض ، فلا أرى شيئاً
 ولا أتبين شيئاً إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشى الأرض برداء نقيّ رقيق ،
 وهذه النجوم التي لا تحصى وقد تالقت في السماء كأنها المصابيح ، وانطلقت
 في طريقها مسرعة كأنها تستبق ، وهذه الأحاديث الواضحة تتحدث بها
 جماعات لا أراها ، ولكنها لا تستقر إنما يمضي بعضها في أثر بعض ، وإني

لأسمع قائلاً يقول: «انظروا إلى السماء، فما أرى أنها كعهدها بها من قبل، إن نجومها لتتألق في قوّة لم نرها قط، إنها لتستبق في سرعة لم نرها قط، إنها لتدنو من الأرض حتى إن نارها لتوشك أن تحرقنا. إن التصعيد في السماء لعسير. وفيهم نصعد إلى السماء وإن السماء تهبط إلينا! إن البقاء على الأرض لعسير، وأنّ لنا الثبات بهذا الضوء الذي لا يخفى عليه شيء حتى أشباحنا الخفية التي لا تراها العيون!. النجاء النجاء! إن الغيب لعجبا، وإن في الأرض لحداثاً، وإن الزمان ليستدير، وإنا لاندري أشرُّ أريد بالناس أم خير».

وإني لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى، فيبهرنى ما أسمع ويسحرني ما أرى، وأشغل به حتى عن أن أسأل نفسي أين أكون، وما تكون هذه الأصوات. ولكنني أحس أصواتاً أخرى كأنها تهيب بأهل تلك الأصوات التي كنت أسمعها قائلة: النجاء النجاء! ولكن إلى أين! إنكم لتفرون من مكة كأن شيئاً أزعجكم عنها وقد كنتم فيها آمنين، وقد كنا نفرّ إليكم لأن شيئاً أزعجنا عن دورنا، وأخرجنا من مأمننا، واضطربنا إلى أن نهيم في الأرض لاندري ما هو، ولا ندري من أين جاء. إنا لتسامع من أطراف الأرض بأن حدثاً قد حدث، وبأن كائناتاً قد كان. إنا لتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض فسقطت شُرُفاته وتهدم بنيانه.

وإذا أصوات أخرى تصيح منتشرة في الفضاء. وإنا لتسامع بأن نار الفرس قد خبّت فجأة لأول مرة منذ ألف سنة. وإذا أصوات أخرى تصيح: وإنا لتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفّت، وما عهدناها إلا غزيرة حمة الماء. وإذا

هذه الأصوات كلها تملأ الأرض، رقيقة خفيفة، خائفة، قلقة: النجاء! النجاء! إن للسماء خبراً، وإن الأرض لتستقبل يوماً لم تستقبله من قبل، وإن لهذا اليوم في حياة الأرض لشأناً لا ندرى أخيراً هو أم شر! النجاء النجاء! . وقد فقدت صوابي وأضلت عقلي فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً، ولا أسمع شيئاً، كأنما انتزعتُ من الحياة انتزاعاً. ثم يمسي برد السحر فأفئق. وكأنما ثبتتُ إلى نفسي من سفر بعيد. وأنظر حولي فأرى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها، وأرى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودعها محزوناً، وأرى النجوم تنهزم في السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً، وأرى ناقتي مدعنة لحكم السرى تمضي أمامها كأن شيئاً لم يكن من حولها. وأبلغ أهلي مع الصبح، فيستقبلونني دهشين كما كنت أقدر، ولكني لا أستمتع بهذا الدهش كما كنت أريد.

ويتفرق الناس عن هذا الرجل وقد سمعوا منه، وإن بعضهم ليسأل بعضاً: ماذا يقول وماذا رأى، وإن بعضهم ليقول لبعض: لقد أخذته النوم فعبثت به الأحلام، وإن بعضهم ليقول لبعض: لقد مر بجماعة من جن الصحراء كانوا يسمرون. ويسمع عبد المطلب هذا كله فتثور في نفسه خواطر لا ينكرها ولا يعرفها، ولكنه لا يطيل الوقوف عندها، لأنه مشغول عنها بمقدم حفيده اليتيم.

الحاضنة

وعطف الله على هذا اليتيم قلوباً ملئت حباً ، وفاضت حناناً ورحمة .
 قلما يظفر بمثلها المنعمون المترفون من أبناء الأغنياء وأصحاب الثراء الواسع
 والجاه العريض . هذه الأمة الحبشية قد ورثها اليتيم عن أبيه الفقيد مع خمسة
 أجمال أوارك^(١) وقطعة من الغنم . كانت حين أقبل اليتيم إلى هذه الأرض
 فتاة في ريعان الشباب ومبتدأ الحياة . لم تنسَ وطنها القديم ولم تألف وطنها
 الجديد ، لم تسلُ عن حرّيتها ولم تأنسُ إلى رِقِّها . نفسها معلقة بين لونين من
 ألوان الحياة ، كان أحدهما صفواً كله وهو لون الحياة العزيزة في بلد عزيز
 وبين قوم أعزّة كرام . وكان الآخر يوشك أن يكون كدراً كله ، لا تنظر
 إليه إلا رآته مظلماً حالكالا يبسم فيه أملٌ ولا ينبعث منه ضوء ، وهو لون
 الحياة الذليلة في بلد نازح ، وبين قوم غرباء لا تعرفهم ولا تألفهم ، وإنما
 دفعها إليهم خطوب الحياة دفعاً ، وألقها إليهم صروف النوى إلقاء . فهذا
 شبابها يذبل وقد كان يريد أن يزهر ويتألق . وهذه آمالها تبتتر بترًا ، وقد
 كانت تريد أن تمتد وتنبسط . وهي ترى هذا كله خاشعة خاضعة ومؤمنة
 مدعنة لم تحتر منه شيئاً ، ولا تستطيع أن تغير منه شيئاً . وهي قد وطنّت

(١) الأوارك من الابل : التي ترعى الأراك . واحدها أركة .

نفسها أو وطنها الأحداث على أن تكون أمة طيعة تخدم سادتها في نصح أو في غش ، ولكنها تظهر لهم الطاعة والخضوع على كل حال . وهي محزونة النفس كاسفة البال ، لا تبسم إلا متكئة ، ولا ترضى إلا متصنعة ، ولا تطمئن إلى هؤلاء الذين من حولها ينظرون إليها نظرات مهما يملأها العطف والرفق فهي نظرات السادة الذين يملكون ويستعلون ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون ، كما يتصرفون في الأشياء : لهم أن يبيعوها وإن لم تؤثر أن تباع . لهم أن يهبوها وإن لم تحب أن توهب . لهم أن ينقلوها من يد إلى يد ومن مكان إلى مكان ولعلها أن تكون مؤثرة لهذه اليد التي بسطت عليها ، منكرة لهذه اليد التي يراد أن تنقل إليها . ولعلها أن تكون قد ألفت هذا المكان الذي استقرت فيه وكرهت غيره من الأمكنة ، ولكنها لا تستطيع أن تريد أو لا تستطيع أن تنفذ ما تريد . وأى قيمة للإرادة إذا عجز صاحبها العجز كله عن أن ينفذها ويجرى أحكامها ! . إنما الإرادة العاجزة أقبح صور الذل وأشنع ألوان الرق وأبغض ما يلقي الإنسان في الحياة . أنظر هذه الأمة الناشئة لم تتعود الرق بعد ولم تطمئن إليه ، نفسها نائرة مظلمة ، وقلبها جامع مكظوم ، وهي مبغضة لكل إنسان ، ضيقة بكل شيء ، أنظر إليها تشهد ماشهد غيرها من النساء في تلك الليلة الفذة فتضطرب نفسها الناشئة لما رأت ، ويتهيج قلبها الحزين لما شهد ، ثم لا تكاد ترى هذا الوليد اليتيم حتى يلقى الله حبه في قلبها . وحتى يظفها الله عليه ، وحتى يجعله لها قرّة عين ، وحتى يصبح وجهه الصغير المضىء ابتسامة في حياتها المظلمة ،

و. يصبح شخصه الضئيل العظيم منقذاً من هذا اليأس القاتم وعزاءً لها عن هذا الشقاء العظيم . وإذا هي تألف الطفل وتكَلَّف به ، وإذا هي تحضن الطفل وتحنو عليه ، وإذا هي تؤثره من المحبة والبرِّ ، ومن المودة والعطف ، ومن الحنان والرفق بكل هذه الكنوز التي لا تفي والتي تحتويها قلوب النساء والتي كانت تريد أن تغيض لأن خطوب الحياة قد فرضت عليها الرق والنذل فرضاً . إن هذا اليتيم لينزل من قلبها الحزين منزل السرور ، ومن نفسها الكئيبة منزل الابتهاج . إنها لتجد فيه كل ما فقدت من أمل وكرامة وعزة وحرية . إنها لتريد أن تختص به من دون الناس جميعاً . إنها لتريد أن تخصه بنفسها من دون الناس جميعاً . وإن الله ليحقق لها من هذا كله أكثر ما تريد . إنها لتقف نفسها على الطفل أياماً ، حتى إذا أقبلت الظئر^(١) فانزعته منها ومن أمه انتزاعاً ورحلت به إلى البادية ، ضاقت بالظئر وكرهت هذا الرحيل . ولو قد أتيح لها أن تنفذ ما كانت تريد لاستبقت الظئر معها في مكة أو لرحلت هي مع الظئر إلى البادية . ولكن متى أتيح لأمة أن تنفذ ما تريد ! ولها على ذلك أسوة بهذه الأم الحرة الكريمة التي نُسلم ابنها إلى الظئر لا تستبقها معها في مكة ولا ترحل هي مع الظئر إلى البادية !

فلتفارق صفيهاً دهرًا طويلاً أو قصيراً كما تفارق الأم طفلها دهرًا طويلاً أو قصيراً . ولتصبر على هذا الفراق . وهل خلق الرقيق إلا للصبر والاحتمال !

(١) الظئر : التي ترضع غير ولدها وتعطف عليه .

وينفق الصبيّ عند الظئر ماشاء الله أن ينفق من وقت ، لا يزور أمه .
ولا حاضنته إلا لماما . وكتاتها تسعد بهذه الزيارة القصيرة . وكتاتها تشقى
باستئناف الفراق . وكتاتها تدعن لما لا بدّ من الإذعان له . ثم يعود الصبيّ
الناسئ من البادية إلى مكة فيقيم إقامة ملؤها الرحمة والعطف بين هذه
القلوب الكريمة التي تحبه وتحنو عليه : قلب أمه الحرة المحزونة ، وقلب حاضنته
الأمّة الفتاة ، وقلب جده الشيخ الوقور . كلهم سعيد بالعطف على هذا
الطفل والرعاية له . والطفل ناعم بعطفهم عليه ورعايتهم له .

ثم ترحل أم الطفل به إلى يثرب لتزيره أخواله من بني النجّار فترحل
الحاضنة معهما . وينعم الطفل بحنان هذين القلبين الكريمين . حتى إذا
بلغ يثرب رأى أرضاً لم يكن رآها وقد قدّر له مع ذلك أن يقيم فيها حياً
وأن يقيم فيها ميتاً . وقد سبقه أبوه إلى زيارتها ، وقد سبقه أبوه إلى أن
يؤثرها له داراً تؤويه . هنالك رأى الطفل قبر أبيه . هنالك لعب الطفل
مع أطفال مثله سيكونون له أصدقاء وأنصاراً حين يجيّد الجدّ ، وحين يبلغ
الكتاب أجله ، وحين يتم في الأرض ما قدّر في السماء . حتى إذا قضى
الطفل وأمه وطراً من زيارة الأرض الموعودة عاد بين أمّيه الكريمتين إلى
موطنه بمكة . ولكن قضاء الله يجب أن ينفذ ، وحكمة الله يجب أن تبلغ
وإرادة الله يجب أن تكون . فلا يكاد الطفل يبعد عن يثرب حتى تُلِمّ العلة
بأمه كما ألَمّت بأبيه قبل أن يصل إلى الدنيا . ولا يكاد الطفل ينتهي إلى

الأبواء^(١) حتى ينزع الموت منه أمه أو ينزعه من أمه ، كما نزع الموت منه أباه ، أو كما نزع من أبيه .

وكذلك أدت الأمانة إلى الأرض ، وذهب عبد الله وذهبت أمانة بعد أن أدياها . وأصبح الطفل كما أراد الله له أن يكون يتيماً ، قد فقد أمه وفقد أباه وليس له من يؤويه إلا الله الذي قد وعد بإيوائه وكفالاته وحفظه وحمائته من العاديات .

لقد خَاصَّ الطفل لحاضنته من دون الناس . فلتقف عليه نفسها كلها ولتقف عليه حبها كله ، ولتخلص له كما خالص لها . وانظر إليها تعود بالطفل إلى جده وأعمامه وحيدا فريدا ، ليس له من يرعاه أو يكلِّؤه إلا قلبها العظيم الكريم . من ذلك الوقت أصبحت للطفل أمًّا رعته صبيًّا وشابا ، فرغت له ولم تُشغَل عنه بأحد ولا بشيء . حتى إذا بلغ سنَّ الرجال واتخذ له أسرة وأوى إلى زوجه خديجة بنت خُوَيْلِد ، نظر إلى هذه الأمة التي نَشَأَتْه ونعمته بحبها وحنانها ، فأعتقها وردَّ إليها حقها الكامل في الحياة الحرة الكريمة .

هنالك اتخذت لها زوجاً من أهل يثرب كان مقياً بمكة ، فعاشت معه ماشاء الله أن تعيش ، ورحلت معه إلى يثرب . حتى إذا مات عادت إلى ابنها الأول ومعها ابنها الثاني أَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ ، فعاشت في كَنَفِ هذا اليتيم وعاش معها ابنها سعيد بن ناعمين . ثم يَتِمُّ اللهُ نعمته على هذا اليتيم ويختاره لما قُدِّرَ له من الكرامة واحتمال الأعباء الثقالة ، فلا تشغله نعمة ولا محنة ولا راحة

(١) الأبواء : قرية بين المدينة ومكة ، بينها وبين الجحفة ما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً .

ولا جهاد عن أمه هذه . وانظر إليه يتحدث عنها إلى أصحابه فيقول هذه الكلمة التي ملؤها البر والحنان والوفاء : « إنها بقية أهل بيتي » . وانظر إليه حريصا على أن تحيا وتنعم بالحياة ، حريصا على ألا يكون حظها من السعادة في هذه الدنيا أقل من حظ غيرها من الحرائر . أنظر كيف يلتمس لها الزوج فيقول لأصحابه : « مَنْ سرّه أن يتزوَّج امرأة من أهل الجنة فليتزوّج أمّ أيمن » . هنالك أسرع مولاه زيد فاتخذها له زوجا .

إيه أيتها الأم الكريمة الرحيمة ! لقد منحت ابنك صبياً وشاباً كل ما كنت تستطيعين أن تمنحيه من الحب والود ، ومن العطف والحنان . وهاهو ذا الآن قد بلغ ما قدر الله له أن يبلغ من ارتفاع المكانة وعلو المنزلة وجلال الخطر أنظري إنه ليؤدّي في سبيل الله ، إنه ليُمَتِّحَن في نفسه وفي عشيرته وفي أصحابه ! إنه ليلقى في ذلك أشد الجهد ، ويحتمل في ذلك أعظم الثقل ، ويستقبل ذلك بأحسن الصبر . أنظري إليه وانظري إلى نفسك ، إنك لتحبينه وتكبرينه وترحمينه ! لقد استجبت له حين دعا وآمنت به حين أندر وبشّر . أنظري ! إن قومه ليأتَمرون به ليقتلوه أو يُخرجوه أو يُشُبِّتوه ^(١) . وإن الله ليأذن له في الهجرة . وإنه ليلترك مكة طريداً ليعود إليها منتصراً مظفراً . أنظري إنه ليقيم الآن في يثرب بين أنصاره الذين آووه ، بين رفاقه الذين لعب معهم صبياً ، وأنت ترمقينه وترعينه من قريب حيناً ومن بعيد حيناً آخر . أنظري

(١) ليُشَبِّتوه : ليسجنوه أو يوثقوه أو يشنّوه بالضرب والجرح : من قولهم : ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح . (عن الكشف)

أَتَسْتَطِيعِينَ فِرَاقَهُ ! لَقَدْ ضُقَّتْ بِالظَّنِّ حِينَ نَقَلْتَهُ إِلَى الْبَادِيَةِ . كَلَا ! كَلَا ! إِنْ أَصْحَابَهُ لِيَهَاجِرُونَ لِيَلْحَقُوا بِهِ وَيَعِيشُوا مَعَهُ ، فَكَيْفَ لَا تَهَاجِرُ أُمُّهُ ! وَمَتَى صَبَرْتَ أُمَّ مِثْلَهَا عَلَى فِرَاقِ ابْنِ مِثْلِهِ !

هَاهِي ذِي قَدْ تَرَكْتَ مَكَّةَ مَهَاجِرَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِلَى ابْنِهَا وَصَفِيَّهَا .
إِنَّهَا لَتَقْطَعُ الطَّرِيقَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ يُؤْنِسُهَا مَا يَمْلَأُ قَلْبَهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَمَا يَعْمُرُهُ مِنَ الْحُبِّ . إِنَّهَا لَتَحْتَمِلُ مَشَقَّةَ الطَّرِيقِ وَجَهْدَ السَّفَرِ صَابِرَةً عَلَيْهِمَا .
وَمَا كَانَ أَصْبَرَهَا عَلَى الْمَشَقَّةِ وَالْجَهْدِ . إِنَّهَا لَتَسْتَلِذُّ الْمَشَقَّةَ وَالْجَهْدَ وَتَسْتَعِذُّ بِالْأَلَمِ وَالضَّرَاءِ . إِنَّهَا لَتَسَافِرُ صَائِئَةً . إِنَّهَا لَتَسْتَأْنِسُ فِي رَحْلَتِهَا بِهِذَيْنِ الصَّدِيقَيْنِ الَّذِينَ يَحِبُّهُمَا الْمُؤْمِنُونَ : الظَّامُّ وَالْجَوْعُ . وَأَنْعَمَ بِهِمَا رَافِقَيْنِ !
وَأَنْعَمَ بِهِمَا مُعِينَيْنِ عَلَى الْهَجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! إِنَّهَا لَتَقْطَعُ أَكْثَرَ الطَّرِيقِ وَتَصْبَحَ مِنَ الْمَدِينَةِ غَيْرَ بَعِيدٍ . إِنْ النَّهَارُ لَيَتَقَدَّمُ بِطَيِّئًا مُسْرَفًا فِي الْبَطَاءِ ، وَإِنْ الشَّمْسُ لَتُرْسَلُ عَلَى الْأَرْضِ أَشْعَةً مِنَ اللَّهَبِ ، وَإِنْ الْأَرْضُ لَتَضْطَرُّمُ مِنْ شِدَّةِ الْقَيْظِ ، وَإِنْ الْجَوُّ لَيَتَوَهَّجُ مِنْ هَذَا اللَّهَبِ الَّذِي يَضْطَرُّبُ فِيهِ .
وَإِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الضَّعِيفَةُ لَتَسْعَى فِي هَذِهِ النَّارِ الْحَرِيقَةِ إِلَى حَيْثُ تَنْجُو بِالْحَيَاةِ فِي ظِلِّ ابْنِهَا وَصَفِيَّهَا وَمُخْرَجَهَا مِنَ الرِّقِّ إِلَى الْحَرِيَةِ وَمُخْرَجَهَا مِنَ الظَّالِمَةِ إِلَى النُّورِ . إِنَّهَا لَتَسْعَى مَا وَسَعَهَا السَّعْيُ . وَلَكِنْ الْأَمَدُ بَعِيدٌ ، وَالْجَهْدُ شَدِيدٌ ، وَالْمَاءُ مُنْقَطِعٌ ، وَالظَّامُّ مُحْرَقٌ ، وَجَسَمُهَا ضَعِيفٌ لَا يَثْبُتُ لِهَذِهِ الْعَادِيَّاتِ الَّتِي لَا تَثْبُتُ لَهَا أَجْسَامُ النَّاسِ . وَلَكِنَّهَا تَسْعَى لَا يَأْسَةً وَلَا بَأْسَةً وَلَا مُسْتَسْلَمَةً ،

حتى يبلغ الجهد بها أقصاه ، وحتى يتراءى لها هذا الشبح المنكر الخفيف
الذى يتراءى لمن تنقطع بهم أسباب الحياة فى الصحراء : شبح الموت .
ولكنها مع ذلك لا تيأس ولا تستسلم ولا تفارق ما ألقت من الرضا ! أنظرى
أمامك ماذا ترين ؟ إنه رشاء أبيض ناصع البياض ينزل اليك من السماء ،
وقد علقت فيه دلو قد ملئت ماء ! مَنْ أرسل اليك هذه الدلو ؟ مَنْ قَدَّم
اليك هذا الماء ؟ لم أرسلت اليك هذه الدلو ؟ لم قَدَّم اليك هذا الماء ؟
هَلَمْ اشربى ، فانما تذوقين اليوم هذا الماء العذب ماء الخلود الذى ستشربينه
بعد حين طويل أو قصير حين يسكنك الله دارك من الجنة . أرايت
أن ابنك لم يكن متكلفاً ولا مغرراً حين قال لأصحابه : « من سرّه أن
يتزوج امرأة من أهل الجنة فليزوج أم أيمن » ! . إشربنى من هذا الماء ، فلن
تظمئ بعد هذه الشربة أبداً . وتشرب أم أيمن من هذا الماء ، وتنفق أم أيمن
بعد هذه الشربة أعواماً طويلاً ، فيها الشدة واللين ، وفيها البؤس والنعيم ،
وفيها الجهد والعناء ، ولكنها لا تعرف الظأ ولا تحسه ولا تشكوه . وكيف
يضأ من شرب من ماء الخلود ! .

أسرعى الآن يا أم أيمن إلى يثرب ، فإن ابنك ينتظرك فيها ، وقد آمن
بعد خوف واطمأن بعد قلق .

وتبلغ أم أيمن المدينة ، فيلقاها ابنها حفيهاً بها عطوفا عليها . وتلقاه
هى بما عودته أن تلقاه به من هذا الحب السمج والعطف الباسم . وتقضى

معه أيامها في المدينة ، لا تكاد تفارقه إلا حين لا تستطيع إلا أن ترافقه .
 أنظر إليها يوم أُخذ وقد شهدت الحرب مع المسلمين وإنها لتطوف بالماء
 تسقى الجرحى ومن مسهم الجهد . ولم لا ؟ لقد عرفت مرّ الظأ وبرد الرى .
 ومن يدرى لعل هذه القطرات التي كانت تصبها في أفواه الجرحى قطرات
 قد مستها رحمة الله ففقدت جوهرها الفاني واستحالت إلى هذا الجوهر الخالد
 الذي شربت منه أم أيمن حين تدلّت إليها الدلو من السماء . وانظر إليها وقد
 شهدت خيبر مع ابنها تواسى المسلمين وتمنحهم من عطفها ورعايتها ورحمتها
 فضل ما يمتلىء به قلبها الساذج الكريم . وانظر إليها في أيام السلم تغدو على
 ابنها وتروح إليه ، فيلقاها مبتسما دائماً مبتهجا دائماً مداعباً لها من حين إلى
 حين . تسأله مرة أن يحملها فيقول لها : أحملك على ولد الناقة . فلا تفهم منه ،
 فتقول : يا رسول الله ، إنه لا يطيقني ولا أريده . فيقول متضاحكاً : « لا أحملك
 إلا على ولد الناقة » . وكان ابنها يمزح ولكنّه لم يكن يقول إلا حقاً . وكان
 يحب أن يداعبها ويعبث بها في رفق ، فهو يقول لها ذات يوم : « غطّى قنّاعك
 يا أم أيمن » . وتلقاه يوم حنين قبل الموقعة فتريد أن تدعو للمسلمين بخير فتقول :
 « سنّت الله أقدامكم » . فيقول ابنها : « اسكتي يا أم أيمن : فانك عسراء اللسان » .
 وقد سمع الله لها فثبتّت أقدام المسلمين . وقد امتحنها الله فاختار ابنها أيمن
 وآثره بالشهادة يوم حنين .

إيه أيتها الأم الرؤوم ! إنك لتمنحين ابنك وصفيك اليوم شيئاً جديداً

لم تمنحيه من قبل . إنك لتبذلّين في سبيل الله وفي سبيله دم ابنك العزيز .
ولكنك تلقين الثَّكْلَ صابرةً آملّة راضية ، كما لقيت الظأ من قبل صابرة
محمّلة واثقة . ولئن فقدتِ أيمنَ يومِ حُنينٍ فإن لك خلفاً منه في ابنك
أسامة بن زيد أثير النبي وحبّيه ، وقائد جيش المسلمين بأمر النبي وإن كان
بعدُ لحدّاً ناشئاً . هذا جيش ابنك أسامة مرابطاً يتأهبّ للرحيل ، وهذا ابنك
وصفيك في بيته قد ثقل عليه المرض وفتحت له أبواب السماء وأقبلت عليه
الملائكة أفواجاً تحمل إليه رَوْحَ الله ورحمته وتبشره بجوار الله . أنظري !
لقد اختار الله لنبيه جواره الأعلى وصعدت نفسه الكريمة إلى حيث أريد
لها أن تكون مع الصّديقين والشهداء والصالحين وأصفياء الله وأنبيائه .
ماذا ! إنك لتبكين . وما يبكيك يا أمّ أيمن ؟ قالت لمن ألقى عليها هذا السؤال :
إي والله ! لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ، ولكنني إنما
أبكي على الوحي إذ انقطع عنا من السماء .

نعم ! لقد قبض ابنك وانقطع الوحي ، وستحتملين ذلك دهرًا : ستشهدين
خلافة أبي بكر ، وستشهدين خلافة عمر ، وستبكين مرة أخرى حين يموت
عمر ، وستسألين عن هذا البكاء فتقولين : « الآن وهى الإسلام » . وستستقبلين
خلافة عثمان ، وقد طال صبرك على انقطاع الوحي وشوقك إلى أخبار السماء ،
وسيسعى إليك الملك رفيقاً بك عطوفاً عليك ، وسيقبض نفسك الكريمة
إلى حيث تسعد بجوار ابنك الكريم .

تحدث ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر : قال خاصم ابن أبي الفرات
 مولى أسامة بن زيد - الحسن بن أسامة بن زيد ونازعه . فقال له ابن أبي الفرات
 في كلامه : يا بن بركة (يريد أم أيمن) فقال الحسن : اشهدوا ، ورفع به إلى
 أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وهو يومئذ قاضى المدينة أو وال لعمر بن
 عبد العزيز وقص عليه قصته . فقال أبو بكر لابن أبي الفرات : ما أردت
 الى قولك يا بن بركة ؟ قال : سميتها باسمها . قال أبو بكر : إنما أردت بهذا التصغير
 بها وحالها من الإسلام حالها ورسول الله يقول لها يا أمه ويا أم أيمن !
 لا أقالى الله إن أقلتك ، فضر به سبعين سوطاً ^(١)



المرضع

أقبل المراضع إلى مكة عجافاً نحافاً، تحملهن خُمُرٌ عجاف نحاف، ويصحبهن أزواجهن قد مسَّهم الضر وأعياهم الكسب واشتدت عليهم السنة وجَدَّت بهن الأرض، فما يجدون إلى أمن ولا دعة ولا حياة سبيلاً. وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة يلتمسون الرضعاء من أبناء السادة والمُتَرَفِّين في قريش، يبتغون بذلك فضلاً من مال وناقلة من نعيم وحظاً من هذا البر الذي تطمع فيه المراضع عند أهل الرضعاء. فلما ألقوا راحلهم انحدر المراضع إلى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء. وأسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون ويلقون سرارة الناس من قريش فيسمعون منهم ويتحدثون إليهم ويستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة في تلك البادية النائية: بادية بنى سعد بن بكر. وما هي إلا طوفة في الضحى على بعض المنازل والدور حتى آب المراضع موفورات محبورات، قد وجدت كل واحدة منهن رضيعاً من أسرة كريمة موسرة، فامتلات يدها بالمال، ونفسها بالأمل، وقلبها بالغبطة والآن على قوت العيال، إلا حليلة بنت أبي ذؤيب فإنها عادت إلى زوجها كثيبة محزونة

لا تحمل إلا ابنها الهزيل النحيل الذى يصيح فى غير انقطاع ويبكى فى غير هدوء لشدة ما مسّه من ألم الظمأ والجوع .

ولقى الأعرابى امرأته الشابة محزوناً مثلها كثيراً مثلاً ، لا يؤذيه ما يحس من الجوع والظمأ كما يؤذيه ما يسمع ويرى من بكاء الطفل وتوجع أمه البائسة . قال : إني لأرى أترابك من المراضع يرجعن موفورات محبورات يحملن الرضعاء . فما بالك تعودين لا تحملين رضيعاً إلا هذا الطفل . أهلك قد دلت الناس على مكاننا من البؤس وحظنا من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذى لا ينقطع له صياح . أهلك قد آياست الأمهات وأخفت الآباء ألا يلقى أبناؤهم عندك ما يرويههم من ظمأ أو يشبعهم من جوع . ليتنى لم أتحدّر مع الناس إلى المسجد ، وليتنى بقيت هنا أحفظ عليك هذا الطفل حتى لا يسمع الأمهات والآباء له بكاء ولا شكاة ، وحتى لا يرى الآباء والأمهات عليه بؤساً ولا ضرراً . قالت : والله ما صدّ عنى الآباء والأمهات ، ولقد أسكت هذا الطفل فما بكى ولا شكاً ، وما أحس أحد على ولا عليه ضرراً أو شراً ، وإنما صددت أنا عن رضيع صدّ عنه الأتراب من قبلى . قال الأعرابى : وفيه صدّ كن عنه واجتنابكن له ؟ قالت : يتيم ، ليس له أب يرعاه أو يكلّؤه إنما هو إلى أمه وجدّه . وما تصنع أمه وما يصنع جدّه ؟ وماذا تنتظر من برّ الأمهات بالمراضع ومن برّ الجدود بالحفدة وإنهم لكثير !؟ قال : صدقت ، وما لإرضاع اليتامى والمساكين أقبلنا من ديار بنى سعد . وإني لأجد فى نفسى إشفافاً على هذا اليتيم ورحمة له . ولكن ماذا نصنع به فى تلك الأرض

النائية إذا لم يصل إليه وإلينا من برّ أهله ما يقيمه ويقيمنا ويصلح من حاله
ومن حالنا! قالت: لقد رأيته فأحببته، ونظرت إليه فرقت له، ولقد آتست
من أمه دعه ولينا. ولقد نازعتني نفسي إلى أن أحمله لولا أني أشقت مما تقول،
ولولا أني ذكرت الجذب وشدة السنة وانقطاع المادّة وأشقت عليه مما نحن
فيه. قال الأعرابي: فسئقل إذاً كما أقبلنا ويقفل القوم راضين. وإني
والله يا بنّة أبي ذؤيب ما أدرى أتبلغنا أتاننا وشارفنا^(١) ديار بني سعد وإنك
لتعلمين أن أتاننا منهوكة مكدودة وأن شارفنا ما تبض قطرة من لبن.
قالت: فلنقم فإن الأطفال يولدون. ولعل الله أن يرزقنا بين اليوم وغد
رضيعاً نجد عند أهله ما يرزقنا.

وهم المراضع بالقفول، وأخذت بنت أبي ذؤيب تنظر إليهن محزونة
مكلومة، يؤذيها ما ترى من إنجاحهن وإخفاقها ومن قفولهن وتحلفها. وأخذ
الأعرابي ينظر إلى رفاقه يشدون الرحال على المطايا ويحملون النساء على
الأتان، فيؤذيه ذلك ويعيظه، ولكنه يخفي ما يجد من الغيظ ويظهر التجلّد
والصبر. حتى إذا مضى القوم وأمعنوا في الطريق وبعّدوا عن مرمى العين،
نظر الرجل إلى امرأته ونظرت المرأة إلى زوجها ونظر الزوجان إلى ابنتهما
واستمعا لبكائه، وإذا هي تقول لزوجها: ما أدرى لعلي لم أحسن حين جارت
أترابي وأعرضت عن هذا اليتيم، وإن نفسي لتنازعني إليه، وإن قلبي ليعطفني
عليه، وإني لأحس كأنه يدعوني، وإني لأشعر كأنّي لا أستطيع عنه صبراً،
وإني لأرجو إن استجبت لهذا الدعاء الخفي أن يكون الله قد قدّر لنا خيراً.

(١) الأتان: أنثى الحمير والشارف من النوق: المسنة.

وأثرنا ببعض ما نحب . قال : فلا عليك يا بنته أبا ذؤيب ! إذهبي إلى
يتيمك فخذيه ، فإني أكره أن يرحل القوم ونبتي ، وأن يصلوا إلى ديار بني سعد ،
فيتحدث المراضع أنهن قد ظفرن بالرضاع وأن نفوس الآباء والأمهات قد
انصرفت عنك وزهدت فيك .

وتنهض بنت أبي ذؤيب فتعود إلى آمنة فتعرض عليها إرضاع الطفل .
وإذا آمنة تأبى وقد آذاها ما رأت من إعراض المراضع وانصرافهن ، وعلى
وجهها آيات حزن عميق وفي صوتها بقية من بكاء ، وأمها بركة تعينها على
الإباء وتحرضها على الامتناع . ولكن ابنة أبي ذؤيب تنظر إلى الطفل فإذا قبلها
يتملىء حباً له ، وإذا هي تحس أنها مدفوعة إنيه دفعا ، وإذا هي تسرع إلى
الطفل قترفعه بين يديها وتدينه من صدرها ، وإذا الطفل يلتمس الثدي
كأنما كان منه على ميعاد ، وإذا هو يشرب حتى يروى ، وإذا بنت أبي
ذؤيب تجد من اللبن ما لم تكن تجد من قبل ، وإذا آمنة تستجيب لها . وكيف
تأبى عليها وقد رأت من حبها للطفل ومن إقبال الطفل عليها ومن إرضاعها
له ما رأت ! لقد أصبحت هذه الظئر له أمّا . قالت آمنة : خذيه ولا تراعى ،
فإني لأرجو ألاّ تجدى منه إلا خيراً ، فلقد حملته فما وجدت له ثقلاً ،
ولقد انتظرته تسعة أشهر فما أحسست مما يحس النساء قليلاً ولا كثيراً . ولولا
غاشية الحزن التي غشيتنا بفقد أبيه لكانت هذه الأشهر أسعد ما تظفر به
امرأة من دهرها . ولكن الحوادث تحدث والخطوب تلمّ والآمال تقطع
وقد كان يرجى أن تتصل ، والسحب تتراكم فتحجب ضوء الشمس . ولقد

وضعت هذا الصبي ، فما عرف صاحبائي علىّ وعليه شيئاً مما تعوّدن أن يعرفن على الأمهات والولدان . وإنك لتنكرين يا ظئر لو تسمعين . قالت حليلة : وماذا أسمع ؟ وماذا أنكر ؟ قالت آمنة : لم أكن تلك الليلة في دار من دور قریش وإنما كنت في مكان لم يألفه الناس : كنت في بحر من النور كله رحمة وبرٌّ ورضوان . ومالك لا تنكرين هذا يا ظئر وقد أنكرته وأنكرته صواحي ! ومالك لا تعجبين يا ظئر وقد عجبتم صواحي وعجب جدّه الشيخ . سلى حاضنته هذه تنبئك بما رأت وما سمعت . سلى من شئت من نساء بني هاشم ورجلهم تعلّم أن لا بنى هذا اليتيم شأنًا ليس لغيره من أبناء الأغنياء وأهل اليسار . لا تُرأى يا ظئر ، فانك تحملين وليدًا كريمًا لأب كريم وولدٍ كريم . ثم انهلت من عينيها دموع غزار وقالت في صوت يقطعه البكاء : لا تيأسى يا ظئر ، فان معروفنا على قلته سيصل إليك ، ورب قليل خير من كثير . قالت حليلة وقد رق قلبها وجادت عيناها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات : لا بأس عليك يا بنة وهب ، فإني والله ما استطعت صبراً عن هذا الصبي منذ رأيته . وإني والله ما أدري ما الذى عطفني عليه حتى رجعت إليك آخذه منك ، وقد كنت أستطيع القفول ، وقد كنت أستطيع المكث في بلدكم هذا يوماً أو أياماً . فالأطفال يولدون ، وسراة قریش في حاجة إلى المراضع كل يوم ، ولكنه والله أمر يُراد . وانصرفت حليلة بابنها الجديد راضية مسرورة قانعة بما زودتها به آمنة من البر والمعروف . حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابي لقيها باسم الثغر مشرق الوجه سعيداً ألا تعود إليه صفر

اليدين . ولم يكد ينظر إلى الطفل حتى انطلق لسانه وإذا هو يقول لامرأته
 إيه يابنة أبي ذؤيب ! مارأيت كالليوم وجهاً مشرقاً يفيض منه البشر . إني
 والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير . وينهض الأعرابي إلى شارفه
 يلتمس في ضرعها الجاف قطرات من لبن يبل بها ظمأ امرأته وينقع بها
 بعض غلته . فما أسرع ما يأخذه عجب لا ينقضي حين يرى شارفه حافلة تمتحه
 من اللبن ما يريد وما تريد امرأته وفوق ما يريد وما تريد امرأته . وينظر
 الأعرابي فإذا ابنه الأوّل يجد عند أمه ما يرويه ويرضيه ، وإذا وجهه
 الكالح المظلم قد أخذ يُشرق ويضيء ، وإذا ابتسامة حلوة ظاهرة قد ارتسمت
 على ثغره البريء . وإذا هو يقول لامرأته : تعلمي يابنة أبي ذؤيب أنك قد
 حملت نسمة مباركة !

وتنهض الظئر إلى أتانها فتركبها وتضع الرضيع بين يديها . وينهض
 الأعرابي إلى شارفه فيمتطيها ويرميان بنفسهما الطريق يلتمسان الركب من
 بني سعد ، والركب بعيد قد دفع به في طريق طويلة نائية . ولكن الأعرابية
 تجد من أتانها نشاطاً وحدة . ولكن الأعرابي يجد من شارفه قوة ومرحاً .
 وهما يضيآن وكأنما تطوى لهما الأرض طياً . ثم يقول الأعرابي لامرأته : مدي
 عينيك يابنة أبي ذؤيب ، أترين شيئاً ؟ قالت : إني والله ، إني لأراهم وإنهم
 لأذن من مرمى العين . وما هي إلا أن يبلغ الأعرابي جماعة بني سعد
 فيعجب النساء بأمر حليلة وقد أدركتهم في غير جهد ولا كد والأمد بعيد
 والطريق شاقة . ويسأل النساء حليلة عن هذا الرضيع الذي تحمله ، فإذا

أبناءهن بنبئه أظهرن لها الرقة والرثاء وأضرمن التيه والكبرياء ويمضى الركب
أخذاً بأطراف الحديث ، وإن حليلة لتسبق أترابها حتى تُعيهن ، وإن أترابها
ليقلن لها : أهذه أتانك يابنة أبي ذؤيب التي أقبلت بك إلى مكة ؟ فتقول :
هى والله أتانى ما غيرتها . فيقلن : اربعى علينا ^(١) يابنة أبي ذؤيب ، فما رأينا كاليوم
مرحاً ولا عدواً .

ويبلغ الركب ديار بنى سعد ، ويثوب المراضع إلى بيوتهن ويستأنفن
حياة أهل البادية فى أرض مجدبة قلّ فيها الرعى والماء وكثُر فيها البؤس
والشقاء ، وغنم حليلة ترعى كما ترعى الغنم ، ولكنها تروح ملاء حُفلاً لا يظماً
أصحابها ولا يجوعون ، وتروح غنم السعديين مهزولة نحيلة ناضبة لا تكاد
تبض بما يُبلّ الريق . وهم يقولون لرعاتهم : ويلكم ! أرعوا حيث ترعى غنم
ابنة أبي ذؤيب . فيقول الرعاة : والله إنا لرعى حيث ترعى ، وإنها والله
لا تجد أكثر مما نجد ، ولكنها تروح ملاءً ونروح بغنمنا كما ترون لا تُعنى
من ظماً ولا جوع فيقولون : إن لابنة أبي ذؤيب لساناً . وتنعم حليلة وينعم
أبناؤها بحياة رضية هادئة ، وينمورضيعها ويدكو . وتقضى هذه الأسرة
عامين راضيين لا تعرف فيهما مشقة ولا جهداً ، ولا تجد فيهما ألماً ولا سقماً ،
وإنما هى أيام وليال تطّرد ويمضى بعضها فى أثر بعض لا كدر فيها ولا تنغيص .
حتى إذا آن للرضيع أن يثوب إلى أمه نظرت حليلة وزوجها فإذا الطفل
قد نما وزكا كأحسن ما ينمو الأطفال ويزكون ، لم يكديتم الثانية وكأنه
ابن أربع ، والقوم عليه حراص ، ولكنهم يؤدّونه على ذلك إلى أمه كارهين .

(١) اربعى علينا : أى ارفقى واقتصرى .

ثم تهمّ حليلة أن ترجع وقد أرضت أمانة وعبد المطلب وأرضتها أمانة وعبد المطلب. ولكنّها لا تستطيع فراق الطفل حبّاً له وحداً عليه ورغبة في استبقاء ما وجدت في اصطحابه من خير ، فتلح على أمانة في أن ترّده معها إلى البادية هناك حيث الهواء النقيّ والسماء الصافية والحياة الهادئة البريئة ، هناك حيث لا مرض ولا وباء ولا فساد . وتجيئها أمانة الى ما أرادت وقد آثرت الطفل على نفسها وضحت بلذة الأمومة في سبيل تنشئ ابنها تنشئاً صالحاً . وهل عرفت أمانة إلا التضحية ! وتمضى حليلة بالصبي راضية وتبقى أمانة في مكة محزونة . وتنظر بركة إلى حليلة نظرات فيهن الحسد ، وتنظر بركة إلى أمانة نظرات فيهن اللوم .

قلت لمحدثي: فكيف قضى الصبي أيامه بعد ذلك في البادية؟ وكم أقام عند ظئره في ديار بني سعد؟. قال : إن لهذا الحديث عجباً مهما أبلغ من البراعة وقوة البيان فلن أقصّه عليك في تلك السذاجة الحلوة الأخاذة التي كان يقصه فيها مكحول على أهل الشام . فسمع حديث مكحول فانك واجد فيه مثل ما وجدت من اللذة والعظة والعبرة والمتاع . قال مكحول: حدثني شداد بن أوس قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بني عامر ، وهو مدرّهُ قومه وسيدّهم شيخ كبير يتوكأ على عصا ، فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قائماً ونسبه إلى جدّه فقال : يا بن عبد المطلب ، إني أثبت أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس ، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء .

ألا وإنك فوّهت بعظيم ، وإنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من
 بني إسرائيل ، وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان فما لك وللنبوة ! ولكن
 لكل قول حقيقة ، فانبثني بحقيقة قولك وبدء شأنك . قال : فأعجب النبي صلى
 الله عليه وسلم بمسألته . ثم قال : « يا أخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي
 تسألني عنه نبأ ومجلساً فاجلس » فثنى رجله ثم برك كما يبرك البعير . فاستقبله
 النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال « يا أخا بني عامر إن حقيقة قولي وبدء
 شأنني أتى دعوة أبي إبراهيم وبُشْرَى أخى عيسى بن مريم ، وأنى كنت
 بكر أمي وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل ، وجعلت تشتكي إلى صواحبها
 ثقل ما تجد . ثم إن أمي رأت في المنام أن الذي في بطنها نور ، قالت : فجعلتُ
 أتبع بصرى النور والنور يسبق بصرى حتى أضاءت لى مشارق الأرض
 ومغاربها . ثم انما ولدتنى فنشأت . فلما أن نشأت بُعِثْتُ إلى أوثان قريش
 وُبُغِضْتُ إلى الشعر . وكنت مسترضعا في بني ليث بن بكر . فبينما أنا ذات يوم
 منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لى من الصبيان تتقاذف بيننا بالحجارة ^(١)
 إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملىء ثلجاً ، فأخذوني من بين
 أصحابي فخرج أصحابي هرباً حتى انتهوا إلى سفير الوادى . ثم أقبلوا على
 الرهط فقالوا ما أربكُم ^(٢) إلى هذا الغلام فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش

(١) . الجلة : البعر

(٢) . الارب (بفتح الهمزة والراء وبكسر الهمزة وسكون الراء) : الحاجة

وهو مسترضع فينا من غلام يتيم ليس له أب ؟ فماذا يردّ عليكم قتله ؟ وماذا
تصيون من ذلك ؟ ولكن إن كنتم لابدّ قاتليه فاختروا منا أينما شئتم فليأتكم
مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم . فلما رأى الصبيان القوم لا يعيرون
اليهم جواباً انطلقوا هُراً با مسرعين الى الحى يُؤذِنونهم ويستصرخونهم على
القوم . فعمد أحدهم فأضجعنى على الأرض إضجاعاً لطيفاً . ثم شقّ ما بين
مفرّق صدرى إلى منتهى عاتى ، وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مساً ، ثم أخرج
أحشاء بطنى ، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها . ثم قام
الثانى منهم فقال لصاحبه : تَنَحَّ فَتَجَاه عَنِ ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى
وأنا أنظر إليه فصَدَعَه ، ثم أخرج منه مُضْغَةً سوداء فرمى بها ، ثم قال ^(١) بيده
يَمْنَةً مِنْهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً ، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه
فختم به قلبى قامتلاً نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه
فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرًا . ثم قال الثالث لصاحبه : تَنَحَّ فَتَجَاه عَنِ ،
فأمرّ يده ما بين مفرّق صدرى إلى منتهى عاتى فالتأم ذلك الشقّ بأذن الله . ثم
أخذ بيدي فأهضننى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذى شقّ
بطنى : زنه بعشرة من أمته ، فوزنوني بهم فرَجَحْتَهُمْ . ثم قال : زنه بمائة من أمته
فوزنوني بهم فرَجَحْتَهُمْ . ثم قال : زنه بألف من أمته فوزنوني بهم فرَجَحْتَهُمْ .
فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأتمته كلها لَرَجَحْتَهُمْ . قال : ثم ضمّونى إلى صدورهم ،
وقبلوا رأسى وما بين عينى . ثم قالوا : يا حبيب لم تُرْعَ إنك لو تدرى ما يُرْادُ بك

(١) قال بيده : أهوى بها ، وقال برأسه : هزه . (عن أساس البلاغة)

من الخير لقرت عينك. قال : فينا نحن كذلك إذا نابا لحي قد جاءوا بحذافيرهم ،
 وإذا أمي ، وهي ظئري ، أمام الحى تهتف بأعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه !
 فانكبوا على قلوبوا راسي وما بين عيني ، فقالوا : حذا أنت من ضعيف . ثم قالت
 ظئري : يا وحيداه ! فانكبوا على فضؤني إلى صدورهم وقبلوا راسي وما بين
 عيني : ثم قالوا ، حذا أنت من وحيد ! وما أنت بوحيد ، إن الله معك وملائكته
 والمؤمنين من أهل الأرض . ثم قالت ظئري : يا يتيماه ! أستضعفت من بين
 أصحابك فقتلت لضعفك ، فانكبوا على فضؤني إلى صدورهم وقبلوا راسي
 وما بين عيني وقالوا : حذا أنت من يتيما ! ما أكرمك على الله لو تعلم ماذا يراد
 بك من الخير ! قال : فوصلوا بي إلى شفير الوادي . فلما بصرت بي أمي ، وهي ظئري ،
 قالت : يا بني ألا أراك حيا بعد ! فجاءت حتى انكبت على وضممتني إلى صدرها .
 فوالذي نفسى بيده إني لفي حجرها وقد ضممتني إليها وإن يدي في يد بعضهم ،
 فجعلت ألتفت إليهم وظننت أن القوم يبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم .
 يقول بعض القوم إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ^(١) أو طائف من الجن ، فانطلقوا به
 إلى كهنا حتى ينظر إليه ويداويه . فقلت : يا هذا ، ما بي شيء مما تذكر إن
 إرادتي سليمة وفؤادي صحيح ليس بي قَلْبَةٌ^(٢) . فقال أبي وهو زوج ظئري :
 ألا ترون كلامه كلام صحيح ! إني لأرجو ألا يكون بابني بأس . فاتفقوا
 على أن يذهبوا بي إلى الكاهن فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه . فلما قصوا

(١) اللمم (بالتحريك) : طرف من الجنون

(٢) القلبة (بالتحريك) : الالم والعلة .

عليه قصتي قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم . فسألني فاقترضت عليه أمرى ما بين أوله وآخره . فلما سمع قولي وثب إلى وضعتني إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه فواللات والعزى لن تركتموه وأدرك لي مبدل دينكم وليستفهن عقولكم وعقول آبائكم وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط . فعمدت ظئري فانزعتني من حجره وقالت : لأنت أعتته وأجن من ابني هذا ! فلو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك فإننا غير قاتلي هذا الغلام . ثم احتملوني فادّووني إلى أهلي . . فأصبحت مفرّجاً مافيل بي ، وأصبح أثر الشق ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشراك^(١) . فذلك حقيقة قولي وبدء شأني يا أخا بني عامر . فقال العامري : أشهد بالله الذي لا إله غيره أن أمرك حق . فأنبثني بأشياء أسألك عنها . قال : سل عنك وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يقول للسائل : سل عما شئت وعما بدا لك . فقال للعامري : يومئذ : سل عنك لأنها لغة بني عامر . فكلّمه بما علم . فقال له العامري : أخبرني يا ابن عبد المطلب ما يزيد في العلم ؟ قال : التعلّم . قال : فأخبرني ما يدل على العلم ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : السؤال . قال : فأخبرني ماذا يزيد في الشر ؟ قال : التماذى قال : فأخبرني هل ينفع البرّ بعد الفجور ؟ قال : « نعم التوبة تغسل الحوبة^(٢) » والحسنات يذهبن السيئات وإذا ذكر العبد ربّه عند الرخاء أغاثه عند البلاء . قال العامري :

(١) الشراك : أحد سيور النعل التي تكون على وجهها .

(٢) الحوبة (بفتح الحاء وضمها) : الاثم .

وكيف ذلك يا بن عبدالمطلب؟ قال : « ذلك بأن الله يقول : لا وعِزَّتِي وِجَالِي لا أجمع لعبدي أمني ولا أجمع له أبداً خوفين إن هو خافني في الدنيا أمني يوم أجمع فيه عبادي عندي في حظيرة القدس فيدوم له أمانه ولا أحقه فيمن أحق . وإن هو أمني في الدنيا خافني يوم أجمع فيه عبادي ليقات يوم معلوم فيدوم له خوفه » . قال : يا بن عبدالمطلب أخبرني إلام تدعو؟ قال : أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع الأنداد وتكفر باللات والعزى ، وتقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتصوم شهراً من السنة ، وتؤدى زكاة مالك يطهرك الله بها ويطيّب لك مالك ، وتحج البيت إذا وجدت إليه سبيلاً ، وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار » . قال : يا بن عبدالمطلب ، فإذا فعلت ذلك فمألى؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى . قال يا ابن عبدالمطلب ، هل مع هذا من الدنيا شيء فانه يعجبني الوطأة من العيش؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نعم النصر والتمكن في البلاد » . قال : فأجاب وأنا ب (١)

قلت لمحدثي : إن هذا النبأ لعجيب . فمن لهذا الشيخ العامري بما كان يعلم من أمر ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء؟ قال : كان كثير من هؤلاء العرب يلقون اليهود ويلقون النصارى فيعلمون منهم علم الأنبياء وينتهون إلى نفور من دينهم القديم في غير اطمئنان إلى يهودية اليهود

ونصرانية النصارى ، فأخرجهم الله بالاسلام من حيرتهم تلك
قلت لمحدثي : فكيف انتهى حديث مكحول إلى أهل الشام ؟ قال :
أما علمت أن شرّاد بن أوس سكن فلسطين وأنفق شطراً طويلاً من حياته
في بيت المقدس يعلم الناس ويحدثهم ، وعده بذلك النبي نفسه ، فقد تحدثوا
أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوجد بنفسه فقال : مالك
يا شداد ؟ قال : ضاقت بي الدنيا . فقال : ليس عليك ، إن الشام سيفتح وبيت
المقدس سيفتح وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة فيهم إن شاء الله تعالى (١)



البر

ضاقَت الدار باليتيم وحاضنته بعد أن أقفرت من أمه آمنة . فضمه
جده الشيخ إليه ، وكان به حفيًّا^(١) وعليه حريصاً ، يكرمه ويؤثره بالخير ويمنحه
من الحنان والود ما كان يفيض به قلبه الكريم . وكأنه كان قد جمع في قلبه
تصيب ابنه عبد الله من حبه أكثر من ست سنين يزیده وينميه ، حتى إذا
ضم الصبي إليه أخذ يمنحه هذا الحب ويختصه بهذا الحنان . وأخذ الطفل
يحس ذلك وينعم به ، ويألف جده ويطمئن إليه ، بل يطعم فيه ويبلغ من
الجرأة عليه ما لم يكن يبلغه صغار بنيه وكبارهم . كانوا لا يدنون منه إلا أن
يُدنيه ولا يجلسون منه إلا مجلس الإكبار والإجلال ، وكان الطفل يدنو
منه متى شاء وينصرف عنه متى أحب . وتبلغ الجرأة به أن يسبقه إلى مجلسه
فيجلس فيه ويستأثر من دونه بالفراش ، وكان أعمامه وعماته يرون منه هذا
فيحاولون رده عنه وتأديبه بأداب الأسرة ، ولكن الشيخ كان يكفهم عنه
ويقول : دعوا ابني إنه ليؤنس مُلْكاً .

ولم يكن الشيخ يسميه إلا بهذا الاسم الحلو ، كان إذا تحدث عنه قلما
يذكر محمداً أو أحمداً إنما كان يقول : جاء ابني وذهب ابني . وكان يقول لبركة :

(١) حفي به : معنى به يسأل عن شؤونه ويكرمه .

استوصى بابن . وكان يقول لأبني طالب : احتفظ بابني . فليس غريباً أن يلمّ
المرض بالشيخ ويتقل عليه فيكتب اليتيم ويمتلئ قلبه حزناً وألماً . وما يمنعه
أن يكتب وما يمنعه أن يحزن ويألم وقد كان يعيش في ظل جدّه عيشاً إن
لم يكن يسراً كله ودعة كله فقد كان حباً كله وحناناً كله ! .

ويصبح الشيخ ذات يوم مثقلاً مكدوداً يحس كأن الحياة تفارقه
وكان الموت يسعى إليه ، فلا يشك في أن هذا اليوم آخر عهده بالدنيا هنالك
فكر الشيخ في هذا الدهر الطويل الذي أنفقه بين الناس جاهداً في الخير
ما استطاع ، باذلاً معروفه ما وسعه البذل ، مطوّفاً في أقطار الأرض بتجارته
وتجارة قريش ، مقياً في مكة بين نسائه وبنيه ، يذهب من داره إلى المسجد
ويعود من المسجد إلى داره ، لا يغدو إلا مفكراً في خير ، ولا يروح إلا مفكراً
في معروف . والناس من حوله ينعمون ببرّه وعطفه عليهم ، فيحبونه
ويؤثرونه ويصفونه المودة ويصدقونه الولاء . وفكر الشيخ في هذه المحن
والخطوب التي ألمّت به وألحّت عليه فلم تلبّ قناتاً ولم تقلل جدّه ، وإنما تركته
كما لقيته صلباً جلدأ حازماً ماضى العزم ، كأنه الشجرة العظيمة قد ثبت أصلها
في الأرض وامتدت أغصانها القويّة في الجو ، فهي مستقرة في مكانها تختلف
عليها العواصف فلا تضطرب ولا تميل . وفكر الشيخ في ابنه عبد الله كيف
كان يحبه ويألفه ويضنّ به على المكروه ، وكيف لم يمنعه هذا الحب من أن
يقدمه ليؤدّي به ما كان قد فرض على نفسه من النذر ، وكيف جدّ في ذلك
وجدّ القتي في الطاعة والإذعان حتى اقترح عليه الفداء ، وكيف فادى .

ابنه فغالى فى الفداء ، وكيف اغتبط وابتهج حين قبل الآلهة فداءه وتركوا له ابنه ، ثم كيف أرسله هو إلى الشام ليموت فى يثرب بعد أن اتجر فأفاد ربها كثيرا . نعم ! وفكر الشيخ فى أمانة كيف خطبت للفقى ، وكيف احتملت فقده كريمة أمانة . ثم فكر فى هذا الطفل اليتيم فى هذه الأطوار الغريبة التى أحاطت بمقدمه إلى الأرض ودخوله فى الحياة . فكر فى هذا كله فرضى عن نفسه كما رضى عنه الناس ، وحزن على نفسه كما حزن عليه الناس . وكان واثقا بأن ما رأى من الأحداث التى لم يرى الناس مثلاً لم يُرسل إليه عبثاً ولم يسلط عليه إلا لأمر يراد . وكان يقدر أن هذا الأمر الذى يراد إنما يراد بابنه اليتيم . وكان يود لو مدّت له الحياة فرأى من أمر ابنه ما لم يكن يشك فى أنه واقع محتوم ولكن الحياة لا تنال بالرغبة ، والموت لا يدفع بالكراهة ، والأيام لم تعط للناس عهداً بأن تكون عند ما يريدون . وهل مدّت أسباب الحياة لعبد الله حتى يرى ابنه وليداً ، بل هل مدّت أسباب الحياة لعبد الله حتى يعلم أنه قد ترك لنفسه وارثاً . لقد مات وهو يعلم حق العلم أنه لم يُعقب ! . ولو قد كشف عنه الحجاب لعلم أنه أعقب لا كما يُعقب الناس . وهل مدّت أسباب الحياة لأمانة حتى تسعد بابنها اليتيم ! . لقد ولدته فاخططته منها المرضع واحتفظت به زمناً طويلاً . ولم تسكد الأم تنعم بابنها حتى أقبل الموت فقطع ما بينهما من سبب وأبى إلا أن ينقلها إلى جوار زوجها الذى طالما كانت تذكره وتفكر فيه . فلم تمدّ أسباب الحياة للشيخ وقد أنفق فى الأرض أكثر من مئة سنة ذاق فيها خير الحياة وشرها ، وبلا فيها حلوا الحياة ومُرّها !

لَمْ تَمُدَّ لَهُ أسباب الحياة وكل شيء من حوله ومن حول الطفل يدل على أن حياة هذا الصبي لن تكون كحياة غيره من الصبيان يسيرة مطردة لا عوج فيها ولا تنواء ، وإما ستكون حياة فيها امتحان وابتلاء ، وفيها تصفية وتطهير . لقد فقد أباه وقد أمه ، وهو الآن سيفقد جدّه ، وسيصبح بعد ساعات يتيمًا حقًا ، وحيدًا حقًا ، ليس له من يعطف عليه أو يرقّ له إلا هذه الأمة التي تحضنه وعمه الذي سيكفله كما يكفل الأعمام أبناء الإخوان .

وكان الشيخ يفكر في هذا ويحس أنه يزداد ثقلًا على ثقل ، ويشعر كأنه يفارق ما حوله ومن حوله قليلًا قليلًا ، لا يتقدّم في الزمان لحظة حتى يخطو إليه الموت خطوات . وكان الشيخ يحب أن يسمع من أصوات الناس أكثر ما يستطيع أن يسمع قبل أن يغمره الموت فلا تصل إليه الأصوات . وكان أحب الأحاديث إلى الشيخ في هذه اللحظات القليلة الباقية حديث نفسه . فيدعو بناته ويطلب إليهن أن يبكين النساء الموتى ، ويلح عليهن في ذلك ، لأنه يريد أن يسمعهن أو لأنه يريد أن يسمع رثاء نفسه . ولعله لو استطاع أن يرثى نفسه بنفسه لفعل . وهؤلاء بناته من حوله يرفعن أصواتهن نادبات نأحات معدّات مآثره ومفاخره مصوِّرات هذا الحزن العميق الذي كان يسعى حثيثًا إلى قلوبهن كما كان الموت يسعى حثيثًا إلى الشيخ . والصبي قائم من وراء السرير يرى ويسمع ويمتليء قلبه بما يرى وما يسمع ، وتنهّل من عينيه دموع صامتة لعلها لو رآها الشيخ لأرضته . ولكن الشيخ يسرع إلى الموت أو يسرع إليه الموت ، فهو يسمع بناته

ولا يستطيع أن يرد عليهن أو يتحدث إليهن، فيكتفي بما لا بدّ له من أن يكتفي به من الإيمان. ثم يسرع إلى الموت ويسرع الموت إليه حتى يلتقيا فلا إيمان ولا حراك. قد سكت الشيخ وسكت بناته لحظة. ثم تمضي حياة الناس في طريقها، فيشغل أهل الشيخ بالشيخ ليقطعوا هذه الأسباب الواهية التي بقيت بينه وبين الأحياء والأشياء، ليغيبوه في قبره، وليفرغوا لشؤونهم وليحتفظوا منه بهذه الذكري التي تملأ القلب كله ثم تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تتخذ لها مكاناً ضيقاً خفياً تستقرّ فيه يحسها الرجل حيناً ويجهلها أحياناً.

والصبيّ محزون كئيب، يذكر أمه ويذكر جدّه وينظر إلى حاضنته وينظر إلى عمه، ويفوّض أمره بعد هذا إلى الله.

وقد شمله الله برعاية لا تقتصر، وكلاءه بعناية لا تغفل. فلم يلق من الناس في طفولته وشبابه شراً ولا تكراً، ولا احتمل منهم ألماً ولا مكروهاً. عطف عليه عمه كما كان يعطف عليه جدّه، حتى آثره بالموّدة واختصه بالبرّ، ولقي منه عمه مثل ما كان يلقي جدّه حبّاً بحب وودّاً بود. وكان أبو طالب رجل مروءة وصدق وحسن بلاء، ولكنه كان فقيراً كثير العيال، وكان يجد جهداً عظيماً في إقامة عياله الكثيرين وسدّ خلاّتهم. فلما ضمّ إليه هذا اليتيم صلح أمره وحسنت حاله ووجد البركة والسعة فيما كان يتاح له من القليل. كان يكسب لعياله ما يستطيع، ثم يجمعهم حوله فلا يستطيعون إلا أن يمسوه مساً رفيقاً، ثم ينصرفون وقد استنفدوه وما زالوا جوعاً. فلما ضمّ الرجل إليه ابن أخيه اليتيم لم يزد ما كان يكسب، ولكن الله بارك فيه وزكاه. فكان

الرجل يجمع عياله، ومعهم يتيمه هذا، حول هذا القليل ، فلا يقومون إلا وقد أدركوا ما يدفع عنهم ألم الجوع ويُبَلِّغهم الرضا والاطمئنان .

وكذلك أنفق اليتيم طفولته وصباه بين هذين القلبين الرحيمين : قلب عمه وقلب حاضنته .

ولست أعرف صبياً تأثر بحياة الصبِّ واحتفظ بحوادثه وذكرياته ما أقام في هذه الدنيا ووفى للذين برّوا به وأحسنوا إليه كهذا الصبي . لم يكدر يقدر على البرِّ وإسداء المعروف وإظهار شكره للنعمة واعترافه بالجميل حتى ضرب للناس في ذلك أروع الأمثال وأبلغها تأثيراً في القلوب .

أرضعته أمةٌ لأبي هب يقال لها ثويبة أياماً قبل أن تأخذه حليلة . فلما علم ذلك من أمرها حفظ لها هذه النعمة وعرف لها هذا الجميل . فلم يكدر يقدر على شكرها والبرِّ بها حتى جهد في ذلك ، وإذا هو يحمل زوجته خديجة على أن تسعى عند أبي هب في أن تشتري منه هذه الأمة لتعتقها ، فيأبى أبو هب فيتصل معروف الرضيع بأمه هذه ما أقام بمكة، حتى إذا هاجر إلى المدينة لم ينس أمه ولم يهملها، وإنما أرسل إليها الصَّلَات والكسوة من حين إلى حين، حتى إذا عاد من خيبر وقيل له: إن ثويبة قد ماتت سأل عن قرابتها لينالهم بما كان ينالها به من المعروف ، فأبىء بأنها لم تترك أحداً .

وحياة أهل البادية مملوءة بالضنك حافلة بالشقاء . فانظر إلى حليلة تهبط إلى مكة تستعين بابنها على أنقال الحياة ، فيكلم لها خديجة فتمنحها بغيراً وأربعين شاة . وانظر إليها تستأذن عليه مرة أخرى ، فإذا أدخلت عليه

ورأها قال: أمي!! أمي! ثم بسط رداءه فأجلسها عليه، ثم أدخل يده من دون ثيابها فمس صدرها ممسًا، ثم قضى حاجتها.

ثم انظر إليه بعد أن عظم وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها، وقد نصره الله يوم حُذَيْنَ على هوازن، فهزم الجند واحتوى المال وسبي الذرية والنساء، وقسم الغنائم بين المسلمين، وأنه بالجرارة^(١) صباح يوم وإذا وفد من هوازن يقبل عليه مساءً آمنين باسلام من وراءه من الناس، وفي هذا الوفد عمه من الرضاعة، وإذا عمه هذا يتحدث إليه فيقول: يا رسول الله، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضك، وقد حضناك في حجبونا وأرضعناك بشدتنا، ولقد رأيتك مُرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك، ورأيتك فطماً فما رأيت فطماً خيراً منك، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خلال الخير ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك، فامنن علينا من الله عليك. فيجيبه: لقد استأنيتُ بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبي وجرّت فيه الشُهْمَانُ^(٢). فما كان منه لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا: نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله، فإني سأقول لكم: ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم. وسأطلب لكم إلى الناس، فلما صلى

(١) الجرارة (بكسر وسكون العين وقد تكسر العين): موضع بين

مكة والطائف.

(٢) الشُهْمَان: جمع سهم وهو النصيب والحظ.

الظهر قام الوفد فأتهم ما أمر به ، ووفى لهم بوعده وشفع لهم عند الناس .^(١)
فردت عليهم نساؤهم وأبنائهم لم يآب ذلك إلا نفر من الأعراب اشترى منهم
ما كان في أيديهم من السبي ورد على أهله .

قلت لمحدثي : فإن هذا الوفاء بليغ التأثير في النفوس ، وأبلغ منه هذه
الحيلة الطاهرة البريئة في استخلاص السبي من الذين ملكوه ، فيها وفاء ،
وفيهما ردٌ للحرية على آلاف من الناس ، وفيها إقرار للأمن والسلم في قبيلة
ضخمة قوية من العرب ، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والمؤجدة والحقْد
وتهيئتها لقبول الإسلام والنصح للمسلمين في صدق وإخلاص . قال لمحدثي :
نعم ، ولكن له وفاء آخر يملأ القلوب رحمة ويمزقها لوعة وأسى ، لأنه وفاء
الحب الصادق في الحب العاجز عن النفع الذي لا يملك لمن يحب خيرا .
قلت : وكيف يجد العجز إلى هذا القلب العظيم سبيلا ؟ قال : إن الله قدراً
مهما تعظم القلوب فلن تغيره ولن تبدله . لقد كان أشد الناس برّاً بأمه
ووفاء لعمه . مرّ بقبر أمه عام الحديبية فاستأذن ربه في أن يزور القبر
فأذن له فزاره وأصلحه ومكث عنده حيناً . ثم استأذن ربه في أن يستغفر
لأمه فأبى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً كثيلاً ، وبكى المسلمون لبكائه ،
واكتأب المسلمون لاكتنابه . ودخل مكة عام الفتح ظافراً منتصراً . وبينما
هو في بعض مواضعها رأى أصل قبر فعطف عليه وأقام عنده ، واستأذن في

الاستغفار لصاحب القبر فلم يؤذن له ، فانصرف محزوناً كثيراً وبكى فبكى
الناس . وما رأى الناس يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم ^(١) واختلط أمر هذا
القبر على الرواة ، فظنوه قبر أمه ، وقبر أمه في الأبناء . ومن يدري لعلة قبر
جدّه الشيخ . وعرض الاسلام على عمه وألح عليه وكاد الرجل أن يقبل لولا
حمية الجاهلية . فلما مات قال ابن أخيه : لا تستغفرن لك ، فلامه القرآن في
ذلك لوماً غنياً .

تبارك الله ! رجل يخرج الله به أمة كاملة من الظلمات إلى النور ، ويفتح
لها به أبواب الخير على مصارعها إلى آخر الدهر ، ثم يأبى الله عليه أن يستغفر
لأمه ومعه وأن ينقذ أهله الأقرين الذين أدّوه إلى الناس وحمّوه حتى أدّى
الأمانة وبلغ الرسالة ^(٢) !

قلت لمحدثي وماذا تنكر من ذلك وعدل الله محتوم لا يقبل أخذاً ولا رداً ،
ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة ؟ قال لا أنكر شيئاً ، وأعوذ بالله أن أنكر
شيئاً ، وأنا أعلم أن الله قد تادّن أنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك
لمن يشاء ، إنما أرى للناس الذين يرون الخير فيجتنبونه ، ويرون الشر
فيتهالكون عليه ، أرى لهؤلاء الذين يبلغ بهم الضعف وخور النفوس
أن يظلموا الأبرياء ويعتدوا على الوادعين ليؤثروا أهلهم وقرباتهم بما ليس
لهم بحق . ولو قد حاول الناس أن يتأثروا مثل العليا ويتأسّوا بالأسوة

(١) طبقات ابن سعد صفحة ٧٤ الجزء الأول القسم الأول .

(٢) تفسير الطبري جزء ١١ من صفحة ٣٠ الى ٣٤

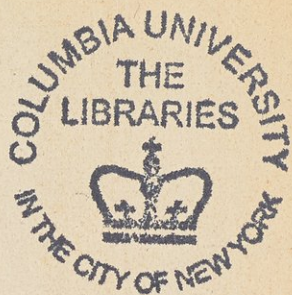
الحسنة لكان لهم في مثل هذه القصة صارفٌ عما يجترحون من السيئات ،
ورادع عما يقترفون من الآثام . وهل ترى أبلغ في تصوير العدل الصارم
الحازم الذي لا يقبل هوادة ولا يَحتمل رقفاً ، لأنه ليس موضع هوادة ولا
رفق ، من هذه الآية الكريمة التي يلام فيها النبي والمسلمون حين استغفروا
لمن لا مطمع له في المغفرة :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ
قَرَبَىٰ مِنْ بَدَمَاتِهِمْ أَنَّهُمْ أَحْبَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ
لَأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » .



فهرس

ج	مقدمة
١	حفر زمزم
١٢	التحكيم
٢٤	الفداء
٣٥	الاغراء
٥٣	البين
٦٤	القضاء
٧٨	الردّة
٨٥	الطاغية
٩٢	البشير
١١٨	راهب الاسكندرية
١٤٦	اليتيم
١٥٨	الحاضنة
١٦٩	المرضع
١٨٣	الر



الطبعة الأولى سنة ١٩٣٣



